

الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم

IUQR3213

المحتويات

٢٥-٧	الدرس الأول : مقدمة في وجوه الإعجاز
٤٨-٢٧	الدرس الثاني : تابع: مقدمة في وجوه الإعجاز - الصرفة، والإخبار بالغيبيات
٦٧-٤٩	الدرس الثالث : أوجه إعجاز القرآن الكريم: حفظ التشريع ودوامه
٩٠-٦٩	الدرس الرابع : الإعجاز العلمي، والعددي، والتصوير في القرآن الكريم
١١٠-٩١	الدرس الخامس : الحروف وأصواتها ودورها في بيان إعجاز القرآن
١٢٧-١١١	الدرس السادس : تابع: الحروف وأصواتها ودورها في بيان إعجاز القرآن
١٤٦-١٢٩	الدرس السابع : حروف المعاني (١)
١٦٨-١٤٧	الدرس الثامن : حروف المعاني (٢)
١٩١-١٦٩	الدرس التاسع : حروف المعاني (٣)
٢١٣-١٩٣	الدرس العاشر : القراءات القرآنية وما بها من أوجه للإعجاز
٢٣٥-٢١٥	الدرس الحادي عشر : تابع: القراءات القرآنية وما بها من أوجه للإعجاز
٢٥٨-٢٣٧	الدرس الثاني عشر : مفردات القرآن ووجه الإعجاز فيها
٢٧٧-٢٥٩	الدرس الثالث عشر : قضية النظم

الإعجاز النغمي في القرآن الكريم

- الدرس الرابع عشر : قضية الذَّكر والحذف ٢٧٩-٢٩٩
- الدرس الخامس عشر : تابع: قضية الذَّكر والحذف ٣٠١-٣٢٦
- الدرس السادس عشر : التوكيد في النظم القرآني ٣٢٧-٣٤٧
- الدرس السابع عشر : تابع: التوكيد في النظم القرآني - التكرار في القرآن الكريم ٣٤٩-٣٦٥
- الدرس الثامن عشر : تابع: التكرار في القرآن الكريم ٣٦٧-٣٨٤
- الدرس التاسع عشر : موقف علماء الصرف والنحو من قضية الزيادة ٣٨٥-٤٠٥
- الدرس العشرون : الفصل والوصل ٤٠٧-٤٢٥
- الدرس الحادي والعشرون : الفصل والوصل في القرآن ٤٢٧-٤٤٣
- الدرس الثاني والعشرون : ملحات الجرجاني في (دلائل الإعجاز)، وإحصاء الشيخ عزيمة ٤٤٥-٤٦٦
- قائمة المراجع العامة : ٤٦٧-٤٧٠

مقدمة في وجوه الإعجاز

عناصر الدرس

- العنصر الأول : ماذا نعني بإعجاز القرآن؟ ٩
- العنصر الثاني : الفرق بين معجزة القرآن وسائر المعجزات ١١
- العنصر الثالث : أوجه إعجاز القرآن ١٥
- العنصر الرابع : كيفية تحدي نبينا ﷺ للعرب ٢٣

ماذا نعني بإعجاز القرآن؟

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله - تعالى - من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، اللهم صلّ على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وآل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد؛ وبعد:

فهذه المادة المباركة من المواد التي ينبغي أن يحرص المسلم على تعلمها؛ لأنها تربطه بكتاب ربه ﷻ.

وموضوع درسنا هو: "مقدمة في وجوه الإعجاز".

فقبل الدخول في تفاصيل المنهج والخوض في جزئياته التي نتناولها بالدراسة، لا بد أن نقف مع مجموعة من الأسئلة، يتبين لنا من خلال الإجابة عنها أهمية المادة التي ندرسها؛ وذلك يحفز همم الطلاب للاهتمام بها عقلاً وحساً لما فيها من ثمار تعود على كل منا بالنفع في أمر دينه ودنياه، وهذه الأسئلة تعد بمثابة التمهيد والمدخل للدراسة:

أولاً: ماذا نعني بإعجاز القرآن؟

ثانياً: ما الفرق بين معجزة القرآن وسائر المعجزات التي اختص بها الله رسله؟

ثالثاً: ما أوجه الإعجاز في القرآن الكريم؟

رابعاً: كيف تحدى نبينا الكريم ﷺ العرب بالقرآن الكريم؟

خامساً: لماذا ينصب اهتمامنا حول الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم؟

سادساً: ما ثمة دراسة إعجاز القرآن؟

السؤال الأول: ماذا نعني بإعجاز القرآن؟

الإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا توضيح المقصود بكل من الإعجاز والقرآن:

الإعجاز في اللغة: من العجز وعدم القدرة والاستطاعة، فنقول: عجز فلان عن فعل كذا؛ أي عن القيام به، والقدرة على إنفاذه وفعله، ويقال: أعجزني فلان: إذا عجزت طلبه وإدراكه؛ ومن ثم سُميت آيات الرسل معجزات؛ لظهور عجز المرسل إليهم عن معارضتها بأمثالها.

المعجزة اصطلاحاً: أمرٌ خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة.

والقرآن: مصدر قرأ على وزن فُعلان بالضم، كالغفران والشكران، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿القيامة: ١٧، ١٨﴾. ثم صار لفظ القرآن علماً شخصياً على الكتاب المنزل على محمد ﷺ وهو الأغلب في استخدامه في كتاب الله، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

وروعي في تسميته كونه مقروءاً أي: متلوّاً بالألسن، وحده العلماء بأنه كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته. كلام الله تعالى يُخرج كلام البشر وكلام غيرهم من المخلوقات، فهو كلام الله ﷻ والمنزل على محمد ﷺ يُخرج سائر الكتب التي أنزلت على الرسل من قبله كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم والزيور على داود # والمتعبد بتلاوته: يُخرج ما لا يتعبد بتلاوته مما هو مقدس ومما هو له قدسيته عند المسلمين؛ كأحاديث النبي ﷺ والأحاديث القدسية

والقراءات التي توسم بأنها قراءات آحاد، لا تصل إلى حد التواتر؛ فلا يتعبد بتلاوتها.

وعرّف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - القرآن في (العقيدة الواسطية) بأنه: "كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلم به حقيقة، وألقاه إلى جبريل، فنزل به على محمد ﷺ".

فاهتم - رحمه الله - في حده بإبطال قول أهل الزيغ والضلال بخلق القرآن.

ومن خلال بيان معنى الإعجاز والقرآن، يتضح المقصود بإعجاز القرآن، وهو: "إعجازه الناس أن يأتوا بمثله لعدم قدرتهم على ذلك، أو إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به" أو كما قال أبو البقاء في (الكليات): "ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجزهم عن معارضته".

الفرق بين معجزة القرآن وسائر المعجزات

السؤال الثاني: ما الفرق بين معجزة القرآن وسائر المعجزات؟

فالإجابة عنه نحتاجها لبيان ما اختصّ به الله ﷻ خير الأنام محمد ﷺ دون سائر الرسل والأنبياء، فما من نبي إلّا وكان معه آية صدقه، ودليل تفضيله على من أرسل إليهم بالاصطفاء، فالله يصطفي من خلقه ما يشاء: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

هذا الاصطفاء وهذا الاختيار من الله ﷻ سنة سنّها في إرساله الرسل؛ أن يكون معهم ما يثبت أنهم يُخالفون من أرسل إليهم فيأتون أقوامهم بما يعجزون عنه في وقت يُعلم فيه أن هؤلاء يبرعون فيما عجزوا عنه؛ بمعنى: أن ما من رسول

يرسل إلى قوم إلا بمعجزة من جنس ما برعوا فيه ؛ ليثبت لهم أنه يختلف عنهم ،
وأنه مرسل من قبل ربه ﷻ .

مثال : عندما ظن السحرة أنهم بلغوا في هذا الفن منتهاه جاء موسى # ليُبطله
بعصاه ، وعندما برع بعد ذلك بنو إسرائيل في الطب جاءهم عيسى # بما يعجز
الأطباء عنه ، فما من طبيب يستطيع أن يحيي الموتى ، فجاء عيسى # بمعجزة
إحياء الموتى ، وكذلك الأمراض التي لا علاج لها كالعمى والبرص جاءهم
عيسى # ليبرئ الأكمه والأبرص ، فكانت هذه المعجزات الحسية دليلاً على
صدق نبوتهم - عليهم السلام - وعلى أنهم مرسلون من قبل الله ﷻ كذلك
معجزة النبي ﷺ مع العرب ، لما ارتقى العرب ذروة الفصاحة والبيان جاءهم
القرآن ؛ ليعلمهم أن لا قول ، ولا كلام ، ولا شيء مما برعوا فيه من فنون الأدب
- شعرها ونثرها وسجعها وغيرها من الأرجاز والمسجوع والفنون التي برع فيها
العرب أيما براعة - أن كل ذلك لا يضاهاي القرآن ولا يشابه القرآن في شيء ،
وأن القرآن نسق يختلف عما يتداولونه في كلامهم وفي آدابهم التي بلغوا فيها
القمة ووصلوا إلى أعلى درجاتها .

هذا يتفق فيه الرسل .

إذا ما الفرق بين القرآن وبين المعجزات الأخرى؟

نقول : إن الفرق بين القرآن وبين المعجزات السابقة يتركز في ثلاث نقاط :

النقطة الأولى : هي أن معجزة الأنبياء حسية ، حسية بمعنى مُشاهدة ، يؤمن بها
من رآها بعينه ، ومن لم يرها قد ينكرها ؛ لأنها بالنسبة له خبر إن شاء صدقه وإن
شاء رفضه ، بمعنى : أن موسى # مع قومه شاهدوا أن البحر قد انشق وأنه

جمدت فيه المياه، وشكّلت هيئة جبل ومر موسى # ومن معه ثم عاد البحر كما كان قبل أن يمر موسى # ومن معه.

وكذلك عيسى # عندما أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، نظروا في هذه المعجزة وعلموها مع وجود عيسى # وشاهدوها بأعينهم، فهذه المعجزات التي أتى بها الأنبياء، حتى معجزة إبراهيم # عندما حطم الأصنام وعندما جابه أهل الأوثان وبيّن لهم فساد معتقداتهم وجاءوا به # ليجعلوه عبرة لمن يتناول على آلهتهم، وسعّروا النيران وجعلوها مؤججة عالية تلتهم أي شيء يقربها حتى إن الطير إذا حام حولها سقط فيها من شدة لمبيها، جعلوها ليلقوا فيها إبراهيم # على أعين الناس لعلمهم يشهدون، هذه النيران سلبت خاصيتها وهي الإحراق، فدخل إبراهيم # وجلس هائئاً مطمئناً لا يشعر بحرّها، بل إنها كانت برداً وسلاماً عليه، ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] هذه المعجزات لا يعرفها إلا من شهدها، فهو يؤمن بها، أما من جاء بعدهم كانت بالنسبة له أخبار تحكى، وقول يسمعه إن آمن به آمن، وإن جحد به كان له أن ينكر ذلك ويدعي أنه لا يصدقه.

هذا بالنسبة لمعجزات الأنبياء، أما القرآن فعلى خلاف هذا، القرآن معجزة عقلية باقية خالدة إلى أن تقوم الساعة، فهو معجزة النبي ﷺ الذي يتحدى بها كل من لا يؤمن به، فالذي لا يؤمن بالقرآن يقال له: ﴿فَأَنزِلْنَا سُورَةَ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] يقال له: هذا كتاب الله ﷻ أنزله على رسوله صدقاً إلى أن تقوم الساعة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فليس بالمعجزة الحسية، وإنما هو معجزة عقلية، هذه هي النقطة الأولى.

النقطة الثانية: أن معجزات الأنبياء - عليهم السلام - من فعل الله عز وجل أجراه على أيديهم، وفعل الله عز وجل يزول بزوال من أجري على يديه هذا الفعل؛ أي: بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وبعد موت موسى عليه السلام هذه المعجزات التي كانت تُرى على أيديهم لا تُرى؛ لأنها من فعل الله عز وجل أجراه على أيدي النبيين الكريمين، فلما انقضى وقت إرسالهما زالت هذه المعجزة مع عدم وجودهما - عليهما السلام.

أما معجزة القرآن فهي صفة من صفات الله عز وجل والصفة باقية؛ لأنها كلام الله عز وجل فالصفة باقية بقاء فاعلها عز وجل.

النقطة الثالثة: هي أن الرسل الذين أنزلت عليهم الكتب "التوراة، والإنجيل، والزيبور، وصحف إبراهيم" الرسل الكرام الذين أنزلت عليهم الكتب - لم تكن الكتب هي معجزتهم التي أرسلوا بها، وإنما كانت الكتب بالنسبة إليهم منهاجاً يسرون عليه وشرعاً يحتكمون إليه ويوجهون أتباعهم إليه، فكانت لهم معجزات بخلاف الكتب المنزلة عليهم، ورسولنا الكريم عليه السلام كانت معجزته هي عين منهجه؛ بمعنى أن القرآن منهج ومعجزة؛ القرآن منهج وضعه الله عز وجل للأنام ليسيروا عليه، وليعلموا شرع ربهم، وكذلك هو معجزة النبي عليه السلام.

هذا لا يعني أننا نقول: إن النبي عليه السلام لم يكن له معجزات حسية، لا؛ كان النبي عليه السلام له معجزات حسية مشاهدة كما ثبت في الصحيح من حنين الجذع إليه، ومن قول الشاة له: إنها مسمومة، وغير ذلك مما ذكر في الصحاح، ومما ثبت من معجزات مشاهدة لنبينا عليه السلام ولكنها لم تكن هي المعجزة التي أرسل بها، وإنما كانت ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وكانت لتثبيت أصحابه < وتثبته هو عليه السلام في

أحلك المواقف التي وضع فيها كفعله ﷺ برسوله الكريم عندما أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ورفعته إلى السماوات العلى، وجعله يرى من آيات ربه الكبرى؛ كل ذلك من المعجزات، ولكن ذلك ليس هو عين معجزة النبي ﷺ فعين معجزة النبي ﷺ في الكتاب الذي أرسل به للعالمين ﷺ.

لذلك نجد الفرق بين القرآن والكتب الأخرى؛ القرآن تكفل الله ﷻ بحفظه؛ لأنه هو عين معجزة النبي ﷺ بخلاف الكتب الأخرى لم يتكفل الله ﷻ بحفظها، فدخلها التحريف والتبديل والنسيان، أما القرآن فتعهد الله به: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩] وذلك لبقاء المعجزة بمنهجها وحفظ المنهج بالمعجزة.

أوجه إعجاز القرآن

السؤال الثالث: الذي نتعرض وهو بيت القصيد، وغاية المرید؛ حيث إن هذا السؤال هو الذي يستحق أن نقف عنده؛ لأنه هو موضوع مادتنا طوال العام إن شاء الله ﷻ.

وهو الوقوف على أوجه إعجاز القرآن، أو بيان كيفية إعجازه أهل الفصاحة والبيان وإخراسه كل إنسان:

في ذلك المضمار الذي هو بيان أوجه الإعجاز تسابق المتسابقون واجتهد المصنفون، بدليل أن دراستنا حول وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم وهو الجانب اللغوي؛ ليتبين لنا لم عجز العرب عن معارضة القرآن والإتيان بمثله؟ ذلك السؤال الذي تنازعه أهل الأهواء وأهل الحق على السواء؛ فذهب المعتزلة

إلى القول بالصرفة وسيأتي بيانها، وذهب الأشاعرة إلى أن سر الإعجاز ما به من الإخبار عن الغيبات.

وهناك من يقول: إن إعجاز القرآن في معانيه دون ألفاظه، وهناك من يقول: "إن إعجاز القرآن في نظمه" وهناك أيضاً من يقول: "إن إعجاز القرآن في خلوه من التناقض" وفي العصر الحديث عصر العلم والتكنولوجيا كما يحلو لهم أن يطلقوا عليه ظهر الاهتمام بما يسمى الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وهناك جهود وجهود حول إبراز أوجه جديدة للإعجاز في القرآن الكريم، كما فعل الأستاذ رءوف أبو سعدة في كتابه (العلم الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن) ووضع تحت هذا العنوان عبارة (وجه جديد في إعجاز القرآن الكريم).

كذلك لا بد لنا قبل أن نبين أوجه الإعجاز أن نفرق بين شيئين:

أولاً: بين إعجاز القرآن في ذاته، وبين تحديه: أي نفرق بين كون القرآن في ذاته معجزاً، وبين كونه تحدى به رسول الله ﷺ العرب، فالقرآن في ذاته كله إعجاز؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فمن ثم فأسراره لا تنتهي وعلومه لا تنقضي، فكما أن منزله ﷺ كما قال أبو العتاهية:

وفي كل شيء له آية ❖ تدل على أنه الواحد

فإن كتابه الأسمى وكلامه الأعظم يجوز لنا أن نقول:

وفي كل حرف له آية ❖ تدل على أنه المعجز

فأما إعجازه في تحديه فهو بيان سبب عجز من أنزل عليهم عن الإتيان بمثله أو معارضته وهم أرباب الفصاحة وأهل البلاغة، بلغوا ذراها وخبروا منتهاها ومع

ذلك لم يلجئوا إلا إلى السيف في إخماد دعوة الحق معلنين عجزهم عن الإتيان بمثله أو عشر سور مثله مفتريات أو سورة من مثله كما سنبين إن شاء الله.

وما ورد من محاولة بعضهم معارضة القرآن كان عبارة عن سفاهات وافتراءات وكلام، كما قال الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) هو أخس من أن نشغل به، وأسخف من أن نفكر فيه، ومن كان له عقل لم يشته عليه سخف هذا الكلام؛ يقصد ما حكي عن مسيلمة الكذاب في ادعائه أنه يستطيع أن يعارض القرآن، وفي ادعائه أنه أوحى إليه مثل القرآن، وأن الله ﷻ جعله نبياً مشاركاً لرسولنا الكريم ﷺ وأن الله أنزل عليه مثل ما أنزل على النبي ﷺ هذا القول الذي ورد في الكتب عنه كما قال الباقلاني أخس من أن نشغل به.

فمثلاً يقول: "والليل الدامس والذئب الهامس ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس، ألم تر كيف فعل ربك بالحلبى أخرج منها نسمة تسعى ما بين صفاء وحشا، ضفدع بنت ضفدعين نقي ما تنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش مثلها ولكن قریشاً قوم يعتدون، والمبديات ذرعاً والحاصدات حصداً والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً والخابزات خبزاً".

كلام هراء لا يستحق أن يوقف عنده، ولكنه ذكر في الكتب لبيان كيف أن هذا الكذاب الضال خدع بعض الناس، وتبعه بعض الناس على هذا الهراء الذي يقول؛ لتعلم كيف عصمك الله ﷻ وشرّفك بهذا الدين.

فمن ثم كان الاهتمام ببيان إعجاز القرآن في لغته، وكيف جاء بديع النظم عجيب التأليف متناهيًا في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه؛ لأن هذا هو أساس التحدي الذي أعلنه النبي ﷺ: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ

﴿ ٨٨ ﴾ **أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** [الإسراء: ٨٨] وهو تحدُّ باقٍ إلى قيام الساعة، هذا التحدي الذي مضى أكثر من أربعة عشر قرنًا على إعلانه، ولم يبطله جاحد به ولا مكذب له.

وقد تبارى الناس في بيان ذلك على مر العصور ابتداءً بالخطابي والرماني والباقلاني، ومرورًا بعبد القاهر الجرجاني، وختامًا بالرافعي ودراز والسامرائي وغيرهم كثير من المتخصصين المعاصرين كأبي موسى ويومي ولاشين وفضلًا عن المفسرين كالزمخشري والآلوسي وسيد قطب وابن عاشور، وما ذكرته من أسماء إنما هو على سبيل التمثيل لا الحصر، فكم من متعرض لهذا المجال وكم من أناس تحدثوا عن إعجاز القرآن الذي بهر العقول بما فيه من جمال؛ لأنه تنزيل رب العالمين ﷻ.

هذا الوجه من الإعجاز هو الذي جعل القرآن معجزًا من جميع الوجوه؛ نظمًا ومعنىً ولفظًا، لا يشبهه شيء من كلام المخلوقين أصلًا مميّزًا عن خطب الخطباء، وشعر الشعراء باثني عشر معنى لو لم يكن للقرآن غير معنى واحد من تلك المعاني لكان معجزًا، فكيف إذا اجتمعت جميعًا فيه.

هذا كلام الفيروزآبادي عندما عرض لأوجه الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، أوجزها بوجود اثني عشر معنى في القرآن الكريم، وبدأ في بيانها والتمثيل لها، فذكر:

أولها: إيجاز اللفظ مع تمام المعنى على سبيل الحذف، كقوله تعالى: ﴿ **وَسَّئِلَ الْقَرْيَةَ** ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: واسأل أهل القرية. وقوله تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ** ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: ولكن البربر من آمن. أو على سبيل الاختصار كقوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ثانيها: تشبيه الشيء بالشيء كقوله تعالى: ﴿ **أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ** ﴾ [النور: ٣٦] ﴿ **أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ** ﴾ [إبراهيم: ١٨] وكما قيل الأمثال سرج القرآن.

ثالثها: استعارة المعاني البديعة كالتعبير عن تكوير الليل والنهار بالسلخ: ﴿ **وَأَيَّةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ** ﴾ [يس: ٣٧]، والتعبير عن المضي والقيام بالصدع: ﴿ **فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ** ﴾ [الحجر: ٩٤] هذه الآية الكريمة عندما سمعها أعرابي سجد، فسألوه عن سبب سجوده قال: سجدت في هذا المقام؛ لفصاحة هذا الكلام.

رابعها: تلاؤم الكلمات والحروف بما فيه من جمال المقال وكمال الكلام: ﴿ **وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ** ﴾ [النمل: ٤٤] ﴿ **يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ** ﴾ [يوسف: ٨٤] ﴿ **فَأَدَّى دَوَاهُ** ﴾ [يوسف: ١١٩] تلاؤم الحروف - كل ذلك نذكر كلام الفيروزآبادي مع التمثيل؛ لأنه هو موضوع دراستنا.

خامسها: فواصل الآيات ومقاطعها، فسورة فواصلها على حرف كسورة "طه" ﴿ **طه ١** ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ **٢** ﴾ إِلَّا نَذْكُرَكَ لِمَنْ يَحْشَى ﴿ **٣** ﴾ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿ **٤** ﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿ **٥** ﴾ [طه: ١ - ٥] تجد أنها تنتهي بحرف الألف، كذلك سورة "القمر" تنتهي بحرف الراء: ﴿ **أَقْرَبَتْ السَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرَ ١** ﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿ **٢** ﴾ [القمر: ١، ٢] إلى آخر الآيات، وهناك سور تنتهي فواصلها على حرفين كسورة "الفاتحة" بين الميم والنون: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١** ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ **٢** ﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ **٣** ﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿ **٤** ﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴿سورة الفاتحة: ١ - ٧﴾، فبين الميم والنون سورة "الفاتحة" ، وكذلك سورة "ق" تجدها على حرفين أيضاً.

سادسها: تجانس الألفاظ: وتجانس الألفاظ يكون على سبيل المزاوجة: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ ﴿٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]، أو من قبيل المناسبة كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٧] ﴿نَنْقَلِبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ [النور: ٣٧] فهذا من التلاؤم والتناسب بين الكلمات.

سابعها: تصريف القصص والأحوال بألفاظ مختلفة وعبارات متنوعة، لو تأملها الغواص لعلم أن ما كرر فيها من ألفاظ إنما جاء للطائف وأسرار.

ثامنها: تضمين الحكم والأسرار، فعلى سبيل المثال سورة "الفاتحة" نصفها الأول يتضمن أحكام الربوبية ونصفها الثاني يقتضي أسباب العبودية، وذلك مثال، وكذلك كل ما في القرآن من كلمة؛ إنما هي عبارة عن كنز معان وبجر حقائق، وكما تضمنت آيات القرآن جوامع الأشياء فهناك آية تجمع مكارم الأخلاق كقوله ﷻ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وهناك آية تجمع حاجات الكائن الحي: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ﴿٣١﴾ [النازعات: ٣١] وهناك آية تبين كيف يُسَّاس الناس، وما هي مقاصد التشريع، وما الذي يريدُه الله ﷻ منهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] هذا جانب تعرّض له العلماء، ولنا معه وقفة إن شاء الله ﷻ في الآيات الجوامع.

تاسعها: المبالغة في الأمر والنهي باستخدام الأسماء تارة، وباستخدام الأفعال تارة أخرى؛ الأسماء كقوله ﷻ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [١٠٧] [هود: ١٠٧]، والأفعال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢] ﴿قَدْرُوهَا نَقْدِيرًا﴾ [١٦] [الإنسان: ١٦] ﴿وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَنْبِيرًا﴾ [٣٩] [الفرقان: ٣٩].

عاشرها: حسن البيان لجميع أحكام الشريعة؛ المقاصد والأغراض والمصالح والأسباب، كل ذلك مؤيد بالآيات القرآنية فإذا أردت دليلاً للوحدانية تجد قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وإذا أردت آية ترشد لمصالح الصيانة والعفة تجد قوله تعالى: ﴿وَأَنْكَحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢] ولرعاية مصالح النفوس: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] وليبيان أركان الإسلام: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وليبيان المعاملات: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وذلك كثير في كتاب الله ﷻ.

الحادي عشر: الإخبار عما كان، وضرب له الفيروزآبادي أمثلة من تخليق العرش والكرسي وحال الحملة والخزنة، وكيفية اللوح والقلم ووصف السدرة، وطوبى وسير الكواكب، ودور الأفلاك، ورفع السماء وتمهيد الأرض.

الثاني عشر: الإخبار عما يكون، كأخبار الموت والقبر والبعث والنشر والقيامة والحساب والعقاب والعرض والحوض والسؤال ووزن الأعمال والميزان والصراط... إلى غير ذلك مما جاء به القرآن الكريم وبينه رسولنا ﷺ.

هذا الذي ذكره صاحب (البصائر) أي الفيروزآبادي لا نستطيع الزعم بأنه كل معاني الإعجاز، بل لا نسلم بأنه جملها فكم من أشياء أخر ذكرها المهتمون بهذه القضية، بل لا نستطيع حصر الإعجاز والتحدي في الجانب اللغوي فقط؛ لأن اللغة إطار توضع فيه المعاني، وكم في المعاني من أسرار لا يعلمها إلا مكور الليل على النهار ومن جاد عليهم من عباده الأخيار؛ فذلك علم يمنحه الله ﷻ هبةً وفضلًا لمن يشاء.

ولك أن تتأمل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط؛ بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة؛ من جهة اللفظ ومن جهة النظم ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أمر بها، ومعانيه التي أخبر بها عن الله - تعالى - وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الميعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية، التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٢٧] قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه، ولا يناقض ذلك، بل كل قوم تنبهوا بما تنبهوا.

ما أجمل كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

لذلك قال شيخنا محمد أبو موسى: "إما أن وجه إعجازه هو الإخبار بالغيب، أم لأمر يرجع إلى، لفظه أم لأمر يرجع إلى معناه أو نظمه - فذلك مما وسَّع الله فيه على الأمة؛ ولهذا اختلفت فيه مقاتلهم واتسعت؛ الأمر فيه سعة كما يقال".

وما أجمل ما قاله الرافعي - رحمه الله - في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) يقول: "وما أشبه القرآن الكريم في تركيب إعجازه تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذي اكتنفه العلماء من كل جهة، وتعاوروه من كل ناحية، وأخلقوه جوانبه بحثًا وتفتيشًا، ثم هو لا يزال عندهم على ذلك خلقًا جديدًا، ومرامًا بعيدًا، وصعبًا شديدًا، وإنما بلغوا منه إذ بلغوا منه نزرًا تهيات لضعفه أسبابه، وقليلًا عُرِف لقتله حسابه وبقي ما وراء ذلك من الأمر المتعذر الذي وقفت عنده الأعذار، والابتغاء الذي انحط عنده قدر الإنسان؛ لأنه مما سمحت به الأقدار".

وكأنه - رحمه الله - يشير إلى حقائق التنزيل اليقينية: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فالبحث في هذا المجال واسع.

كيفية تحدي نبينا ﷺ للعرب

السؤال الرابع: وهو كيفية تحدي نبينا الكريم ﷺ للعرب يستلزم منا بيان شيئين:

الأول: هو ما أكده الله ﷻ في حق كتابه ورسوله.

الثاني: صور التحدي وتصعيد درجته.

أولاً: نقول: إن الله ﷻ أكد في كتابه أن كتابه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه تنزيل رب العالمين، وأنه أرسل إلى رسولنا ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأكد الله ﷻ أن رسوله ﷺ ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى، وأكد أن النبي ﷺ لم يكن يتلو قبل بعثته كتاباً ولا يعرف القراءة: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَزَّتْكَ الرِّبَاةُ السَّمْبُوتُ ﴾ [٤٨] والعنكبوت: ٤٨ وأن النبي ﷺ لم يقل مثلما قال قبل بعثته: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ﴾ [يونس: ١٦].

وأكد أن القرآن ليس بقول شاعر ولا بقول كاهن، وأن النبي ﷺ ليس مجنوناً ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير: ٢٢] هذا عن الافتراءات التي ذكرها أهل مكة في محاربة النبي ﷺ فزعموا أنه شاعر وزعموا أنه ساحر، وزعموا أنه كاهن، وزعموا أنه مجنون؛ كل ذلك أبطله القرآن.

ثانياً: صورة التحدي التي واجه بها النبي ﷺ هؤلاء المشركين: لماذا؟ لأنهم كما قال الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيَوْمِنَا ﴾ [الأنعام: ١١١]، ولأنهم بلغوا من الوقاحة والتبجح أن ادّعوا ما لا يستطيعون ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١] من هنا كان التحدي، فأعلنها رسول الله ﷺ صريحة: ﴿ قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ ليكون ذلك إعلاناً على عجزهم ونداءً على كذبهم فيما ادّعوا، فتمادوا في عنادهم، وادّعوا أن القرآن كذب وافتراء ﴿ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥] مع تيقنهم من كذب دعواهم؛ فأنى للآمي ﷺ أن

يكتب؟ وكيف تعلمها؟ ومن أين تعلمها؟ وهو لم يخرج من بين ظهرانيهم، وهم لا علم لهم بهذه الأخبار التي يخبرهم بها ﷺ.

فكان التحدي الثاني ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ** ﴾ [هود: ١١٣] فإن كانت المسألة كذباً وافتراءً وأساطير فما عليكم إلا أن تأتوا بمثلها، بل بمثل عشر سور فقط مفتراة كما تدعون، فإن كنتم نسبتم إليه ﷺ الكذب والافتراء، وأنتم الذين لقبتموه بالصادق الأمين فما الذي يحول بينكم وبين الافتراء وأنتم أرباب ذلك؟ فعليكم أن تفتروا مثلما افترى عشر سور مثله مفتريات، فلما عجزوا أيضاً بلغ التحدي ذروته فوصل للدرجة العليا ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (٢٣) **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ (٢٤) [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فلم يعد لهم حجة في الادعاء والإنكار والتكذيب، فليسوا مطالبين بأكثر من سورة ومع ذلك هم عاجزون بل "لم" و"لن"، انظر إلى التعبير بـ"لم" و"لن" ﴿ **لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا** ﴾، "لم" نفي الماضي، و"لن" نفي المستقبل، فهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله، فكانت الحجة القاطعة بعدم الاستطاعة إلى قيام الساعة، ف"لن" نفي المستقبل والخطاب لهم ولمن بعدهم، وكأن الله ﷻ يعلمنا هذه العبارة نقولها لكل من سؤلت له نفسه الطعن في القرآن أو تكذيب خير الأنام؛ أن نقول له: فأتوا بسورة من مثله.

تابع: مقدمة في وجوه الإعجاز
(الصرف، والإخبار بالغيبيات)

عناصر الدرس

- العنصر الأول : لماذا نهتم بالإعجاز اللغوي في القرآن؟ ٢٩
- العنصر الثاني : ثمرة دراسة إعجاز القرآن ٣١
- العنصر الثالث : مسألة الصرف ٣٢
- العنصر الرابع : الإخبار عن الغيبيات ٤٢

لماذا نهتم بالإعجاز اللغوي في القرآن؟

لا يشك عاقل أن لغة القرآن تختلف عن لغة البشر، وأن تراكيبها وأسلوبها ونظمها متناهٍ في البلاغة والفصاحة، إلى درجة لا يصل إليها أحدٌ من البشر، ولو كان سيدهم ﷺ ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّايَ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

فيكفيك دليلاً أن فصاحة سيد الفصحاء وإمام البلغاء لا ترقى لفصاحة القرآن، فما بالكم بمن دونه من البشر؛ وذلك سائر البشر! ولذلك كان الاهتمام بالجانب اللغوي في القرآن لإبراز الفروق بين كلام الرحمن وكلام الإنسان، وصنفت في ذلك التصانيف.

فالباقلائي في (إعجاز القرآن) أسهب في إثبات أن القرآن ليس شعراً ولا سجعاً، وعرض نماذج لما يفتخر به العرب من شعرهم ونثرهم، ووازن بينه وبين القرآن لبيان الفرق الشاسع بينهما، والجرجاني صنف كتابه (دلائل الإعجاز) للاستدلال بنظرية النظم على تفرد القرآن في ذلك، وابن أبي الإصبع المصري صنف كتاباً سماه (تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن) فيتضح لك من العنوان مراد الرجل أن من تأمل الشعر والنثر بان له إعجاز القرآن في الجانب اللغوي؛ ولذلك أذكر لكم موازنة ذكرها الباقلائي في كتابه (إعجاز القرآن)؛ ليستدل بها على الفروق بين كلام الله وبين كلام العرب، فجعل الفروق في نقاط:

النقطة الأولى: هي أن النظم القرآني خارج عن المعهود من نظم كلامهم ، فليس من الشعر ولا من النثر المرسل ولا المسجوع.

النقطة الثانية: هي أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة على هذا القدر من الطول ، وما نُسب من الفصيح لحكيمهم فكلمات معدودة ، ولشاعرهم فقصائد محصورة.

النقطة الثالثة: أن نظم القرآن لا يتفاوت على ما يتصرف فيه ، والوجوه من قصص ووعظ واحتجاج وحكم وأحكام ووعد ووعد ووصف وتعليم وأخلاق كريمة وغير ذلك مما حواه القرآن ، بينما كلام بلغائهم يختلف بحسب الأغراض ؛ فمنهم من يجيد الوصف دون الغزل ، ومن يحسن إذا رغب ، والآخر إذا طرب وغيرهما إذا ركب ، فهم ليسوا على درجة سواء من الفصاحة في شتى الأغراض ؛ أي : يقصد ببساطة أن القرآن كله فصيح ، وكله على أعلى درجات الفصاحة في شتى أغراضه ؛ سواء كانت حكماً أو مواظاً أو تشريعاً أو قصصاً أو غير ذلك ، فكلها على درجة من الفصاحة ، وكلها على أعلى درجات الفصاحة ، بينما الشعراء والخطباء يجيدون تارة ويخفقون أخرى ؛ فلذلك نقول ذلك يحسن إذا طرب ؛ يعني إذا تحدث في الشعر الذي يتعلق بالوصف وغير ذلك ، والآخر إذا رغب ؛ يعني : إذا تحدث في المدح والآخر إذا ركب يعني : إذا فاخر أو تحدث في وصف خيله وكذا ، فكانوا يحسنون في مجالات دون الأخرى.

النقطة الرابعة: أن المعاني التي جاء بها القرآن اتسقت في أسلوب بديع يتعذر على البشر ، وهي معاني مبتكرة غير متداولة ؛ كالاحتجاج بالدين وبيان الشريعة والرد على الملحددين ، فهذه المعاني الجديدة الأصل أن يكون فيها من الصعوبة ما ليس في غيرها من المعاني المتداولة ، ومع ذلك كان القرآن يعرض هذه المعاني بنسق بديع لا يستطيع البشر أن ينسقوا على منواله مع المعاني المتداولة وليست المبتكرة التي جاء بها القرآن الكريم.

النقطة الخامسة: أنه عليك أن تتأمل موقع الآية القرآنية وسط الكلام، حين يُتمثل بها في تضاعيف الكلام؛ ليظهر لك فضل القرآن على سائر الكلام، فالآية المستشهد بها وسط خطبة مثلًا تجدها هي غرة الخطبة، وهي واسطة عقدها، وتنادي على نفسها بالتميز والاختصاص بالرونق والجمال، ومن ثمّ نقول: إن وجه الإعجاز الحق هو ما اتسم به القرآن من بلاغة، تحير فيها أهل الفصاحة من العرب وأعيان البلاغة، من بينهم فسلموا ولم يشغلوا أنفسهم بمعارضته لعلمهم بالعجز عن بلوغ مداه، وقوله تعالى حكاية عنهم ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١] يحمل دليل عجزهم، فلو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم من القدرة على المجيء بمثل القرآن لتجاوزوا الوعد إلى الوفاء بما ادعوا، فلما لم ينجزوا ما وعدوا علم عجزهم وقصور باعهم.

ثمرة دراسة إعجاز القرآن

هذا السؤال طرحه الدكتور العواجي وأجاب عنه في كتابه، فذكر بعض النقاط قال:

أولاً: تقرير الكشف عن إعجاز القرآن وأنه قد تحقق، ولا زال يتحقق عبر العصور والأزمان.

ثانياً: إقامة الصلة بين قلب المسلم وكتاب الله ﷻ، فيزداد الإيمان بإدراك القدرة والأسرار.

ثالثاً: تجدد حياة المسلم بتدبر معاني القرآن، وإدراك أسرار الإعجاز بشتى أنواعه.

رابعاً: إدراك أن المعجزة القرآنية قائمة ما دامت الحياة وما عاشت الأجيال.

خامساً: إدراك صدق النبي ﷺ وإلزام المعاند بذلك، وهذا صنف فيه شيخ الإسلام - رحمه الله - كتاباً كاملاً (الجواب الصحيح).

سادساً: بيان صحة هذا الدين وثبوت كونه من عند الله ﷻ.

سابعاً: حصول هداية الخلق وقيام الحججة على الجميع والمعدرة إلى الله ﷻ.

ونستطيع أن نضيف إلى ما ذكره شيخنا من هذه النقاط السبعة، نقطة في غاية الأهمية، قد تكون مستنبطة من كلامه وإن لم يصرح بها؛ وهي الوقوف في وجه تيار الإلحاد المنتشر كالمهشيم عبر الفضائيات وشبكة المعلومات؛ من الطعن في القرآن وادعاء أن فيه تناقضاً وإشكاليات لغوية؛ فالذي يدرس إعجاز القرآن يستطيع إقامة الحججة بالبرهان على كذب هؤلاء الهالكين؛ إذ لو كان لما قالوا أدنى احتمال ما سكت عنه من تُحدوا به، فإن النبي ﷺ تحدى العرب وهم أهل الفصاحة والبيان، بل وصلوا إلى قمته عند بعثته ﷺ ولم يجدوا مطعناً في القرآن وأسلوبه وفصاحته، فكيف يأتي هؤلاء الصبيان الذين لا يفرقون بين أنواع الكلام وهم عن الفصاحة بمعزل وكلامهم غث وغيثان - فيذكرون الآن أن في القرآن طعناً، وأن في القرآن تناقضاً وأن في القرآن غير ذلك!! تعالى الله ﷻ وكلامه عما يقولون علواً عظيماً.

مسألة الصرفة

وبعد هذه المقدمة ننتقل إلى أولى جزئيات المنهج المطروحة للنقاش وهي "مسألة الصرفة" وهل هي سر إعجاز القرآن؟

الصرفة مسألة من المسائل التي شغلت أهل هذا الفن؛ يعني الذين اهتموا بمسألة إعجاز القرآن، فالصرفة تعد عند المعتزلة هي سر الإعجاز، هذه المسألة مسألة فيها تفاصيل، حتى إن الدكتور محمد أبو موسى سماها قصة الصرفة، في كتابه (الإعجاز البلاغي) أفرد فصلاً للصرف وسماه قصة الصرفة، قصة الصرفة بمعنى

أن هذه المسألة تحتاج إلى وقفة وإلى بيان، وهو جزاءه الله خيراً أفرد لها ما يزيد عن خمس وأربعين صفحة، وبين ما يتعلق بهذه المسألة، وإن كان لنا يعني وقفة مع بعض ما قاله الشيخ حفظه الله، فمسألة الصرف من المسائل التي اختلفت فيها أقوال أهل العلم، وكان منشأ اختلافهم هو اختلافهم في المقصود بالصرف، وهل هي من الصرف أم من الانصراف؟ وبعد ذلك اختلفوا هل انصرفوا عن الإتيان بمثله لفظاً ومعنى أم بمثله معنى فحسب؟ أو الإتيان بمثل نظمه الذي جاء على خلاف لغة العرب وكلامهم؟

والذي نراه أن منشأ هذا الخلاف هو أن أول من قال بالصرف هو أبو إسحاق النظام رأس المعتزلة في عصره، والرجل تراثه بين طلابه؛ أي: ليس له مصنف نستطيع من خلاله الوقوف على قوله صراحةً، فالمسألة أثارها تلميذه الجاحظ ونسبها إليه، ودحضها في كتابه (البيان والتبيين) ولعل هذا ما دفع الأكابر كابن تيمية - رحمه الله - إلى الاهتمام ببيان فساد القول دون الاهتمام بقائله، ولكن كون قائله النظام وهو رأس في البلاغة والفصاحة دفع آخرين لرفض صدور هذا الكلام بهذا الفهم من مثله وهو من هو، وخاصة أن من النصوص المذكورة ما يبرئ ساحة الرجل من الوقوع في مثل هذا القول الضعيف المردود المتهافت، الذي لا يصدر عن من هو دونه لغةً وفصاحة.

وبعد هذه التساؤلات والافتراضات لعلك قد شحذت همتك وعلت رغبتك في معرفة تفاصيل هذه القصة، ومن ثم فهناك مصادر نخيلك عليها إذا أردت الاستزادة أو الوقوف على هذه المسألة تفصيلاً؛ فعندك كتاب العلامة أبي موسى (الإعجاز البلاغي) الفصل الثامن، وكتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني، والجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه

(الجواب الصحيح)، والدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم)، والدكتور محمد رجب البيومي في (الموسوعة القرآنية المتخصصة) تناول هذه المسألة، والدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه (من بلاغة القرآن) كل هؤلاء تعرضوا لهذه المسألة، إن أردت المزيد من التفاصيل.

خلاصة القول لهذه النقاط التي تحوي الإجابة الشافية إن شاء الله ﷻ:

أولاً: الصرفة لغةً واصطلاحاً:

الصرفة في اللغة: هو الرد والمنع كما ذكر الجرجاني في (التعريفات) ويقال: صرف الله عنك السوء، ومن المجاز صرف عن عمله أي: عزل، وهو لفظ قرآني: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] ﴿ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ آيَاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٥٢]

ومن هذا المعنى اللغوي انطلقت تفاسير العلماء للصرفة؛ فهي تعني أن العرب لم يكونوا عاجزين عن معارضة القرآن ولا الإتيان بمثله طبعاً، إلا أن الله صرف همتهم وحبس لسانهم وسلبهم قدرتهم لطفاً بنبيه ﷺ وفضلاً منه عليه؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] هذا ما ذكره الفيروزآبادي في (بصائر ذوي التمييز) وعلق على هذا الكلام بأنه قول مردود غير مرضي.

والصرفة: هي أن العربي كان على مثل نظم القرآن قادراً، وإنما صرفه الله عن ذلك ضرباً من الصرف أو منعه من الإتيان بمثله ضرباً من المنع، أو قصرت دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه؛ ليتكامل ما أراه الله من الدلالة ويحصل ما قصده من إيجاد الحجة، أو هو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام

المقتضى التام، أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً مثل قوله تعالى
 لذكرها # : ﴿ءَايَاتُكَ إِلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]،
 فإن ذكرها # لم يكن مريضاً ولا به علة تمنعه من الكلام، إلا أن الله ﷻ جعل
 عدم كلامه آية وعلامة على البشارة التي بُشر بها # وهذا الذي ذكره في معنى
 الصرفة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله.

بالتأكيد هذا القول الذي قيل من أن الله ﷻ صرفهم عن أن يقولوا مثل القرآن مع
 إمكانيتهم أن يقولوا مثله - هذا القول باطل فاسد مردود من وجوه عدة:
 اتفق أهل العلم على رفض هذا القول، وأسهبوا في بيان بطلانه، واحتجوا لذلك
 بأدلة منها:

أولاً: لو كانت المسألة بالصرف والمنع لم يكن هناك داعٍ لأن يكون القرآن على
 هذا النظام العجيب، وأن يظهر فيه من الفصاحة هذا النصيب العالي، بل يظفر
 من الفصاحة بأوفى نصيب.

ثانياً: أنهم لو كانوا مصروفين لم يكن من قبلهم من العرب مصروفين؛ لأنهم لم
 يُتحدوا به، ولم نعثر في تراث العرب على ما يُشابه القرآن.

ثالثاً: أنه لو كانت المعارضة ممكنة لولا الصرف لما كان القرآن معجزاً؛ لكون
 الإعجاز في المنع، وليس في القرآن؛ فإذا لا يتضمن القرآن في نفسه فضيلة على
 غيره، ولا أمكن من جاء بعد زمن التحدي معارضته.

رابعاً: لو كان الإعجاز بالصرفة لما استعظم العرب بلاغة القرآن، وتعجبوا من
 حسن فصاحته، كما أثار عن الوليد بن المغيرة وقصته المشهورة عند سماعه

القرآن، وعندما سئل عن رأيه فيه، فقال: "إن أعلاه لمورق وإن أسفله لمغدق، وإنما له لطلاوة وإن عليه لحلاوة"، والقصة المشهورة من غيرهم عندما كانوا يتسللون لسماع القرآن انبهاراً ببلاغته وبجمال قوله ﷺ عندما كان يتلو آيات ربه، فلو كانت المسألة بالصرفة لما استعظم العرب بلاغة القرآن، وتعجبوا من حسنها وفصاحتها.

خامساً: أن العجز يشمل الإنس والجن، والقول بالصرفة يُدخل رسولنا الكريم ﷺ فيه، وهذا يعني أن النبوة أوجبت أن يُمنع النبي ﷺ شطراً من بيانه وفصاحته، وهو أفصح العرب؛ هو بذلك لا يستطيع أن يقول مثل القرآن، وأنه ﷺ عندما تلا عليهم قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٨] تلا عليهم هذه الآية وتحداهم مع استطاعته أن يأتي بمثل القرآن، لولا أن الله صرفه عن ذلك، إلا أن يقولوا تبجحاً وجهالة: إنه ﷺ كان دونهم في الفصاحة.

ويرد هذا القول إن قيل - عياذا بالله: أنه ﷺ أفصح العرب، ولا يشك في ذلك عربيٌّ سمع كلامه ﷺ بمعنى أن النبي ﷺ أفصح العرب، لغته وفصاحته أقل من فصاحة القرآن الكريم، لو كانوا يستطيعون ذلك - العرب لو كانوا يستطيعون أن يعارضوا القرآن - وصرفت عنه قرائحهم، لقالوا للرسول ﷺ: ما لنا قد نقصنا في قرائحنا وقد حدث كلول في أذهاننا، بسبب سحرك الذي سحرته لنا؛ إن آية التحدي تدل على فساد هذا القول؛ فهي نص في عدم استطاعتهم، لا في الحول بينهم وبين فعل ذلك: ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ فالله ﷻ نص على أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، وليست الآية في أنهم حيل بينهم وبين أن يأتوا بمثل القرآن.

وأخيراً إن لجوءهم إلى السيف في محاربة النبي ﷺ وإلى سيادة منطق القوة واضطهاد النبي ﷺ وأتباعه؛ دليل قاطع على عجزهم عن القول، وإلا فالتحدي واضح، فالنبي ﷺ أثار قرائحهم، والنبي ﷺ سقاه آلهتهم، وعاب أحلامهم، وبيّن سفههم، وواجههم بما لو كانوا يستطيعون أن يردوه لردوا، ولو كانوا يستطيعون أن يقولوا مثل القرآن لقالوا، أما قولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿﴾ فذلك يدل على رغبتهم في الرد، فلما عجزوا لفصاحة القرآن ونظمه على غير مثال كلامهم اكتفوا بالادعاء، وهذه عادة من لا يستطيع أن يفعل شيئاً، فيقول: أستطيع أن أفعل، فيدعي، عندما يعلم عجزه يكتفي بأن يتكلم، فالقول بالصرففة بمعنى أن الله ﷻ صرفهم عن ذلك هذا قول فاسد، واهتم الباقلائي ببيان فساداه واهتم كذلك عبد القاهر الجرجاني ببيان فساداه، وما ذكرناه هو ملخص ما ذكره الإمامان في هذه المسألة.

النقطة التالية في الصرففة:

وهي فهم آخر للصرففة، ليس بالمعنى الذي ذكرناه، معنى آخر للصرففة، هذا المعنى قبله أهل العلم الثقات ورضوا به، هذا المعنى يتركز في الآتي:

بمنتهى البساطة كما يقال أن معنى الصرففة الذي ذكر لا يليق بشخص مثل النظام، هذا النظام يروى أنه بدأ شاعراً وانتهى متكلماً، وأنه كان على درجة عالية من الفصاحة والبيان، وأنه في مواقف كثيرة له يذب ويدافع عن فصاحة القرآن وعن بلاغة القرآن، فكيف يخرج من النظام فهم مثل هذا الفهم الذي قيل من أن الله صرفهم عن القرآن قهراً، وأن الله ﷻ جعلهم لا يقولون مثل القرآن؛ فلذلك رفض أهل التحقيق مثل الدكتور محمد أبو موسى والدكتور محمد

رجب البيومي رفضاً أن يكونَ هذا الفهم هو فهم النظام أو هذا القول هو كلام النظام لأسباب ؛ منها:

أولاً: فصاحة هذا الرجل وأنه على درجة عالية من الفصاحة ، فلا يليق منه أن يخرج هذا الكلام.

ثانياً: أنه قال هذا الكلام - إن قيل - على معنى آخر ليس بمعنى أن الله صرفهم قهراً.

كيف فسر هذان العالمان الجليلان القول بالصرفة؟

قال الدكتور محمد رجب البيومي: "الصرفة عن المعارضة بمعنى أن العرب حين دُهِشوا من روعة القرآن وبهرهم تأثيره بما فوق القدرة ؛ انصرفوا تلقائياً عن معارضته ؛ لأنهم علموا أنهم مهما حاولوا هذه المعارضة وجمعوا لها أساطين القول من بلغاتهم المعدودين فلن يأتوا بسورة من مثله ، فكانت الصرفة عن المعارضة التي توقعوا استحالتها - هي وجه الإعجاز الذي عناه النظام.

وشبها المسألة بالمهندس الذي يشيد بناءً رائعاً ، وهذا المهندس هو عبقرى في عمله فيأتي بزملاته ويقول لهم: اصنعوا بناءً مثل الذي صنعته ، فيعترفون بعجزهم عن صناعة مثل هذا اعترافاً منهم بأن هذا البناء لا يستطيعون أن يفعلوا مثله ، فهذا معنى الصرفة الذي فهمه والذي ذكره الدكتور محمد رجب البيومي واستحسنه ، ويقول: إن هذا المعنى هو الذي يليق بالنظام.

أيضاً الدكتور أبو موسى ، رأى هذا المعنى واستدل عليه بأشياء منها فصاحة وبلاغة النظام تُنافيان عدم إدراكه الفرق الفاتت بين القرآن وكلام الناس ، ومنها

أن النظام ذكر مع الصرفة الإخبار بالغيب، فبذلك يكون القرآن معجزاً بأمرين - لا بالصرفة فحسب - وهذا يؤكد أن النظام يدرك أن نظم القرآن متفرد في معانيه، وأن الصرفة وحدها ليست هي سر الإعجاز، ومنها أنه أراد أن يسد باب الشبهة، وأن يحسم الأمر مرة واحدة في وجه أهل الزيغ الذين يثيرون ما ينقد حجة النبوة، ولم يشأ أن يجادلهم في أمر النظم؛ لأنهم لا ذوق لهم وهم أهل عناد، كما قال الله ﷻ في أسلافهم: ﴿وَأِنْ يَرَوْا كَلَاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

واستأنس شيخنا بقول ابن كثير - رحمه الله - عن الصرفة بأنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق، مع أنها غير مرضية، ونص على أن القول بالصرفة بالفهم المذكور ليس قادحاً في الدين بل هو آية صدق النبي ﷺ. شيخنا أبو موسى استدلل بأن الفهم الحسن للصرفة هو فهم الخطابي، وذكر أنه فهم جيد وأنه عرض جيد للصرفة.

قال الخطابي: "ولو كان الله ﷻ بعث نبياً في زمن النبوات، وجعل معجزته في تحريك يده أو مدّ رجله في وقت قعوده بين ظهرايني قومه ثم قيل له: ما آيتك؟ فقال: آيتي أن أحرك يدي أو أمدّ رجلي، ولا يمكن أحد أن يفعل مثل فعلي، والقوم أصحاب الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم، فحرك يده أو مدّ رجله، فراموا أن يفعلوا مثل فعله، فلم يقدرُوا عليه - كان ذلك آية دالة على صدقه، وليس يُنظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ولا إلى فخامة منظره، وإنما تُعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارقاً عن مجال العادات ناقضاً لها.

طبعاً نعلق على كلام الشيخين تعليقا بسيطاً:

أولاً: قضية الصرفة عموماً ييظنها أن العرب حاولوا الإتيان بمثل القرآن ؛ يعني القائل بالصرفة هذا يلزمه أن يُثبت تاريخياً أنه لم يحاول أحد أن يعارض القرآن أو أن يقول مثل القرآن ؛ لأن الله صرفهم ، فلو كان الله ﷻ صرفهم عن قول القرآن أو عن محاكاة القرآن لما رأينا في الكتب المحاولات التي كانت من مسيلمة في ادعائه قرآناً وغير ذلك من المحاولات التي وردت عن بعض الملاحدة والزنادقة ، وقد أسهب وذكر ذلك شيخنا مصطفى صادق الرفاعي في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) ذكر القصص والمحاولات التي وردت في معارضة القرآن.

فإذا القول بالصرفة ييطل بشهادة التاريخ ، كما يقال : إن الناس حاولوا أن يُعارضوا القرآن ولكنهم لم يصلوا إلى ذلك ، فلو كانت المسألة صرفة ابتداءً لما سمعنا أن أحداً حاول أن يعارض القرآن ، فهم حاولوا ولكنهم عجزوا وفشلوا ، حتى المحاولات قائمة إلى عصرنا هذا ، وما نبأ ما ذكر عبر الإنترنت وغير ذلك ممن حاولوا أن يبدّلوا ويغيروا في القرآن ، وأن يأتوا بأشياء يلبسون بها على من لا صلة لهم بالقرآن ، ممن ينتسبون إلى دين الإسلام ، ويلبسون الحق بالباطل ، وهذه المحاولات مستمرة حتى يومنا هذا.

ثانياً: ذكر الدكتور أحمد بدوي في كتابه (من بلاغة القرآن) عبارة صريحة ، قال : قال النظام : "إن الله - تعالى - ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام ، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله - تعالى - صرفهم عن ذلك".

هذه العبارة واضحة في أن النظام ذكر الصرف بالمعنى المذموم صراحةً ، ولكن هذه العبارة لا نستطيع أن نجزم بنسبتها إلى النظام ، حتى إن أستاذنا أستاذ أحمد

بدوي - رحمه الله - لم يذكر مرجعاً لهذه العبارة، وعبارات النظام - كما قلت - ليس هناك كتاب نستطيع أن نأخذ منه عبارة النظام بنصها، فواضح أن هذا هو ما اشتهر عن النظام، صاغه أستاذنا بهذه العبارة.

إن تركيب الكلام في حد ذاته ليس على مقدار فصاحة النظام التي تحدثوا عنها وذكروها، من هنا

ثالثاً: ليست قضيتنا الدفاع عن المعتزلة، وبيان ما يليق بمكانتهم، وأنهم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان، وأن هذه المسألة قال بها كثير من المعتزلة ممن يُعرفون بإدراكهم لبلاغة القرآن وفصاحته، هذا الكلام ليس قضيتنا، وليس هو مناط حديثنا؛ لأن المعتزلة كم لهم من سقطات في الاعتقادات، بلغت درجة الضلالات، ونسأل الله السلامة والعافية من أهل البدع والأهواء عموماً.

فالقضية ليست دفاعاً عن المعتزلة، وإن هؤلاء مع فصاحتهم ومع بلاغتهم وقعوا في أخطر من القول بالصرفة؛ أي: وقعوا في أشياء أخطر من الصرفة.

رابعاً: خلاصة الصرفة: أن القول بالصرفة بمعنى صرفهم قهراً عن الإتيان بمثل القرآن - مردود، ولا يُقبل من صاحبه النظام أو غيره.

أما القول بها بمعنى أنهم انصرفوا عن معارضته اعترافاً بالعجز عن مضاهاته إدراكاً لتفرده وعلو شأنه وتفرده نظمه - فهذا يُقبل ولا شيء فيه؛ لأنه يندرج تحت الجهود الأخرى التي تعرضت لإعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه وتراكيبه.

فشتان ما بين الصرف والانصراف؛ الصرف: يكون بفعل خارج عنهم، أما الانصراف فيكون بفعل منهم؛ ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٧].

الإخبار عن الغيبات

الخلاصة: أن الفرق الكلامية التي تحدثت عن هذه المسألة فرقة المعتزلة وهذه قالت بالصرفة، وناقشنا كلامهم، والفرقة الأخرى هم الأشاعرة؛ الأشاعرة ينسبون الإعجاز في القرآن الكريم على الإخبار عن الغيبات، أن القرآن اشتمل عن أخبار لا يكون للنبي ﷺ معرفة بها؛ هذه الأخبار التي أخبر بها النبي ﷺ من أنباء الغيب، سواء أكان شيئاً حدث أو شيئاً سيحدث، فإن النبي ﷺ أخبر عن هذه الأشياء، وهي آية صدقه، وهذا هو الموضوع الذي نقف معه.

اهتم علماءنا ببيان هذه الخاصية، وهي أن القرآن يشتمل على الغيبات.

الإخبار عن الغيبات قسمها العلماء إلى قسمين:

القسم الأول: إخبار القرآن عن غيبات ماضية.

القسم الثاني: وإخبار القرآن عن غيبات مستقبلية.

أولاً: لا بد أن نفرق بين إخبار القرآن عن غيب لا يعرفه العرب ولم يشاهدوه أو لم يتطرقوا إليه؛ أذكر هذا الكلام ابتداءً؛ لأن الفيروزآبادي في (بصائر ذوي التمييز) جعل إخبار القرآن عما كان وعما يكون متعلقاً بالأمور الغيبية؛ يعني الأمور الغيبية التي يطالب بها أهل الإيمان، من الإيمان بالبعث والحساب والصراط ومن الإيمان بما كان قبل الخلق، وكيف نشأ الخلق، وكيف خلق الله ﷻ السماوات والأرض، فهذه الأشياء تبصرة لأهل الإيمان، أما أهل الجحود أو الذين لا يؤمنون بالقرآن فكان مدار الحديث معهم على الأشياء التي أخبر بها

النبي ﷺ وهم لهم إدراك بها ويستطيعون أن يجادلوه فيها، وأن يحدثوه في أمرها؛ لذلك كلامنا عن الغيبات الماضية من أحداث وقعت، والغيبات المستقبلية من أحداث ستقع.

هذا معنى الكلام عن الغيبات:

أولاً: إخبار القرآن عن الغيبات الماضية: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: "من دلالات القرآن على أخبار الأمم السالفة وأحوالهم مع أنبيائهم وصالحهم قصة أهل الكهف". يقول: "والأمر على ما ذكر السلف، فإن قصة أصحاب الكهف هي من آيات الله، فإن مكثهم نياماً لا يموتون ثلاثمائة سنة آية دالة على قدرة الله ومشيتته؛ أنه يخلق ما يشاء، فليس كما يقوله أهل الإلحاد، وهي آية على معاد الأبدان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَأَرِيبٌ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١]. وكان الناس قد يتنازعون في زمانهم: هل تعاد الأرواح دون الأبدان أم الأرواح والأبدان؟ فجعل الله أمرهم آية لمعاد الأبدان".

هذا مثال ذكره شيخ الإسلام لما أخبر النبي ﷺ عنه من الغيبات الماضية، وتساعد أيضاً قضية الإيمان، ذكر أيضاً إخبار النبي ﷺ بقصتهم من غير أن يعلمه بشر، فذلك دليل على نبوته، فكانت قصتهم آية على أصول الإيمان الثلاثة؛ الإيمان بالله واليوم الآخر والإيمان برسوله ﷺ.

ومن هذا المبدأ آيات الله ﷻ في هذه السورة، سورة "الكهف" قصص آخر ذكره النبي ﷺ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ فأخبر النبي ﷺ عن قصة ذي القرنين، وكذلك في سورة "يوسف" كلها أشياء

تعرض لها النبي ﷺ وأسئلة سألوا عنها النبي ﷺ وأجاب عنها ﷺ من الأخبار الماضية ومن الغيبات الماضية، التي يعلمون يقيناً أن النبي ﷺ لم يكن يعلمها ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٢] وقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [١٠٩] حتى إذا استيسس الرُّسُلَ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِيَ مِنْ نَشَأٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَانٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [١١٠] لقد كانت في قصصهم عبرةٌ لأولي الألبابِ ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيءٍ وهدى ورحمةً لقومٍ يؤمنون ﴾ [١١١] [يوسف: ١٠٩ - ١١١].

هذه القصة التي حكيت من أولها إلى آخرها على رسولنا ﷺ قصة يوسف # كما ذكرها المولى ﷺ أحسن القصص ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٢٣] وكثير في القرآن "يسألونك" و"يسألونك"، والقرآن مملوء بالأخبار عن الغيب الماضي الذي لا يعلمه أحد من البشر إلا من جهة الأنبياء، الذين أخبرهم الله بذلك، ليس هو الشيء الذي تزعمه الملاحدة والمتفلسفة؛ فإن هذه الأمور الغيبية المعينة المفصلة، لا يؤخذ خبرها قط إلا عن نبي كموسى # ومحمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - وليس لأحد ممن يدعي المكاشفات لا من الأولياء، ولا من غير الأولياء، أن يخبر بشيء من ذلك، فكان الإخبار الذي يخبر به النبي ﷺ آيةً على صدقه وآية على أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، وأنه يخبرهم بما أخبره به الله ﷻ قصص كثيرة جداً في الإخبار، والله ﷻ وضَّحها في القرآن في أكثر من موضع: ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٢] ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٤] كثير جداً في القرآن الكريم:

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ ﴾ [القصص: ٤٤] وغير ذلك من الآيات كثيرة توضح هذه المسألة، فجعل الإخبار عن الغيب الماضي علامة على إعجاز القرآن.

ثانياً: الإخبار عن الغيبات المستقبلية:

الإخبار عن المستقبل هذا كثير في القرآن الكريم، نبدأ بوقعة كان أهل الشرك وأهل العناد والمعاندة لرسولنا ﷺ كانوا يستطيعون من خلال هذه الواقعة ومن خلال هذه الآية أن ينقدوا الإسلام نقداً، وأن يكذبوا النبي ﷺ كذباً، ولكنهم لم يفعلوا ذلك؛ لأن ذلك نبأ مستقبل أخبر به النبي ﷺ.

ولعلك تتساءل ما هذه الآية أو ما هذا الأمر؟ هو أمر أبي لهب؛ عم النبي ﷺ فأبو لهب هذا كان حياً يعيش في مكة، ويسمع أنه من الهالكين، ويسمع أن امرأته هالكة معه، ومع ذلك لم يفكر أبو لهب ولا زوجه أن يكذبوا النبي ﷺ بمعنى: أنهم لو لم يكن ذلك إعجازاً ووحياً من الله ﷻ وأن ذلك أمر الله ﷻ كان يمكن هذا الكافر اللعين أن يقول: آمنت بمحمد، فيكذب خبر النبي ﷺ في قوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ [المسد: ١ - ٣] فكيف يكون آمن وهو سيصلى ناراً ذات لهب؟! ولكن هذا اللعين لم يفعل ذلك، ودل ذلك على أن النبي ﷺ أخبر عن شيء مستقبل وغيب لم يحدث بعد، وهو أنه سيصلى ناراً ذات لهب وأن امرأته كذلك هالكة خاسرة، ومع ذلك لم يكذبوا ولم يفعلوا ما يناقض كلام النبي ﷺ فكان ذلك إعجازاً.

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أشياء كثيرة عن الغيبات المستقبلية، يقول: "وفي القرآن من الأخبار المستقبلات شيء كثير، كقوله تعالى: ﴿الْمَ ۙ ١ ۙ غَلَبَتِ الرُّومُ ۙ ٢ ۙ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۙ ٣ ۙ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۙ ٤ ۙ بِنَصْرِ اللَّهِ ۙ﴾ [الروم: ١ - ٤]. هذه القصة العجيبة قصة فارس والروم ذكرها النبي ﷺ متى؟ ذكرها وقت انتصار الفرس، هل كان النبي ﷺ يستطيع أن يخبر بأن الروم ستنتصر وأن دولة الفرس ستتهزم على يد الروم، وأن ذلك سيحدث في بضع سنين، في الأمر الذي كان يعرض فيه للتكذيب، ولأنه ﷺ يُحارب بشتى صور المحاربة، يخبر النبي ﷺ بهذا الخبر وهو ليس وحياً يوحى به إليه من الله ﷻ لم يكن من العقل أن يحدث ذلك من رجل يدعو الناس لنبد معتقداتهم ولترك ما هم عليه من الباطل، فكان خبره ﷺ بهذا النصر وبهذا الفرح الذي جمع فرح إعجاز في هذه الآية ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۙ ٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۙ وافق انتصار الروم على الفرس انتصار المسلمين في غزوة بدر على المشركين، فجمع الفرح ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۙ ٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۙ وكذلك خبره ﷺ: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۙ﴾ [النور: ٥٥].

هذا الوعد في وقت كانوا تحت طحن المشركين كما يقال وتحت المحاربة الشديدة، وكان وعد الله ﷻ بالاستخلاف في الأرض، وحدث ذلك في زمن النبي ﷺ فما قبض رسول الله ﷺ إلا وكان العرب جميعاً تحت لوائه ﷺ كذلك المسألة المشهورة في قصة الحديبية والفتح في سورة "الفتح": ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۙ﴾ [الفتح: ٢٨].

نختم الكلام عن الغيبات المستقبلية بما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من بعض الدلائل في القرآن، آيات قرآنية كلها أخبر بها النبي ﷺ وحدثت في زمنه، وكما أخبر ﷺ ولم تكن قد حدثت بعد:

من ذلك: قول الله ﷻ خبراً عن المسيح: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٢٥٥]. وكان كما أخبر.

قوله ﷺ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] فكان كما أخبر، فهم لن يستطيعوا أن يجاروا القرآن أو يعارضوه.

وأنزل الله ﷻ في مكة قوله: ﴿أَمْرٌ يُقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْصَرُونَ﴾ [سيزم الجمع ويولون الأدبر ٤٥] [القمر: ٤٤، ٤٥] فكان كما أخبر وهزم الجمع وولوا الدبر.

وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبُرَ لَمَّا لَاجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢] وكان كما أخبر.

وأنزل الله ﷻ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤] وكان كما أخبر رسول الله ﷺ.

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِعُنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلْيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤] إلى أن قال ﷻ: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] وكان كما أخبر ﷻ.

وقال: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىٌ وَإِنْ يُقْتَلُوا كُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ﴾ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيْنَ مَا نُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبِأَمْرِ بَعْضِ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١١٢) آل عمران: ١١١، ١١٢.

كل هذه الآيات الكريمة، والخطاب الذي أخبر به رسولنا ﷺ كان كما أخبر ﷺ في شأن اليهود وفي شأن ما كادوه وما فعلوه معه ﷺ فكل ذلك دليل على أن النبي ﷺ أخبر عن غيبات مستقبلية، كانت لم تقع بعد ووقعت في عهده ﷺ كما أخبر.

ونختم بقصة جميلة كانت لأصحاب الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب: عندما تكالب أساطين الكفر في الجزيرة على رسول الله ﷺ وتجمعوا من كل فوج، وأتوا ليقضوا على الإسلام وعلى دعوة خير الأنام، وأحاطوا بالمدينة - كانت بشارة النبي ﷺ بأن فتحت له أو ظهرت له كنوز كسرى وقيصر، وكان الصحابة كما يصفون أحوالهم في هذا الحال لا يأمنون أن يخرجوا إلى الخلاء!! وكان ما أخبر به النبي ﷺ بعد ذلك؛ بأن دانت الفرس والروم لدولة الإسلام، ودخل الناس في دين الله ﷻ بعد ذلك.

كل ذلك أخبر به رسول الله ﷺ ومصدره القرآن الكريم والآيات الكريمة.

أوجه إعجاز القرآن الكريم: حفظ التشريع ودوامه

عناصر الدرس

٥١	العنصر الأول : نظم القرآن
٥٨	العنصر الثاني : قدسية القرآن
٦٣	العنصر الثالث : الإعجاز اللغوي

نظم القرآن

عندنا عنوان عام وهو "التشريع"؛ دوامه وحفظه "أي: هذا التشريع الرباني الذي شرعه الله لعباده في كتابه الأعظم القرآن الكريم يمتاز بميزتين عظيمتين:

الأولى: هي أنه دائم بمعنى أن دوام هذا التشريع طيلة الدهور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هو في حد ذاته آية من آيات إعجاز هذا الكتاب الكريم.

الثانية: حفظ هذا التشريع، الذي هو حفظ كتاب الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فإن الله ﷻ تكفل بحفظ كتابه، والله ﷻ كذلك كتب لكتابه الدوام، وهذا الذي جعل العلماء يفكرون فيما يخص هذا الكتاب العزيز من أشياء أدت إلى هاتين الخاصيتين العظيمتين؛ خاصية الدوام وخاصية الحفظ.

من هنا كان الانطلاق في موضوعنا اليوم، فيا ترى هل يرجع ذلك إلى نظم القرآن، أم إلى قدسيته، أم إلى إعجازه اللغوي، أم إعجازه العلمي، أم الإعجاز العددي الموجود في ثناياه، أم التصوير الذي هو سمة تكاد تكون أصلاً في عبارات القرآن وألفاظه، وتكاد تكون هي الأساس الذي يُبنى عليه التعبير في كثير من النصوص، إذا ما نحينا جانب التشريع؟ فكل ذلك طُرح ونوقش في هذه المسألة.

ونتناول الآن نقطةً نقطةً من هذه النقاط، ونقتصر على ثلاث مما ذكرت نقتصر في كلامنا على نظمه وعلى قدسيته، وعلى إعجازه اللغوي.

النقطة الأولى النظم في القرآن :

لا شك أن النظم هو سر الإعجاز في القرآن الكريم ، لماذا؟ لأننا لو نظرنا فيما قيل قبل ذلك من أن المسألة هي مسألة صرفة أو وجود غيبيات أو إعجاز علمي أو غير ذلك من الأوجه التي نوهنا عليها في الدرس الأول نجد أن هذه الوجوه الإعجازية لا نستطيع أن نتحصل عليها إلا في القرآن جملة ؛ بمعنى أن القرآن في جملته يحوي الغيبيات ويحوي الإعجاز العلمي ويحوي الإعجاز البلاغي ويحوي الإعجاز العددي ، وغير ذلك من أوجه الإعجاز ؛ كل ذلك لا يتأتى لنا إلا من خلال الكتاب ككل ، من خلال القرآن الكريم جملة ، أما مسألة النظم هذه يتأملها أو يستطيع أن يستكشفها من ينظر في أدنى سورة من سور القرآن في أقصر سورة من سور القرآن الكريم - يستطيع أن يتبين روعة هذا النظم ، وهذا السبك الذي يدل على أن هذا الكلام ليس من قول البشر ، وإنما هو كلام رب البشر ﷺ .

عموماً قضية النظم لها درس مستقل سنتعرض له فيما بعد إن شاء الله ﷻ ونكتفي الآن ببيان معنى النظم بإيجاز ، وذكر أقوال بعض العلماء في هذه الخاصية .

فالنظم بإيجاز : هو توخي معاني النحو ، بمعنى : أن الناس يتعاملون مع اللغة ، واللغة فيها تقديم وتأخير ، وفيها ذكر وحذف ، وفيها بيان الأوجه مثال : أن أريد أن أستخدم الحال فهل أستخدم الحال جملة أم مفرداً أم شبه جملة ، وإذا استخدمته جملة هل آتي بجملة فعلية أم جملة اسمية ، وإذا استخدمته شبه جملة فأيهما أولى الظرف أم الجار والمجرور ، هذا في الاستخدام أيهما أولى : أقدم أم أؤخر؟ يعني أقدم الخبر على المبتدأ أم أقدم المبتدأ على أصله في التقديم؟ أقدم

المفعول على الفاعل أم أوخر المفعول على أصله في الترتيب؟ كل هذه القضايا هي التي تظهر فلي كلامنا، فالذي يتحدث بلغة العرب والذي يكتب على لغة العرب لا بد أن يتوخى هذه المعاني عند كتابته، وبالتفاوت في هذه المعاني يتفاوت الكاتب ويتفاوت من يتكلم بلغة العرب.

ننظر مثال فيما ذكره الرافعي - رحمه الله - في كتابه (إعجاز القرآن) يقول: "الكلام يتركب من ثلاثة: حروف وهي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم، وقد رأينا سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها؛ بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به؛ أي: أن القرآن معجزٌ في حروفه في كلماته في جملة، فبالتالي هو معجز في نظمه ككل، فيقول: إن نظم القرآن يقتضي كل ما فيه منها اقتضاءً طبعياً؛ بحيث يبنى هو عليها؛ لأنها في أصل تركيبه ولا تبنى هي عليه، فليست فيها استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شيء، من مثل هذا يصح في الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذا تبدلته منه، فضلاً عن أن يفى به وفضلاً عن أن يربى عليه أي يزيد عليه، ولو أدت اللغة كلها على هذا الموضع، فكأن البلاغة فيه إنما هي وجهٌ من نظم حروفه، بخلاف ما أنت واجد من كلام البلغاء، فإن بلاغته إنما تصنع لموضعها وتبنى عليه، وربما وفّت وربما أخلفت، ولو هي رفعت من نظم الكلام ثم نزل غيرها في مكانها لرأيت النظم نفسه غير مختلف، بل لكان عسى أن يصح ويجود في مواضع كثيرة من كلامهم".

بمعنى: يقول الشيخ - رحمه الله: "إن القرآن نظمه يتميز بهذه الميزة العظيمة؛ أنك لا تستطيع أن تضع حرفاً مكان حرف أو كلمة مكان كلمة أو تغير من ترتيب الكلام بتقديم أو تأخير وغير ذلك، بعكس كلام البشر وكلام العرب؛ فإنك

تستطيع أن تبدل في الأشعار وأن تضع كلمات موزونة تفي بالوزن العروضي وتفي بالمعنى المراد، وتستطيع كذلك في كلام الخطباء أن تأتي بكلمة مكان كلمة، وربما يأتي النقاد ويقولون لو قال الشاعر كذا مكان كذا لكان أولى والحديث المشهور والقصة المشهورة بين الخنساء وحسان بن ثابت { في بيته المشهور:

لنا الجففات الغر يلمعن في الضحى ❖ وأسيافنا يقطن من نجدة دما
فهذا البيت ستعرض له في قضية النظم تفصيلاً، أما هذه المسألة في إجمالها في مسألة النظم؛ أي الحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه؛ لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها، ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، هذا هو السر في إعجاز جملة إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية.

هذا المعنى الذي ذكره شيخنا الرافعي - رحمه الله - أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية قبله فقال - وليس شيخ الإسلام هو من تكلم عن قضية النظم في أولها وإنما الكتاب المشهور (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني وهو قائم على نظرية النظم وسيتضح ذلك بعد ذلك إن شاء الله ﷻ.

يقول الإمام ابن تيمية: نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر، ولا الرجز، ولا الرسائل ولا الخطابة، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة، ليس له نظير في كلام جميع الخلق، وبسط هذا تفصيله طويل يعرفه من له نظر وتدبر.

فأتى الإمام وأشار هنا إلى قضية النظم جملةً بأنها ليست على طريقة كلام العرب، فأتى بمعنى جديد غير ما ذكره الإمام شيخنا الرافعي، أتى بمعنى جديد

في هذه المسألة أيضاً المعنى سبق أن ذكره الباقلائي في (إعجازه القرآن) وهو أن القرآن جاء على نظم ليس على صورة ما تحدث به العرب وما ألفه العرب في كلامهم.

فارجع لقضية النظم بإعطاء نموذج يوضح هذه المسألة، لماذا؟ لتعرف أن الغرض من مادتك هذه أن تتذوق القرآن الكريم، وهذا هدف أسمى من أهداف تدريس المادة؛ أن تنظر في كتاب الله وترى ما فيه من إعجاز، هذا يساعدك على تذوق كلام ربك ﷻ وعلى التقرب منه ﷻ.

هذا النموذج التطبيقي نراه في آية من آيات الله، هذه الآية لها قصة وشأن عند أهل البلاغة؛ ويروى أن بعض من حاول من الملاحدة معارضة القرآن، واجتهد في أن يكتب مثل القرآن وأخفى ذلك وجعله سرّاً حتى لا يفتضح أمره ويعرف أنه زنديق فيقتل أو يؤذى بهذا، فكنتم الأمر وحاول أن يعارض القرآن إلى أن جاء إلى هذه الآية الكريمة في سورة "هود" فانصدع، كما يقال: إنه لم يستطع أن يقاوم فسلم واعترف أنه لا يستطيع أن يعارض القرآن، ورواية أخرى: أنه أصيب بانفجار مرارته ومات كمدّاً؛ لأنه لا يستطيع أن يكتب مثل هذا النظم ومثل هذا القول الكريم، هذه الآية هي قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءِ أَقْلَعِي وَغِبْضِ الْمَاءِ وَقْضَى الْأَمْرُ وَالْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود: ٤٤].

فإنك إذا أخذت كل كلمة على حدتها من غير نظر إلى ما قامت به من أداء حظها المقسوم لها في معنى الجملة كلها - فقد لا تجد لها من التأثير ما تجده لها، وهي بين أخواتها تؤدي معناها، وهنا يحق لنا أن نسأل عن فضل الكلمة في موضعها، ونتبين جمال اختيارها، ونذكر ما لها من الميزة على صاحبها، وإذا سلطنا هذا

المسلك في الآية الكريمة رأينا الآية تصور ما حدث بعد الطوفان من ابتلاع الأرض ماءها ونقاء السماء بعد أن كانت تغطى بسحبها واستواء السفينة على الجودي الجبل المعروف، وقد طهرت الأرض من رجس المشركين، فصور الله ذلك تصويراً حسياً يؤكد في نفسك استجابة هذه الطبيعة العظيمة وخضوعها لأمر الله، فهذا المطر المدرار ينهمر من السماء، وهذا الماء الطاغي يجتاح نواحي الأرض، وهذا الاضطراب في أرجاء الكون لم يلبث أن سكن واستقر وعادت الطبيعة إلى هدوئها عندما تلقت أمر الله لها أن تسكن وتهدأ، ولكن لما كان هذا الأمر قد صدر إلى الكون من غير أن يسمعه من في الكون أو يروا قائله بُني الفعل للمجهول كما ترى، وأوثر في نداء الأرض "يا" دون الهمزة.

يبدأ هنا الشيخ دكتور أحمد بدوي في ذكره تحليل الآية في كتابه (من بلاغة القرآن) أن يبين سر الإعجاز في نظم الآية باختيار شيء دون غيره، بمعنى قال الله ﷻ: "وقيل" لم يقل وقلت أو وقال، إنما قال "قيل" قيل بصيغة البناء للمجهول، وقال الله ﷻ: "يا أرض" ولم يقل أرض ببناء بالهمزة مثلاً أو أيا أرض بالنداء بـ أيا من غيرها من أدوات النداء، فاستخدمت "يا" بمعنى، يبدأ الشيخ في توضيح قيمة استعمال أداة بدلا من سواها، فقول الله ﷻ: "قيل" صيغة البناء للمجهول، واستخدام حرف النداء "يا" بدلا من الهمزة؛ لأن اجتماع الهمزة في همزة النداء مع همزة كلمة "أرض" يؤدي إلى ثقل على اللسان في النطق فيهما، فيقال أرض يكون فيها نوع من الثقل!! وفضلت كذلك على أيا لما في هذه من زيادة تنبيه ليست الأرض، وهي رهن أمر الله في حاجة إليه، وأوثر تنكير الأرض لما في ذلك من تصغير أمرها؛ أي: لم يقل يا أيتها الأرض، فقال الله ﷻ: "يا أرض" فإن أمرها صغير وإن أمرها واضح في أنها رهن أمر الله ﷻ فالمقام هنا يستدعي ذلك التصغير ويستدعي الإسراع بتلبية الأمر، وذلك لا يكون مع التعريف المقتضي

لإطالة الكلام بأيتها، وجاءت كلمة "ابلعي" هنا مصورة لما يراد أن تصنعه الأرض بمائها وهو أن تبتلعه في سرعة، فهي هنا أفضل من "امتصي" مثلاً؛ لأنها لا تدل على الإسراع في التشرب، وفي إضافة الماء إليها ما يُوحى بأنها جديرة بأن تمتص ماءً هو ماؤها.

انظر رحمك الله: "ابلعي ماءك" وإضافة الماء إلى الكاف - كاف الخطاب - توضح أنها تبتلع شيئاً هو لها، فيكون ذلك أسرع ويكون ذلك أبين للمراد، فكأنها لم تتكلف شيئاً من الأمر، وقل مثل ذلك في قوله تعالى: "ويا سماء أقلعي" ولاحظ هذا التنافس الموسيقي بين ابلعي وأقلعي، وبُني "غيض" للمجهول مصوراً بذلك إحساس من شاهدوا هذا المنظر الطبيعي، فهم قد رأوا الماء يغيض والأمر يتم، وكأنما قد حدث ذلك من تلقاء نفسه من غير أن يكون ثمة فاعل قد فعل، واختيرت كلمة "استوت" دون رست - مثلاً - لما في كلمة "استوى" من الدلالة على الثبات والاستقرار، وبني الفعل "قيل" للمجهول إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يعد كثرة؛ يعني كأنما قال هذا القول أكثر من مصدر، حتى لكأن أرجاء الكون تردد هذا الدعاء: "بعداً للظالمين"، فجاءت كلمة بعداً دون هلاكاً - مثلاً - إشارة إلى أن هلاك هؤلاء القوم الظالمين إنما قصد به إبعادهم عن الفساد في الأرض والسخرية بمن آمن وعمل صالحاً، وأوثر المجيء بالموصوف هنا لأنه لا يراد الدعاء على الظالمين لاتصافهم بالظلم، وإنما يراد الدعاء على هؤلاء القوم بالبعد لاتصافهم بالظلم، فالمقام هنا مقام حديث عن قوم ظلموا أنفسهم فاستحقوا لذلك أن يُتخلص منهم.

فانظر إلى النسق القرآني البديع في هذه الآية، وتوضيح مراد الله عَلَيْكَ في تصوير هذه السورة الرائعة بهذه الألفاظ التي لا نستطيع أن نأتي بكلمة مكان كلمة أو

نقدم أو نؤخر في صياغة الآية الكريمة ، وذلك لنا معه شأن - إن شاء الله - عند أفراد الحديث عن النظم ، وما به من جمال وآيات عظيمة في كتاب الله ﷻ.

قدسية القرآن

القرآن كتاب مقدس منزل من عند الله ﷻ وكما ذكرنا تكفل الله بحفظه ، فكان من أوجه قداسته وطهارته وتنزيهه أنه خلا من التناقض ولم تتطرق إليه يد التحريف ولم يعتره عرى النسيان ، فإنما هو بكامل قداسته وطهارته وتنزيهه منزل من الله ﷻ وهذا الأمر له مصدرٌ لا بد أن نقف معه ، وهو أن مصدر الوحي هو الله ﷻ وهذا مدار حديثنا عن هذه النقطة وهي نقطة قدسية القرآن الكريم ، فهو من الله ﷻ لم يقله بشر ولا ملك ، وأدلة ذلك فيه ؛ بمعنى أن التأمل للقرآن الكريم والناظر فيه يتبين له يقيناً أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون من عند محمد ﷺ وأن هذا الكلام له قدسية ومنزل من إله قادر قاهر ، يملك محمداً ﷺ وسائر البشر ﷻ بل له ملك السماوات والأرض وما فيهن ، جل في علاه.

تأمل هذا الكلام البديع الذي تناوله الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم) يتحدث فيه عن هذه المسألة - مسألة قدسية القرآن ومصدره وأنه وحي من الله ﷻ يقدم الشيخ بحقيقة نسلم بها جميعاً يقول : "لقد علم الناس أجمعون علماً لا يخالطه شك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي ولد بمكة في القرن السادس الميلادي ﷺ هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد ؛ لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض ، هذا أمر مسلم به وأن النبي ﷺ كان دوره مع القرآن الكريم يتركز في أربع نقاط :

الأولى: الوعي والحفظ؛ أن يعيه ويحفظه ﷺ.

الثانية: الحكاية والتبليغ؛ أن يحكيه وأن يبلغه بالناس.

الثالثة: البيان والتفسير؛ أن يبينه ﷺ ويفسر معناه لمن يتلوه عليهم.

الرابعة: التطبيق والتنفيذ؛ هذا دور النبي ﷺ مع القرآن.

أما ابتكار المعاني وصياغة المباني فما هو منها بسبيل، وليس له من أمرهما شيء ﷺ ﴿إِنَّهُوَ الْوَحِيُّ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، ﴿وَإِذْ أَلَمَ تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَاتٌ قَالُوا لَوْلَا آجَبْتَنَاهَا قُلُوبًا إِنَّمَا آتَيْتُهَا مَا يُوحَىٰ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

القرآن صريح في أنه لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ولا لأحد من الخلق، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه.

بعد ذلك يتناول الشيخ افتراضاً وهو أنه يُخاطب من لا يؤمن بهذا الكتاب، ومن لا يؤمن بهذا الكتاب لا بد أن يُقارع وأن تقام عليه الحجة بالدليل، فاجتهد الشيخ - رحمه الله - في ذكر بعض الأدلة من القرآن؛ طبعاً هذه الأدلة التي يذكرها هؤلاء العلماء مستمدة من الأولين وليست ابتكاراً، وهذا شأن أن العالم يستفيد ممن سبقه، ولكن يمكنه أن يعرض الشيء عرضاً مميزاً، كما كان شأن الشيخ دراز في كتابه (النبأ العظيم) الذي قيل عنه: إنه هدية من السماء إلى الأرض في عصرنا هذا؛ من روعة أسلوبه - رحمه الله - في الكتاب يقول يستدل الشيخ على من يعاند في هذه المسألة بأربعة أشياء:

النقطة الأولى: أن النبي ﷺ كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم؛ بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآناً يقرأه على الناس، فأول دليل أن الكلام ليس من عند النبي ﷺ هذه النوازل التي كانت تنزل بالنبي ولا يجد فيها قرآناً يقرأه على أصحابه وهو في أشد الحاجة إلى أن يتحدث في هذا الأمر، فلو كان الأمر من عنده ﷺ لكان من السهل أن يتحدث وأن يُخرج نفسه من هذه النازلة أو هذا المأزق الذي نزل به وبأصحابه ﷺ مثال ذلك: الحادثة المشهورة "حادثة الإفك" فقد اتهم اتهمت عائشة > في عرضها، وهذا شيء يمس النبي ﷺ وهذا أمر خطير تحدث فيه الناس، ومع ذلك كان انتظار الوحي من الله ﷻ ليحكم وليقضي في هذه المسألة، وكانت العبارة الشهيرة في الحديث: ((يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا؛ فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنتي أمت بذنّب فاستغفري الله)) هذا كلام النبي ﷺ قبل أن ينزل الوحي تبريء عائشة > وأرضاها وعن أبيها، الصديقة بنت الصديق.

النقطة الثانية: يقول الشيخ: إن النبي ﷺ كان يجيئه القول في القرآن في بعض الأوقات على غير ما يحبه ويهواه، فيخطئه في الرأي يراه؛ أي: الوحي يخطئ النبي ﷺ فيما يرى من رأي، ويأذن له في الشيء لا يميل إليه، فإذا تلبس فيه يسيراً تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد، والعتاب القاسي، والنقض المرّ، حتى في أقل الأشياء خطراً، وهذه مسألة يستدل بها لكل من ينظر في كتاب الله ﷻ هناك آيات في كتاب الله هي عتابٌ للنبي ﷺ فلو كان الأمر من النبي ﷺ لتغاضى عن هذه الأشياء ولم يذكرها، حتى لا تبقى بعده تبين هذه المواقف، وهذا دليل على

قدسية هذا الوحي وعلى أن النبي ﷺ لا يملك إلا أن يبلغ ما قاله الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا
النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّى مَرْضَاتِ أَرْوَاجِكَ﴾ [التحریم: ١] ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا
اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ
أَذْنَتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣] ﴿
مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ
يَكُونَ لَهُ سُرَىٰ حَتَّىٰ يُنْخَفَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُوتَ عَرْضِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧] ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ [٥] ﴿فَأَن تَلَهُ تَصَدَّىٰ﴾ [٦] ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزُكَّىٰ﴾ [٧] ﴿
وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ [٨] ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ [٩] ﴿فَأَن تَعْنَهُ تَلْهَىٰ﴾ [١٠] ﴿[عبس: ٥ - ١٠].

كثير من الآيات في كتاب الله ﷻ تحمل هذا المعنى الجميل من العتاب الرقيق لخير
الخلق محمد ﷺ وهذا وجه يدل على قدسية هذا الكتاب، وأنه منزل من عند رب
الأرض والسماء ﷻ وذكر الشيخ قصة جميلة في هذا المجال؛ وهو ما حدث مع
عبد الله بن أبي كبير المنافقين عليه سحائب اللعائن عندما مات وكفنه النبي ﷺ
في ثوبه وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه، فقال عمر <: "أتصلي عليه وقد
نهاك ربك؟" فقال ﷺ: ((إنما خيرني ربي فقال: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيده على
السبعين))، وصلى عليه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا
نَقَمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]، فترك ﷺ الصلاة عليهم.

النقطة الثالثة: أن النبي ﷺ كان يجيئه الأمر أحياناً بالقول المجمل أو الأمر المشكل
الذي لا يستبينه هو ولا أصحابه تأويله، حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد؛ بمعنى

أنه كان ينزل الأمر على النبي ﷺ مجملاً أي غير واضح في الدلالة القطعية على أمرٍ ما، فربما يتحير النبي ﷺ وأصحابه في المراد بهذا القول الكريم، حتى يفسره الله ﷻ له ويبينه له ﷻ.

من ذلك القصة المشهورة في خواتيم سورة البقرة، وما كان من شأن أصحاب النبي ﷺ عندما نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] نزلت هذه الآية الكريمة على أصحاب النبي ﷺ فكان لها من الشأن الذي يشغلهم والذي يجعلهم يحدسون في هذه المسألة؛ يُحاسبون على ما يخفون في أنفسهم!! فهذا لا يطيقه أحد، هم يحاسبون على ما يفعلون أو ما يظهر من أمرهم أما أن ذلك ينزل بحساب الخواطر وبحساب حركات القلب وبحساب ما يريد الإنسان فعله ولم يفعله؛ فهذا أمر عظيم استعظمه أصحاب النبي ﷺ فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه في هذا الأمر وفي أن هذه الآية صعبة عليهم، فما كان منه ﷺ إلا أن قال: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم "سمعنا وعصينا" بل قولوا: "سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ۗ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فنزلت الآيات برداً وسلاماً على أصحاب النبي ﷺ فيها التعليم وفيها البشارة، وفيها الإخبار لهم بأن يتضرعوا إلى ربهم بهذه الدعوات المباركات، ويلجئوا به إلى الله ﷻ فذلك دليل واضح على أن النبي ﷺ لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر لبين لهم خطأهم ولأزال اشتباههم من فوره؛ لأنه لم يكن ليكتف عنهم هذا العلم وهم في أشد الحاجة إليه، ولم يكن يتركهم في هذا الهلع الذي كاد يخلع

قلوبهم وهو بهم رءوف رحيم ﷺ ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان وذلك واضح أيضاً في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: ١٩] أن الله ﷻ هو الذي يوضح للنبي ﷺ ما أنزل من آيات.

النقطة الرابعة: هي أن النبي ﷺ كان حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحي يتلقفه متعجلاً فيحرك به لسانه وشفثيه طالباً لحفظه وخشية ضياعه من صدره، ولم يكن ذلك معروفاً من عاداته في تحضير كلامه لا قبل دعواه النبوة ولا بعدها، ولا كان ذلك من عادة العرب، ولكن النبي ﷺ كان شديد الحرص على المتابعة الحرفية حتى ضمن الله له حفظه وبيانه بقوله: ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة: ١٦] وقوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه: ١١٤] فهل هذا توجيه لأحد كتب الكلام من تلقاء نفسه وقاله من ذاته؟ لا والله، فكل ذلك دليل قاطع على أن القرآن كتاب مقدس من عند الله وليس من كلام النبي ﷺ.

الإعجاز اللفظي

وكما يقال نعود إلى ما ابتدأنا به وما سنستمر عليه - إن شاء الله - فهذه النقطة هي مادتنا وهي الإعجاز اللغوي، بالطبع لن نذكر في هذا المقام إلا أن نبين أن الإعجاز اللغوي هو الذي دار حوله الكلام في القرآن الكريم، ونحاول أن نبين في عجالة المراد بالإعجاز اللغوي وما قيل في إعجاز القرآن من الناحية اللغوية، وما تُعرض له في هذا المجال بإجمال؛ لأننا سنفصل بعد ذلك وجوه الإعجاز اللغوي، فنشير فقط إلى أن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم منه لفظ الإعجاز على إطلاقه؛ معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الإنساني، ومعجز كذلك في حقائقه.

فإذا ما نظرنا إلى إعجازه اللغوي جاز لنا أن نكرر ما قاله الرافعي - رحمه الله :
 "إن العرب قامت فيهم دولة الكلام ، ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن ،
 فملك القرآن سر الفصاحة ، وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده ولا حيلة لهم
 معه ، فكانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهون إلا إليه ؛ إذ يرونه أخذ عليهم
 بفصاحته ، وإحكام أساليبه جهات النفس العربية".

هذا مجمل قضية الإعجاز اللغوي ؛ أن العرب أقرؤا أن هذا الكلام لا طاقة لهم
 به ، ولا يستطيعون أن يضاهوه أو أن يحاكوه.

هذه المسألة ناقشها بكلام علمي ، سمة البحث العلمي هو تناول المسألة بهذا
 الجانب ؛ بمعنى أننا نعرض كلاماً في هذه المسألة ، هذا الذي يشكك في أن القرآن
 معجز في لغته ، وفي أن القرآن تكوّن من كلام العرب وأساليب العرب ، وهو كما
 يقولون يقال ؛ أي : أن القرآن لم يخرج عن سنن العرب في كلامهم ؛ يعني الشيخ
 آثار المسألة بهذا الوجه ، يقول يأتي قائل ويقول إنني أقرأ القرآن فلا أجده يخرج
 عن معهود العرب في لغتهم العربية ؛ فمن حروفهم ركبت كلماته ، ومن كلماتهم
 ألفت جملة وآياته ، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه ، فأني جديد في
 مفردات القرآن لم يعرفه العرب من موادها وأبنيتهما؟ وأي جديد في تركيب القرآن
 لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به في مذاهبها؟ حتى نقول إنه قد جاءهم
 بما فوق طاقتهم اللغوية !!

هذه هي الشبهة التي يثيرها من لا إيمان له ، يأتي ويقول هذا الكلام ، أي جديد في
 لغة القرآن ليس في كلام العرب كي نقول إن القرآن معجزة لغوية؟

يجيب الشيخ ويقول : أما إن القرآن الكريم لم يخرج في لغته عن سنن العرب في
 كلامهم أفراداً وتركيباً ؛ فذلك في جملته حق لا ريب فيه ، وبذلك كان أدخل في

الإعجاز وأوضح في قطع الأعذار، هذا كلام الله ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤] فهم لو جاءهم الكتاب على غير لغة العرب لكان ذلك أدعى للبس عليهم ولقالوا: لا نفهمه ولا نعرفه!! إنما القرآن جاء على لغتهم ليكون أدعى في الإعجاز كيف ذلك؟ اللغة فيها العام والخاص.

يقول الشيخ: وذلك أن اللغة فيها العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمبين، وفيها العبارة والإشارة والفحوة والإيماء، وفيها الخبر والإنشاء وفيها الجمل الاسمية والفعلية، وفيها النفي والإثبات وفيها الحقيقة والمجاز، وفيها الإطناب والإيجاز، وفيها الذكر والحذف وفيها الابتداء والعطف وفيها التعريف والتنكير وفيها التقديم والتأخير، ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس إلى أغراضهم، غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملةً، بل هم في شعابها يتفرقون وعند حدودها يلتقون.

بيد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذي يَجْمَلُ في كل موطن، وليس شيء منها بالذي يقبح في كل موطن، إذًا لهان الأمر على طالبه ولأصبحت البلاغة في لسان الناس طعمًا واحدًا وفي سمعهم نعمة واحدة، فإن الطريق الواحد قد يبلغك مأمنا حينًا ويقصر بك عن غايتك حينًا آخر، ورب كلمة تراها في موضع ما كالخرزة الضائعة، ثم تراها بعينها في موضع آخر كالدرة اللامعة، فالشأن إذًا في اختيار هذه الطرق؛ أيها أحق بأن يسلك في غرض غرض وأيها أقرب توصيلًا إلى مقصد مقصد.

إذًا الجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد وأمسها رحماً بالمعنى المراد، وأجمعها وأمسها رحماً بالمعنى المراد،

وأجمعها للشوارد وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به ؛ بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته ناصعة وصورته الكاملة ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين وقراره المكين ، لا يوماً أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلا ، ولا الساكن يبغي عن منزله حولا ، وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان.

هذا ما يتميز به القرآن الكريم ؛ أنه في لغته عموماً بهذه الصورة التي هي فوق طاقة البشر ويستدل الشيخ بشيء جميل على هذه المسألة ؛ هو أننا لا نستطيع أن نقدر قيمة القرآن كما قدره هؤلاء الذين آمنوا به وهؤلاء الذين لم يؤمنوا به وكفروا به وجحدوا ، فيقول الشيخ : أنت أحد اثنين ؛ إما أنك تعرف لغة العرب معرفة وثيقة وتستطيع أن تحكم ، وإما أنك جاهل بلغة العرب وأسرار كلامهم ، فلا تستطيع أن تحكم ؛ فإن كنت جاهلاً بلغة العرب يكفيك شهادة العربي الفصيح ، فإن قلت : أقبل شهادة من عربي يؤمن بالقرآن تأتيك بشهادة من كفر بالقرآن :

هذا مثال ذكره الشيخ بقصة الوليد بن المغيرة ، هذا الوليد عندما أتاه أبو جهل وعرض عليه أن يطعن في القرآن بعدما سمعه من النبي ﷺ يقول الوليد لأبي جهل : "وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر؛ لا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا!! ووالله إن لقوله حللوه وإن عليه لطلاوة!! وإنه لمنير أعلاه مشرق أسفله!! وإنه ليعلو ولا يُعلو!! وإنه ليحطم ما تحته!!"

هذه شهادة الوليد بن المغيرة - الذي لم يؤمن بالقرآن - في القرآن كلغة
وكمعجزة لغوية.

أما إن كنت الرجل الثاني ؛ بمعنى أنك تعرف لغة العرب ، فيقول الشيخ : أما إن
كنت قد أوتيت حظك من معرفة فروق الكلام والميز بين أساليبه ، فاقرأ ما شئت
من خطب العرب وأشعارها وحكمها وأمثالها ورسائلها ومحاورتها متبعاً في ذلك
عصور الجاهلية والإسلام على اختلاف طبقاتها ، ثم افتح صفحةً من هذا
الكتاب العزيز وانظر ماذا ترى ؟

أسلوب عجب ، ومنهج في الحديث فذُّ مبتكر ، كأن ما سواه من أوضاع الكلام
منقول ، وكأنه بينها على حد قول بعض الأدباء وضع مرتجل ، لا ترى سابقاً جاء
بمثاله ولا لاحقاً طبع على غرارهِ ، فلو أن آيةً منه جاءتك في جمهرة من أقوال
البلغاء لدلت على مكانها ، واستمازت من بينها كما يستميز اللحن الحساس بين
ضروب الألحان ، أو الفاكهة الجديدة بين ألوان الطعام.

الإعجاز العلمي، والعددي، والتصوير في القرآن الكريم

عناصر الدرس

- العنصر الأول : الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ٧١
- العنصر الثاني : الإعجاز العددي في القرآن الكريم ٧٧
- العنصر الثالث : مسألة التصوير ٧٨

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

إن الإعجاز العلمي أمر شغل الناس كثيراً، وظهر في عصرنا هذا بصورة واضحة وكثير الكلام فيه، فكان لا بد لنا في مادتنا مع أنها تمس الجانب اللغوي أن نقف مع هذه النقطة، ونوضح ما فيها من أشياء عسى أن ينفعنا الله ﷻ بما نقول ونسمع.

ويتركز حديثنا حول الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في النقاط التالية:

أولاً: ما المقصود بالإعجاز العلمي؟

المقصود بالإعجاز العلمي هو إخبار القرآن بحقيقة كونية أثبتتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ مما يُظهر صدقه فيما بلغ عن رب العزة ﷻ.

ثانياً: ما الفرق بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي؟

البعض يخلط في هذه المسألة، فيتحدث عن التفسير العلمي بأنه إعجاز علمي، أو يذكر أوجه الإعجاز العلمي على أنها تفسير علمي للقرآن الكريم، فما الفرق بينهما؟

الفرق هو أن الإعجاز العلمي الذي يُقصد به سبق القرآن الكريم إلى الإخبار بحقيقة كونية قبل أن يكتشفها العلم التجريبي، هذا المقصود بالإعجاز، أما التفسير العلمي للقرآن فيراد به الكشف عن معانٍ جديدةٍ للآية القرآنية في ضوء ما

ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية، دون إسراف في التأويل، ذلك عندما تدرس في مادة التفسير ومناهج التفسير تجد إسهاباً في الحديث عن هذه المسألة وهي مسألة التفسير العلمي للقرآن الكريم، هذه المسألة انتشر اجتهاد المجتهدين فيها، وكلام الناس فيها، ولكنها لها حدود لا بد أن نقف عندها.

ثالثاً: ما الضوابط التي نحتكم إليها في البحث عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؟

هل كل أحد يقول ما يقول وما يحلوه أن يقوله يذكره ويقول: هذا إعجاز علمي؟

لا نستطيع ابتداءً أن نسلم بهذا الكلام، وما أوتي النقد من أعداء الإسلام إلا من تسرع بعض الناس في إثبات أو في الحديث عن نظريات علمية كانت في محل التجريب، ولم تثبت ثبوتاً قطعياً، فأرادوا أن يفسروها على آيات من القرآن، وجاءوا بآيات من القرآن قالوا: إنها تفسر هذا المعنى التجريبي أو العلمي الذي توصل إليه، وبعد ذلك يثبت خطأ هذه النظرية، فيرمي هؤلاء الملاحدة على القرآن الكريم بأنه تحدث عن حقيقة تغيرت أو عن مسألة علمية تغير وضعها.

لا والله، الخطأ لم يكن قطعاً في كتاب الله وَعَجَّلَ، حاشا لله، وإنما الخطأ من هذا الذي تسرع وحمل الآية على هذا المعنى، لذلك كان لا بد لنا في حديثنا عن الإعجاز العلمي أن نضع ضوابط البحث في الإعجاز العلمي، فهذه قضية شائكة تقابلها رافض وتقابلها متحمس، فالبعض يتحمس لها والبعض يرفضها، وكما قال شيخ الإسلام: "كلا طرفي قصد الأمور ذميم".

من هنا نتحدث عن الضوابط:

الضابط الأول: أن توقن بأن علم الله هو العلم الشامل المحيط الذي لا يعتره خطأ ولا يشوبه نقص، وأن علم الإنسان محدود يقبل الازدياد ومعرض للخطأ، ومن ثم فإنه لا يوجد تعارض بين نصوص الوحي القاطعة التي تصف الكون وأسراره على كثرتها، وبين الحقائق العلمية المكتشفة على وفرتها، هذا ما أسهب فيه شيخ الإسلام في كتابه (درء تعارض العقل والنقل).

الضابط الثاني: هو أنك تقرأ أن الحقيقة العلمية التي يعرف رجال العلم معناها وحدودها لا تبطل مع الزمن، ولكنها قد تزداد مع جهود العلماء المتابعة تفصيلاً أو وضوحاً وجلاءً؛ أي تظهر باجتهاد العلماء وبيحثهم فيها، وبكفينا أن القرآن يكون قد أشار إلى هذه الحقيقة العلمية في ذاتها.

الضابط الثالث: أن الذي يتعرض للحديث عن الإعجاز العلمي لا بد أن يتقيد بما تدل عليه اللغة العربية، فلا بد أن يُراعي معاني المفردات، وفقه استعمالها وأن يراعي القواعد النحوية ودلالاتها، وأن يراعي القواعد البلاغية والبيانية ودلالاتها، لا بد لمن يتعرض للحديث عن الإعجاز العلمي أن يكون ملماً بلغة العرب، وأن يكون عارفاً بطريقة العرب في أساليبهم وكلامهم.

الضابط الرابع: هو أن يبتعد عن التأويل، التأويل الذي يحمل التعسف والذي يحمل - كما يُقال - لوي النص، يُقال أنه يرغم النص على معنى يريده أو على حقيقة ثبتت عنده، أو يريد أن يحمل كلام الله عليها عنوة كما يُقال.

الضابط الخامس: ألا تُجعل حقائق القرآن موضع نظر، يعني أن لا يجعل الباحث في الإعجاز العلمي أنه يريد أن يبحث في الحقيقة القرآنية، وينظر من خلالها: هل هي أثبتت ذلك أم لم تثبتته.

الضابط السادس: أنه يجب على المجتهدين من العلماء أن يكونوا ملمين من علوم القرآن بالقدر الكافي، وأن يكون لديهم استعداد شخصي يعززه رجوعهم إلى أمهات كتب التفسير، فهذا أقل مقتضيات التحري وعدم التورط في الكلام في كتاب الله بغير علم؛ أن يكون عارفاً بأحكام القرآن وبكلام القرآن وبطرق التفسير كما أوجز ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في عبارتين: "أنه يكون عارفاً بكلام أهل التفسير"، "وأنه يكون عارفاً بلغة العرب".

الضابط السابع: فإنه يجب على المجتهدين من الباحثين أن يكونوا على معرفة تامة بالظاهرة العلمية قيد البحث، وتاريخ المصطلحات الفنية المتعلقة بها. هذه ضوابط وضعها العلماء للكلام في الإعجاز العلمي.

رابعاً: أوجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

هذه نقطة واسعة، الناظر في القرآن يجد آيات كثيرة بها إعجاز علمي، بالمعنى الذي ذكرناه في بداية التعريف، حقيقة علمية أثبتتها العلم التجريبي، ما كان للنبي ﷺ وصحابته الكرام أن يتعرفوا عليها في زمانهم، هذا المعنى بهذا المصطلح نجده في آيات كثيرة في كتاب الله ﷻ.

أوجه الإعجاز العلمي في القرآن شملت أشياء كثيرة، في السماء في الأرض في الجبال في البحار وفي النبات وفي عالم الحيوان وفي عالم الحشرات، وفي عالم الطيور وفي الآفاق وفي الأنفس، بل في القضايا العلمية المعاصرة؛ قضايا الاستنساخ والتلوث البيئي واحتمالات الحياة على كواكب أخرى، كل ذلك تعرض له القرآن الكريم، وهناك آيات أسهمت في هذا المجال ووضحته، وكان ذلك آية إعجاز في كتاب الله ﷻ في هذه المسألة.

مثال: لو ذكرنا في آيات السماء، نجد قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]

أليس ذلك هو ما يسميه العلماء باتزان الأجرام السماوية، وأن الأرض موضوع شقها تجد قول الله ﷻ: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعِيقِ﴾ [الطارق: ١٢] وأن الجبال عمقها داخل الأرض وهي عوامل الثبات لهذا الكون ولهذه الأرض التي نسير عليها تجد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبا: ٦، ٧].

وفي البحار: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِ بِرَبِّهَا﴾ [النور: ٤٠].

وفي النبات: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٩].

وفي عالم الحيوان: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وفي عالم الحشرات يكفيك ما جاء في شأن النحل وحياتها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

والطيور: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﷻ﴾ [النحل: ١٧٩].

والآيات في الكون وتكوين الأرض، هذه المسألة التي تعرض لها شيخ الإسلام - رحمه الله - ابن تيمية، والتي أثبت العلماء أن شيخ الإسلام كان من السابقين في بيان الكلام عن الإعجاز العلمي، وهذا الكلام الجميل الذي ذكره الشيخ - رحمه الله - في موضوع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي إجابته على من كانوا يجادلون في أمر الدين: أن القرآن به آيات كونية، وأسهب في الحديث عن مسألة تكوين الأرض، وأن الأرض كروية، ودليل ذلك في كتاب الله ﷻ وذكر الآيات: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٨) ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ (٣٩) ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠) [يس: ٣٧ - ٤٠].

هذا المعنى الجميل الذي تراه في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ ومعروف ما تحمله كلمة فلك من معنى استدارة، والتي يُعرف هذا المعنى منها، أن الأرض كروية كما نص على ذلك العلم الحديث بدلالة القرآن الكريم.

ومن اللطائف قول من تنبه إلى أن قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ يُقرأ من يمينه كما يُقرأ من يساره فإذا رأيت هذا الحركة في تكوين الكلمات تجدها تدور حول بعضها بالحركة الكروية، ولكن هذه اللطائف كما يُقال تُشم ولا تؤكل، فهي لطائف بعض المستبصرين، ولكنها لا يؤخذ منها علم في التأويل ولا التفسير.

هذا ما يتعلق بالإعجاز العلمي، وبقي أن نشير إلى أن الجهود في هذا المجال كثيرة في عصرنا هذا وهناك كثير من المصنفات والمؤلفات التي تحدثت عن الإعجاز العلمي، وكلّ في تخصصه، عندنا (من دلائل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية) للدكتور موسى الخطيب، (دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن)

للدكتور كريم حسنين، (الخلق بين العنكبوتية الداروينية والحقيقة القرآنية) أيضاً
للدكتور كريم حسنين، وغير ذلك من المصنفات التي كُتبت؛ كلُّ يعرف علماً
ينظر في كتاب الله ويتوصل لهذه الحقيقة وهي وجود الإعجاز العلمي في كتاب
الله، فضلاً عما ذكره العلماء السابقون في هذا المجال من مسائل واضحة في
القرآن؛ من خلق الجنين وتكوينه، وكذلك من الكون وما فيه مصداق قول
الله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ﴾

[فصلت: ٥٣].

الإعجاز العددي في القرآن الكريم

العرب أمة لا تعرف الكتابة والحساب، بمعنى: أنها في هذين المجالين ضعيفة في
مجال الحساب والأعداد وفي مجال القراءة والكتابة؛ لأنها أمة أمية، فنجد أن
القرآن تناول في ثناياه ما سُمي بالإعجاز العددي في الحديث عن الأعداد
وحساباتها، ومعلوم أن النبي ﷺ لم يكن يعرف هذه القواعد من قواعد الحساب
التي ذكرها القرآن وتحدث فيها المولى ﷺ.

وهذه المسألة لا نريد أن نطيل فيها الكلام؛ لأنها تُعد أيضاً لطيفة من اللطائف
التي تنبه إليها بعض العلماء في أن القرآن الأرقام فيه هي طبق الأرقام التي
وُجدت في أسفار وفي كتب السابقين، ويُستشهد على ذلك بقصة نوح # في
القرآن في قول الله ﷻ: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ۗ﴾ [العنكبوت: ١٤]،
ففي "سفر التكوين" من (التوراة) أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة، وكذلك في
قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة
شمسية، هذا ما هو موجود في كتب أهل الكتاب، فإذا ما نظرنا في القرآن الكريم

نجد قول الله ﷻ: ﴿ وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۗ ﴾ [الكهف: ٢٥]، وهذه السنون التسع هي الفرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية، قال ذلك الزجاج - رحمه الله - فيعني بتكميل الكسر يعني هذه الفروق تسع سنوات تفصل بين السنوات الشمسية والسنوات القمرية التي يعرفها العرب في حساباتهم، فانظر رحمك الله إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب، فهذا ما يتعلق بالإعجاز العددي، وما عدا ذلك مما ذكر فهي اجتهادات كما تنبه إليها الفيروزآبادي في (لطائف ذوي التمييز) في استخدام الأعداد أربعة وأربعين وسبع وسبعين وهذه الأشياء مما يتعلق بما سموه أو بما أطلق عليه الإعجاز العددي.

مسألة التصوير

هذه مسألة عظيمة تستحق أن نقف عندها، وهي جديرة بأن تكون موضع درس بمفردها، وهي مسألة التصوير في القرآن الكريم، أصل هذه المسألة يتعلق بما تحدث فيه البلاغيون في قضية "الحقيقة والمجاز".

اللفظ في كلام العرب وفي لغة العرب إما أن يُحمل على حقيقته أو أن يُحمل على المجاز، يتعلق هذا الأمر ابتداءً بقضية الحقيقة والمجاز، فاللفظ يُحمل على الحقيقة ويُحمل على المجاز؛ فالمجاز هو خلاف الحقيقة، بمعنى: أننا لو قلنا: رأيت رجلاً فهذه حقيقة، ولو قلنا: رأيت أسداً فهذا مجاز، لأنني لا نريد به الأسد المعروف لدى الناس، ولكنني نريد به أن نصف رجلاً بصفات الأسد من الشجاعة وغيرها، كما يُقال عن الطيارين مثلاً بأنهم نسور الجو، وهذه العبارات التي تُستخدم في كلامنا.

وباب الحقيقة والمجاز باب واسع في كتاب الله ﷻ والكلام فيه تطرق إليه العلماء ما بين مثبت وما بين معارض، ولكن هذه المسألة لا نريد أيضاً أن نخوض في تفاصيل الحديث عن مسألة الحقيقة والمجاز، ولكننا ننتقل منها لمسألة هي من أروع المسائل التي تتعلق بهذا الباب، وهو موضوع "التصوير في القرآن الكريم".

التصوير في القرآن الكريم:

التصوير يأتي من كلمة صورة، أي أن عبارات القرآن ترسم لك - أيها السامع - صورة تراها بعينك، وتسمعها بأذنك، وتشاهدها أمامك كأنها تتحرك وكأنك ترى أحداثها، التصوير بهذا المعنى ذكر أهل العلم المحدثين الذين اهتموا بهذه المسائل أنه لم يكن معروفاً بهذه الصورة عند قدماء الدارسين أو عند البلاغين القدامى في دراستهم لكتاب الله ﷻ وبيان ما في كتاب الله ﷻ إلى أن أتى في العصر الحديث أستاذ سيد قطب، وكتب كتابه (التصوير الفني في القرآن)، في هذا الكتاب أسهب - رحمه الله - في بيان هذه المسألة والاستدلال لها، وذكر شواهدا، وقبل أن نتحدث عن كلام الأستاذ سيد قطب وما طرحه في هذه المسألة نذكر جهود القدامى - رحمهم الله - في بيان هذه مسألة التصوير.

التصوير عند القدماء ينحصر فيما يُسمى بالصورة البيانية، علم البيان فرع من فروع علوم البلاغة الثلاثة فهي تشمل ثلاثة فروع المعاني وتشمل البيان وتشمل البديع.

فعلم البيان الذي يشمل التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية، هذا العلم به يُنسب إليه ما يُطلق عليه التصوير في كتب القدامى، التصوير أي: الصورة البيانية في

القرآن الكريم، التي تظهر جلية في باب الاستعارة، وحتى إن بعضهم يُسمى بهذا التسمية، يقول: التصوير عن طريق الاستعارة، فدراسة الأقدمين لهذه المسألة كانت قاصرة على توضيح نوع الاستعارة، وبيان إجراء استعارة والحديث عما فيها من وجه بلاغي، هذا المعنى هو الذي نجده في كتب السابقين، وفي بيان ما يُسمى بالتصوير أو بالصورة في القرآن الكريم.

وهذا الاقتصار هو السمة الغالبة في مصنفاتهم، حتى إن الدكتور أحمد بدوي مثلاً يقول: "ولم أرَ إلا ما ندر من وقوف بعضهم يتأمل بعض هذه اللمحات الفنية المؤثرة، وليس مثل هذه الدراسة بمجدٍ في تذوق الجمال وإدراك أسرارهِ" يقول: "إنه لم يرَ من المصنفين السابقين إلا النادر أو القليل الذي كان يهتم بإبراز مظاهر التصوير أو الجمال الفني في التصوير في القرآن الكريم؛ لأنه به يظهر أسرار القرآن في جماله في الصور التي تجعل القارئ يحسّ بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتصور المنظر للعين وتنقل الصوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محسناً، وبدأ يذكر بعض الصور التي ذكرها القدامى في هذا المجال؛ فمنها قول الله ﷻ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَهُمْ جَمْعًا ۝١٩﴾ [الكهف: 19]، فكلمة يموج لا تقف عند حد استعارتها لمعنى الاضطراب، بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشاداً لا تدرك العين مداه، حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر، وترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب، ولا تأتي كلمة "يموج" إلا موحية بهذا المعنى ودالة عليه.

هذه صورة من الصور التي ذكرت عند الأقدمين في الاستعارة لكلمة يموج، وما توحى به من ازدياد الحشد وكثرة العدد في هذا المنظر، الذي تراه بعينك، وكذلك عند حديثهم عن قوله ﷻ: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ۝﴾ [مريم: 14]، فإن كلمة

"اشتعل" لا تقف عند معنى انتشر وحسب، ولكنها تحمل معنى ديبب الشيب في الرأس في بطاء وثبات، كما تدب النار في الفحم مبطئة، ولكن في دأب واستمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقي ولا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب، حتى لا يظهر شيئاً إلا التهمه وأتى عليه، ويقول: وفي إسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحي بها الشمول الذي التهم كل شيء في الرأس.

وبداً - رحمه الله - يذكر أمثلة على ما تنبه إليه القدامى في هذه المسألة من باب الاستعارة التي تحمل صورة بيانية لمن يسمعها ولمن ينظر فيها، وأن القرآن قد يجسّم المعنى، ويهب للجماة العقل والحياة زيادة في تصوير المعنى وتمثله للنفس، وذلك بعض ما يعبر عنه البلاغيون بالاستعارة المكنية، وذكر مثالاً لها قول الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فهنا كلمة الغضب تشعرك بأنه إنسان يدفع موسى ويحثه على الانفعال والثورة، ثم يسكت ويكف عن دفع موسى وتحريضه، وهذه صورة بيانية جميلة ذكرها السابقون في مجال الاستعارة.

هذا - كما يُقال - هو حد الدرس في مسألة التصوير عند البلاغيين الذين يهتمون بهذه المسألة، أما النقلة التي حدثت في عصرنا هذا هو ما أحدثه الأستاذ سيد قطب في كتابه (التصوير الفني) فبين المسألة بصورة تستدعي منا أن نقف معها ونرى فكر الرجل في هذه المسألة العظيمة.

بدأ - رحمه الله - أن يبين لنا مسألة هي بمثابة التمهيد لهذه المسألة، وهي أن القرآن قد سحر من آمن به ومن لم يؤمن به، وهذا ظاهر في قول الوليد: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]، فيقول: الوليد بن المغيرة شغله القرآن ونظر فيه

وفي معانيه، فعرف أنه يخرج عن طوق العرب في كلامهم، وكذلك عمر < كان سبب إيمانه هو سماعه آيات من القرآن في رواية أو قراءته آيات من سورة "طه" في رواية أخرى، فكان ذلك دافعاً لإيمانه < وأرضاه وكانت عباراته المشهورة: "فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام"، والعبارة الأخرى عندما قرأ الآيات قال: "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه" فذلك دليل بين، على أن القرآن أثر العرب في بداياته.

مدخل جميل لهذه المسألة؛ نرجو منك أن تتأمله معنا، أن القرآن سحر العرب ببيانه وأسلوبه بداية، فهنا نطرح سؤالاً: إذا قلنا الإعجاز في القرآن من ناحية التشريع، أو الإعجاز في القرآن من ناحية الإخبار بالحقائق الكونية، أو الإعجاز في القرآن من ناحية الحديث عن النبوءات الغيبية الأشياء المستقبلية، هذا الكلام نستطيع أن نقبله من القرآن ككلام عام، كما ذكرنا سابقاً جملةً على الجملة لماذا؟

لأنك لو قرأت في القرآن كله ستجد هذه الآيات، وهذه العلامات البينة على إعجاز القرآن في هذه الوجوه؛ في جانب التشريع وفي جانب الحقائق الكونية وفي جانب النبوءات الغيبية.

أما السؤال الذي يُطرح الآن: أين هذه الأشياء من الوليد بن المغيرة عندما ذكر هذا الكلام بعد سماعه آيات من القرآن، ونزلت قصته في سورة "المدثر" تصوّر حاله عندما سمع، وعندما قال بعد ذلك قوله العظيمة الباهتة الظالمة في القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (٢٤) ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٢٥) [المدثر: ٢٤، ٢٥]، هذه الآيات في سورة "المدثر"، وسورة "المدثر" من أولى السور التي نزلت من القرآن الكريم، واختلف أهل العلم في ترتيب نزولها: هل هي الثالثة أم بعد الثالثة؟ ولكنهم

اتفقوا على أنها من السور الأولى التي نزلت في القرآن الكريم على النبي ﷺ فلا شك أن الرجل حكم هذا الحكم وتأثر هذا التأثير عند سماعه سورة من السور التي نزلت في بداية الوحي قبل التفصيل في مسائل التشريع، وقبل بيان مسائل الحقائق الكونية ومسائل الغيبات، فكانت عبارات وجيزة وآيات قصيرة، أنزلت على النبي - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم - فمن هنا جاء كلامنا عن هذه المسألة، لا شك أن القرآن سحرهم، هذا اللفظ تجاوزاً على اعتبار كلامهم ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُونَ﴾ [المدثر: ٢٤] واسترعى انتباههم لما فيه من عبارات، وبما فيه من ميزة عن كلامهم ليست بالطبع هي الحقائق الكونية أو الحقائق التشريعية أو النبوءات الغيبية. فلا بد لنا أن نبحث عن منبع آخر لجمال النص القرآني.

من هنا بدأ الأستاذ سيد قطب في كلامه عن قضية التصوير الفني، إن هذا التصوير الذي نجده في آيات القرآن جملة وتفصيلاً في قصار السور وفي طوالها وفي الآيات، ربما تقتصر آية على صورة عظيمة من صور التصوير.

وبين ذلك أيضاً في حديثه عن جهود السابقين، فأشار إلى أن الزمخشري كان ينتبه إلى هذه المسألة، ولكنه لم يتحدث فيها تفصيلاً، وإلى أن عبد القاهر - رحمه الله - في (دلائل الإعجاز) نبه أيضاً على هذه المسألة، ولكنه لم يفصلها تفصيلاً واضحاً، فتبنى - رحمه الله - تفصيل هذه القضية في (بيان التصوير الفني في القرآن الكريم)، فقال: "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني وعن الحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة".

فهذا التصوير تصوير باللون وبالحركة ، وتصوير بالتخييل تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل ، وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ، ونغم العبارات وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور تتملاها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان.

هذه إجمال معنى التصوير ؛ نقل صورة أمامك تشاهدها ، وبالمثال يتضح المقال ، بدأ الشيخ يعرض سوراً من القرآن الكريم فيها روعة التصوير الفني الذي يعرفه من ينظر في هذه الآيات الكريمة ، وكما ذكرت آنفاً الآن في عباراته ؛ أنه ذكر أن القرآن عبّر عن المعاني الذهنية في صورة حسية ، وكذلك عبر القرآن عن المعاني المجردة والحالات النفسية بصورة حسية ، وكذلك عرض القرآن نموذجاً إنسانياً واضحاً للإنسان في شخصيته وفي تصرفاته ، وكذلك رسم القرآن مشاهد لحوادث وقعت في عهد النبي ﷺ ورسم القرآن حوادث ضربت كمثل من القصة في القرآن الكريم ؛ كل ذلك كانت عمدته الأساسية في التعبير عنه هي طريقة التصوير.

ونعيش الآن مع نماذج مما ذكره الأستاذ سيد قطب - رحمه الله.

يضرب مثلاً للمعاني الذهنية التي خرجت في صورة حسية لأشياء عديدة ؛ منها هذه الصورة ، القرآن يريد أن يجسّم ضعف هؤلاء الآلهة أو الأولياء الذين اتخذوا من دون الله عامة ، ويبين أنهم لجئوا إلى ملجأ ضعيف واحتموا بشيء لا يستطيع حمايتهم ، فماذا عبر القرآن؟

قال الله ﷻ: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١] ، تأمل هذه السورة الكريمة ؛ يصور الله ﷻ

هؤلاء الذين اتخذوا أولياء من دون الله عَلَيْكَ بمن يتخذ بالعنكبوت الذي يتخذ بيتاً، فهم عنكب ضئيلة واهنة تأوي من حمى هؤلاء الآلهة أو الأولياء إلى بيت كبيت العنكبوت أو هن وأضال، ﴿ **وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ** ﴾ ، ولكنهم لا يعلمون حتى هذه البديهية المنظورة، فهم يضيفون إلى الضعف والوهن جهلاً وغفلة، حتى لا يعجزون عن إدراك البديهي المنظور.

يعني: يريد الشيخ بأن تتأمل هذه الصورة لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله عَلَيْكَ أولياء أو أناساً أو أصناماً أو غير ذلك، فهذه الصورة التي رسمها الله تَعَالَى لهم بهذه الآية الكريمة.

وصورة أخرى لمعنى مجرد، وهذا المعنى هو أن المشرك لا منبت له ولا جذور، ولا بقاء له، ولا استقرار، فهذا المعنى كيف يُصوّر؟ انظر إلى قول الله تَعَالَى: ﴿ **وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ [الحج: ٣١] هكذا في ومضة يخر من السماء من حيث لا يدري أحد، فلا يستقر على الأرض لحظة، إن الطير لتخطفه وإن الريح لتهوي به، وتهوي به في مكان سحيق حيث لا يدري أحد كذلك، وذلك هو المقصود.

انظر - رحمك الله - إلى هذا التصوير لهذا المعنى، وهو معنى عدم استقرار المشرك، وأنه لا بقاء له، وكيف صوّره القرآن الكريم.

هناك معاني أخرى تصور الحالة النفسية والمعنوية، هذا الذي لا يؤمن أو هذا الذي لا ينتفع بالعلم الذي أنزله الله تَعَالَى يهين الله له المعرفة فيفر منها كأنها لم تهبأ له، ويعيش بعد ذلك متردداً بين أهواء نفسه، فلا هو استراح بالغفلة ولا استراح بالعلم والمعرفة، نريد أن نصوّر أو أن نعبر عن هذا المعنى، فماذا يُقال؟ انظر إلى قوله تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ** ﴾

فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكِنِّهُ إِخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَآتَعَ هُونَهُ فَتَثُلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ﴿١٧٦﴾

[الأعراف: ١٧٥ ، ١٧٦].

انظر إلى هذه السورة وما فيها من تحقير وتقدير لهذا الذي ينسلخ ويترك ما رزقه الله من العلم والمعرفة ، وهذه الحركة الدائبة في وضعه ، فهي في تثبيت المعنى المراد أشد وأقوى ، وهذا المنظر الذي تراه من الصورة التي رسمت للكلب : ﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ﴾ ، فهو على كل حال مضطرب فزع خائف ، سواء أمنت أمته أو سواء أرهبت ، في الحالين هو يلهث بهذه الصورة المقززة الحقيرة.

وصورة أخرى لمعنى آخر ، وهو معنى من تتزعزع عقيدته ، يعني إنسان ليس على يقين ، وليس على ثبات من أمر الله ﷻ فهو كما يُقال : إذا الريح مالت مال حيث تميل ، في هذه الصورة يقول الله ﷻ : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١] ، هنا الخيال يجسّم هذا الحرف ، الحرف الجبل ، الذي يعبد الله عليه هذا البعض من الناس ، وإنه ليكاد يتخيل الاضطراب الحسي في وقفتهم ، وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب ، وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح ما يؤديه وصف التزعزع ؛ لأنها تنطبع في الحس وتتصل منه بالنفس ، انظر إلى هذه الصورة وما استطاعت أن توصله إليك من بيان حال هذا الذي يشك والذي لا يثبت على شيء وعقيدته مضطربة مهتزة ؛ يعبد الله على الأحوال التي تصيبه ، فتارة يطمئن وتارة يضطرب ، كحال من يتعبد على جبل مرتفع.

ينتقل بعد ذلك لرسم صور للإنسان بشخصه، وهذه الصورة تكون واضحة لمن ينظر فيها، صورة بسيطة، أنا لا أريد أيضاً أن أسهب في ذكر هذه الصور لأن لنا وقفة مع صور يوم القيامة ومشاهد يوم القيامة في القرآن الكريم، وكيف صورها القرآن لأهل الإيمان.

هذه صورة لإنسان ضعيف العقيدة، ضعيف العزيمة، مستور الحال، لا يتبين ضعفه في فترة الرخاء، فإذا جدّ الأمر وجاءت الشدة ظهر هذا الضعف على أتمه، هذه الصورة يصورها القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۗ ﴾ [محمد: ٢٠].

انظر لهذه الصورة التي يعرفها كل منا من حال من يُغشى عليه من الموت وما يُرى على وجهه من شحابة ومن خوف وفزع واضطراب يصيبه، هذا حالهم عندما ينزل أمر الله ﷻ بالجهاد والقتال؛ ﴿ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۗ ﴾، صورة تبرز في الضمير مصحوبة بالسخرية والتحقير، وهذه صورة من الصور العظيمة التي صورها القرآن لحادثٍ حدث في عهد النبي ﷺ.

ويكفي أهل الإيمان أن ينظروا في الآيات ليتبينوا هذا المنظر وكأنهم يرونه رأي العين، وكيف استطاع القرآن أن يصف هذا المنظر بهذه الصورة الفنية الرائعة، وهي حادثة الأحزاب، وما كان في أمر هذه الغزوة؛ يتحدث المولى ﷺ عن الهزيمة فيرسم مشهداً كاملاً تبرز فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة، وتلتقي فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية، وكأنما الحادث معروض من جديد دون أن يُغفل منه قليل أو كثير: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝١ ﴾

إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
 الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾
 وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ
 قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ
 إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ [الأحزاب: ٩ - ١٣].

سبحان الله!! انظر لهذه الحركة النفسية والحسية من حركات الهزيمة، وكيف
 أبرزها القرآن الكريم في رسم صورة أهل الإيمان عندما اشتد بهم الكرب وأحاط
 بهم أهل الكفر وما كان من شأنهم بهذا الوصف الرائع الذي وصفه المولى ﷺ:
 ﴿ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴾ ، وهذا
 الابتلاء الشديد الذي تعرضوا له وما كان من شأن المنافقين الذين قالوا عند هذا
 الوضع: ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ﴿١٢﴾ ، وما كان من شأنهم مع أهل
 المدينة عندما قالوا لهم لا بقاء لكم هنا ارجعوا إلى بيوتكم فهي في خطر، وهؤلاء
 هم جماعة من ضعاف القلوب يقولون: إن بيوتنا مكشوفة وليست في حقيقتها
 مكشوفة، ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ﴿١٣﴾ .

فصور الله ﷻ أحوال جميع الطوائف التي كانت مع النبي ﷺ: أهل الإيمان
 الذين زلزلوا زلزلاً شديداً وأهل النفاق الذين كذبوا وعد الله ﷻ وأضعفوا
 إخوانهم، وأهل الإيمان الضعيف الذين أرادوا أن يفروا ويتحججون بأن بيوتهم
 مكشوفة، وهكذا لا تفلت في الموقف حركة ولا سمة إلا وهي مسجلة ظاهرة
 كأنها شاخصة حاضرة، هذا من روائع تصوير القرآن الكريم لحادث وقع،
 كذلك الناظر في قصص القرآن.

ثم تعرض الشيخ لذكر بعض الأمثال القصصية التي وقعت في القرآن الكريم؛ من ذكر أصحاب الجنة في سورة "ن" ومن ذكر صاحب الجنتين في سورة "الكهف"، ومر بعد ذلك بمشاهد من قصص حقيقية، هذه القصص السابقة ضربت على سبيل المثال على اختلاف بين أهل التفسير أو أنها قصص واقعة، وكذلك قصة نوح # مع ابنه بعد الطوفان: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢) قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

فانظر إلى هذه الصورة، وكيف رُسمت بما هو صراع بين عاطفة الأبوة وحقيقة النبوة مع نوح # وكيف كان الابن على هذا العناد وهذا الإصرار على عدم طاعة أبيه، وكيف صور القرآن هذا الموقف العظيم بهذه الكلمات الجليلة!

وكذلك صور القرآن مظاهر الطبيعة في آيات كثيرة، ومن أعظم ما يستدعي أهل الإيمان أن ينظروا إليه هي مشاهد القيامة في القرآن الكريم، ولك أن تتأمل بعض المشاهد كمنظر هؤلاء الذين يخرجون من القبور للحساب، وما حالهم من الإسراع والخشوع وما يصيبهم في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣]، وانظر إلى منظر الناس عندما رسمه الله ﷻ عند قيام الساعة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢].

وتأمل في هذه الصورة العظيمة في آخر سورة "الزمر" ، من وصف سوق أهل الجنة إلى الجنة وأهل الجحيم إلى الجحيم - عياداً بالله - وما كان من أمرهم وكيف صورّه الله ﷻ بهذا الكلام الجميل الذي يتأمله من يؤمن بكلام ربه: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

وعلى النقيض صورة أهل الجنة: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤]، ويكمل المشهد بمنظر الملائكة: ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيًا مِن حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ [الزمر: ٧٥].

هذه صورة جميلة وغيرها، كثير في كتاب الله ﷻ ولكن ذلك يستدعي منك أن تتدبر وأن تتأمل، وأن تنظر في هذه الوجوه من روائع التصوير في القرآن الكريم التي هي سر من أسرار الإعجاز في كتاب الله.

الحروف وأصواتها ودورها في بيان إعجاز القرآن

عناصر الدرس

- العنصر الأول : مقدمة عن الحروف والأصوات كمظهر من مظاهر إعجاز القرآن ٩٣
- العنصر الثاني : مظهر الإعجاز في الحروف وأصواتها ٩٥

مقدمة عن الحروف والأصوات كمظهر من مظاهر إعجاز القرآن

نبدأ في التعمق لسبر غور كتاب ربنا الكريم والتوصل إلى ما فيه من أسرار بلاغية لغوية تشهد بأنه كتابٌ معجزٌ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وتناول مباحث البلاغة في القرآن الكريم أو مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم تفرعت إلى صور شتى، وعادةً ما يُبتدأ فيها بذكر ما يتركب منه كتاب الله ﷻ أي ذكر المفردات التي يتكون منها النص القرآني.

المفردات :

المفردات - كما نعلم جميعاً - هي أجزاء الكلام التي يتألف منها كلام العرب، وأجزاء الكلام كما تعلمون اسم وفعل وحرف، ويبدأ البلاغيون أو من اهتموا بإبراز مسائل الإعجاز بالكلام عن الوحدة الأولى التي يتركب منها بنیان النص القرآني ألا وهي الحروف، أو الأصوات اللغوية، فهذا المظهر من مظاهر تكوين النص القرآني كما يسميه بعض أهل العلم القشرة السطحية للقرآن الكريم، أو ما نقول بمعنى آخر كما يسمي أهل الأدب: أن كل نص ينقسم إلى شكل ومضمون، الشكل هو الإطار الخارجي الذي يُعرض فيه المضمون الذي هو المعاني التي يُراد إبرازها من خلال هذا النص، أو من خلال الشكل أو الإطار الخارجي.

فحديثنا إن شاء الله ﷻ حول الحروف وأصواتها اللغوية، هذا عنوان عام يشتمل على جزئيات سنذكرها تباعاً إن شاء الله، أنت تعلم أن الحروف في اللغة العربية

تنقسم إلى صوامت وحركات، والصوامت هي الحروف التي نطقها أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، هذه الحروف تُسمى الصوامت.

أما الحركات فهي الحركة التي توضع على هذا الحرف الصامت وهي الفتحة بَ، والكسرة بِ، والضممة بُ ... إلى آخره هي الحركات الثلاث.

بعد ذلك تعرف أيضاً من خلال دراستك في علم التجويد وتفصيله، أن الحروف لها مخارج ولها صفات، فمخارج الحروف خمسة: الجوف والحلق واللسان والشفتان والخيشوم، وصفات الحروف إما صفات لازمة أو صفات عارضة؛ صفات لازمة أي تلزم الحرف ولا يفارقها، مثل الجهر والهمس والشدّة والرخاوة والاستعلاء والإطباق والاستفال والانفتاح والإصمات والتنفسي والاستطالة ... إلى آخره، وصفات عارضة أي تطرق على الكلمة أو على الحرف تطرق على الحرف في حال معينة، كحال تسكينه أو حال الحتام به أو غير ذلك، وهي صفات مثل الترقيق والتفخيم والإدغام والإخفاء والإقلاب والإظهار والمد والغنة ... إلى آخره.

هذا كله معلوم، أما الذي نريد أن نشير إليه في درسنا هو أن تعلم أن هذه المخارج وهذه الصفات إنما أخذ أكثرها من ألفاظ القرآن الكريم، لا من كلام العرب وفصاحتهم، فهنا موضع القول؛ فإن طريقة النظم التي اتسقت بها ألفاظ القرآن وتألّفت لها حروف هذه الألفاظ إنما هي طريقة يتوخى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللهجة - لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، ولكنها ظهرت فيه أول شيء على لسان النبي ﷺ مما جعل المسامع لا تنبو عن شيء من القرآن ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن يسمعه بد من الاسترسال إليه والتوفر على الإصغاء، لا يستمهله أمر من دونه وإن كان أمر

العادة، ولا يستنسه الشيطان وإن كانت طاعته عندهم عبادة، فإنه يسمع ضرباً خالصاً من الموسيقى اللغوية في انسجامه واضطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعاً مقطعاً ونبرةً نبرةً، كأنها توقّعه توقّعاً ولا تتلوه تلاوة.

هذه المقدمة الجميلة ذكرها الرافعي - رحمه الله - في بداية كلامه عن الحروف والأصوات، كمظهر من مظاهر الإعجاز الكريم.

مظهر الإعجاز في الحروف وأصواتها

يتركز حديثنا عن مظهر الإعجاز في الحروف وأصواتها في نقاط ابتداءً قبل التفصيل الذي سنذكره:

أولاً: هناك فرق بين استخدام القرآن للحروف وأصواتها واستخدام العرب، كيف؟

العرب في كلامهم كانوا يترسلون أو يحلمون؛ بمعنى أنه يقرأ على تمهل أو يقرأ على سرعة أي يتسرع في القراءة كيفما اتفق له، لا يراعون أكثر من تكييف الصوت دون تكييف الحروف التي هي مادة الصوت، هذه طريقة العرب وغاية ما كانوا يستخدمونه في كلامهم، يقرءوا ببطء أو يقرأ بسرعة إلا أنه لا يهتم اهتماماً بالغاً بأن يكيف الحروف تبعاً لمادة الصوت، وإنما اهتمامه هو تكييف الصوت أي يقرأ أو يتحدث بصوت يشعر من أمامه بما يريد أن يتحدث به، فإذا أراد أن يتحدث مثلاً عن الحماسة أو الفخر تحدث بنبرة معينة، وإذا أراد أن يتحدث عن الغزل أو غيره تحدث بنبرة معينة، فيغير نبرات صوته وطرق أدائها حسب الأغراض التي يريدتها.

أما القرآن الكريم فجاء بصورة لم يعهدها العرب في كلامهم، لما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة، رأوا ألحاناً لغوية رائعة، كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعه، فلم يفهم هذا المعنى، ولذا كانت الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها.

نريد أن نستدل على هذه المسألة: أن القرآن جاءهم بقراءة وبطريقة لأداء الحروف ونطقها تختلف عما كانوا يعرفونه.

هناك أدلة ذكر منها:

الدليل الأول: أنك إذا أنشأت ترتل قطعة من نثر الفصحاء أو غيرهم على طريقة تلاوة القرآن الكريم، وتراعي فيها أحكام القراءة وطرق الأداء - فإنك لا بد ظاهر بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن، جرّب أن تقرأ نصاً من النصوص غير النص القرآني بطريقة تلاوة القرآن تجد بوناً شاسعاً أو تجد أن هذه الطريقة المميزة بهذا الأداء، وهذه الأحكام كأنها فصلت تفصيلاً على كتاب الله وَجَلَّ، ولا تستطيع أن تقرأ بها غيرها من النصوص، لما في هذا النص القرآني مما يُسمى بجمال التوقيع، وسنقرأ نصاً إن شاء الله يبين معنى هذه العبارة الجميلة التي ذكرها الدكتور "دراز" - رحمه الله.

فنقول: حسبك في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن وأنه مما لا يتعلق به أحد ولا يُتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه - في القرآن - لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق والتفشي والتكرير، وغير

ذلك من صفات الحروف ، فلا يخفى عليك أن مادة الصوت في القرآن هي مظهر الانفعال النفسي ، وأن هذا الانفعال بطبيعته هو سبب في تنوع الصوت ، بما يخرج فيه مدًا أو غنةً أو لينًا أو شدة ، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها ، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع أو الإطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها.

كأنه حادي يحدو بنفس من يقرأه ، كما يحدو صاحب الإبل لها ليستثيرها وليحركها وليجدها في السير ، هذه الصفة تبدو واضحة لمن أراد أن يقرأ كتاب الله ﷻ.

هذا يؤدي إلى ما نسميه بالتأثير النفسي للقرآن الكريم وغلبته على الطبع العربي وغيره ، كيف وغيره؟ نعم غلبة القرآن بطريقته وبطريقة أدائه على النفس العربية وغير العربية ، بل على النفس المؤمنة والجاحدة ، تتأثر بهذا الكلام الكريم الجميل الذي هو كلام رب العالمين ، فتتأثر له ، وكم سمعنا عمن أسلم من الغرب لسماعه آيات من القرآن الكريم ، وهو أعجمي ، لا يعرف العربية ولا يعرف الإسلام ، وإنما هزه ذلك التوقيع الجميل وهذا الصوت الذي يسمعه وهذا الذي يكون ممن يجيد تلاوة القرآن الكريم ، ولا سيما إن كان حسن الصوت ، هذا ما يُسمى بطريقة الاستهواء الصوتي ، أي هذا يستهوي من يسمع كلام الله ﷻ إلى الاسترسال وإلى سماع كلام الله ﷻ.

الدليل الثاني: أن توازن بين القرآن وبين أي نص آخر ، بمعنى : أن القرآن لا يخلق أي لا يبلى ، ولا يُسأم منه ، ولا ينتهي وقته ، كما يُقال على كثرة الرد وطول التكرار ، ولا تمل منه الإعادة ، وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح فلم تخل

بأدائه رأيته غرضاً طرياً وجديداً ، ورأيته وصادفت من نفسك له نشاطاً مستأنفاً وحساً موفوراً ، هذا القرآن بما فيه من ترسيل واتساق وتطويل مع أنه لا يُضبط بحركات وسكنات كأوزان الشعر فتجعل له بطبيعتها صفة من النظم الموسيقي ، ولا يخرج على مقاطع الكلمات التي تجري فيها الألحان ودروب النغم ، مما يسهل تأليفه ويكون أمره إلى الصوت هو طريقة تصريفه وتوقيعه ، إنما هو نابع من أصواته وحروفه ، أما أي نص آخر عندما تقرأه مرة ومرة ومرة ويُعاد عليك ، وإن تنوعت طرق أدائه وطرق قراءته - إلا أنك تشعر منه بالملل والسأم ، وتشعر بعدم الرغبة في مواصلة السماع ، عدا القرآن الكريم يختلف عن هذا ، وعن أي نص في هذه الصفة ؛ أنك لا تسأم من ترداده وكثرة تكراره.

هذا الذي ذكرناه لك هو في مجمله الكلام عن الحروف وأصواتها وتأثيرها كوجه من وجوه الإعجاز ، فإذا ما أردنا أن نفصل في هذه المسألة وأن نذكر فيها أدلة ذكرها البلاغيون ومن تعمقوا في هذه المسألة وحاولوا أن يتلمسوا من كتاب الله ﷻ أثر الإعجاز في بنيته الخارجية أو في شكله أو في الإطار الذي وضع فيه - هذا ما نجده في نقاط سنذكرها تبعاً بإذن الله ﷻ وهي التلاؤم وصلته بمخارج الحروف ، وشكل الحرف ، وأثر الحرف المعنوي على النفس والحروف المتماثلة ، وحركات الحروف ، والنسق الصوتي.

أولاً: الصلة بين التلاؤم والمخارج:

نطرح هذا السؤال : هل هناك صلة بين تلاؤم الحروف وبين مخارجها؟ هذا السؤال شغل من اهتم بهذه المسألة ، فنرى أولاً الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) يعرض كلام الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي عدّ التناسق بين الحروف

والتلازم بين الحروف أساسه البعد عن القرب الشديد من المخارج أو البعد الشديد في المخارج، بمعنى أن الخليل - رحمه الله - ربط بين المخارج وبين التلازم، ربط بينها بهذه العبارة الجميلة، يقول الباقلاني: "ذهب الخليل إلى أنه من بعد شديد أو قرب شديد، فإذا بُعد فهو كالطفر أي كأنه يثب مرتفعاً، يثب يثب وهو يتحرك، وإذا قرب جداً كان بمنزلة مشي المقيد المكتوف الذي لا يستطيع أن يتحرك، ويبين بقرب المخارج وتباعدها؛ أي أن التنافر في الحروف يبين بالقرب والبعد، ولعلك مر عليك تباعاً هذا البيت المشهور الذي ذكره مثلاً لتنافر الحروف لقرب مخرجها:

وقبر حرب بمكان قفر ❖ وليس قرب قبر حرب قبر

هذا البيت الذي موجود في كتب البلاغة يُذكر مثلاً للتنافر بين الحروف بسبب هذه المخارج، نجد عكس التنافر هو التلازم، التلازم الذي هو مجسد في القرآن الكريم، بمعنى العلماء يقولون: "القرآن كله في الطبقة العليا للتلازم، ولكن الفرق أن بعض الناس أحسن إحساساً له من بعض، وذلك كما أن في الشعر هناك من يفتن للموزون بخلاف بعض" أي: هناك من يشعر بقيمة الشعر لإدراكه الوزن، فعندما يمر به بيت من الشعر به كسر أو به خلل يظهر عليه وترى تغير وجهه؛ لأنه أحس أن هناك خللاً في هذا البيت وأن هناك كسراً قد اعتراه، كذلك في القرآن يتفاوت الإحساس بمدى هذا التلازم وبروعته بمدى إحساسك باللغة وفهمك لها، فالتلازم كما قيل هو حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ ووقع المعنى في القلب، هذا التلازم مجسد في كتاب الله وفي آياته كما سنذكر الآن من أمثلة.

هذا رأي، ورأي ذهب إلى أن التلاؤم ناتج من البعد عن خروج الأحرف من مخارج قريبة أو مخارج بعيدة، فجاء الكلام على صورة من التلاؤم البديع ليست موجود في أي نص ولا يستطيع أي فصيح - مهما بلغت فصاحته - أن يلتزم هذا التلاؤم في جميع كلامه، بدليل أنهم أخذوا ملاحظات على كبار الشعراء في الجاهلية وفي صدر الإسلام، وكبار اللغويين والنحاة وغيرهم ممن هم أهل اللغة وأرباب الفصاحة والمستشهد بكلامهم، أخذوا عليهم أمثلة عديدة في عدم التلاؤم وفي وجود التنافر في كلامهم؛ لذلك يدعوك من تأمل هذه المسألة إلى أن تتأمل صور التلاؤم في كتاب الله ﷻ والأمثلة التي تُذكر لذلك.

هذا التلاؤم يراه البلاغيون الذين تعمقوا في الدراسة ليس فقط بسبب المخارج، وبسبب القرب أو البعد، وإنما هو يعتمد في المقام الأول على الذوق، يعتمد في المقام الأول على تقبل من يسمع الكلام بأن ذوقه اللغوي ذوق عربي سليم، فما عده الذوق ثقيلًا فهو متنافر، وإلا فلا تنافر فيه.

هذا الرأي الآخر في مسألة التنافر؛ أنه لا يرتبط بالمخارج قدر ما يرتبط بالذوق، ويبدأ أهل العلم يستدلون بآيات من القرآن وكلمات من القرآن تدل على التلاؤم في ألفاظه الكريمة.

مثال يُستشهد به هو استخدام الأفراد والجموع، أنت حين تنظر في كتابه الله ﷻ تجد جموعًا لا مفرد لها، وتجد مفردات لا جمع لها، ليس في الوضع اللغوي وإنما في النص القرآني، بمعنى أنك تجد مثلًا كلمة الأبواب فإن سألتك عن مفرد لها قلت لب، فإن سألتك عن وجوده في كتاب الله قلت: ليس هناك آية في كتاب الله بها لفظ لب، وإنما لم يُستخدم في القرآن إلا لفظ الأبواب، فاستُخدم الجمع ولم يُستخدم المفرد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١١].

[الزمر: ٢١] وغير ذلك من الآيات العديدة.

أما كلمة "اللب" لم ترد وإنما ورد مرادفها، مرادف اللب وهو القلب، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [آق: ٣٧]، ولم يقل لمن كان له لب، فلم تُستخدم المفردة مع أن نظيرها استخدم في كتاب الله، **كيف النظير؟**

النظير في الوزن والنطق، فكلمة لب توازي كلمة جب ﴿وَالْقُوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] فلما ذُكر الجب، ولم يُذكر اللب مع أنهما متوازيان ومتساويان في الوزن إلا أنهما يختلفان في المخارج، ويختلفان في العلاقة بين الحرفين، ففرق بين اللام والباء بما فيها من ثقل، وبين الجيم والباء وبما فيها من صلة، كذلك أيضاً في قضية الإفراد والجمع، تجد كلمة أرجاء استخدمت ولم يستخدم الرجا المفرد لها، تجد كلمة أكواب استخدمت: ﴿يَا كُؤَابِ وَأَبَارِيْقَ وَكُنَّسِ مِّن مَّعِينِ﴾ [الواقعة: ١٨] أما كلمة كوب لم تجدها استخدمت في كتاب الله، كذلك كلمة الأصواف: ﴿وَمِنَ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى حِينِ﴾ [النحل: ٨٠] استخدمت أما كلمة صوف المفرد فلم تستخدم، وعندما أُريدت استخدم مرادفها، وهو العهن، في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وعندما تُسأل عن تفسير العهن يُقال لك هو الصوف، ولكنه لم يستخدم، واستخدم مرادفه مكانه.

كذلك كلمة الأخبار، ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ [التوبة: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ [التوبة: ٣١] كلمة الأخبار استخدمت، أما حبر وهي مفرد أخبار لم تستخدم في القرآن الكريم، ذلك دليل عملي على استخدام الكلمات الجموع دون مفرداتها لما في الجموع من أثر صوتي يلمحه من له تذوق في اللغة ولما في المفردات من تنافر أو ثقل يتأمله أيضاً من

يستطيع أن يتذوق كلام العرب ، وعكس ذلك استخدام المفرد دون الجمع ككلمة الأرض ، الأرض لم ترد مجموعة في القرآن ، حتى إن المتأمل يجد أن الموضع الذي كان يقتضي أن يُذكر فيه جمع الأرض بمعنى أن الآيات جميعها إذا نظرت فيها : ﴿ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤] ، ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٠٧] "السموات" بصيغة الجمع و"الأرض" بصيغة الإفراد ، فهل هي أرض واحدة؟ لا هي أراضي وهي مجموعة ، وهي سبع كما أن السماوات سبع ، فعندما جاء القرآن في موضع يستدعي المقابلة بين العدد وغيره بالنص عليه جاء قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢] .

انظر إلى جمال القرآن الكريم ، لم يقل الله الذي خلق سبع سماوات وسبع أراضي مثلهن ، وإنما : ومن الأرض مثلهن ، كان ذلك من الإبداع في اختيار اللفظة التي تلائم السياق القرآني والنص القرآني .

كذلك عندنا كلمة في القرآن الكريم حار أهل البلاغة في تصويرها ، وبما فيها من جمال ، كلمة لم تُذكر فاحتاروا فيما ذكر مكانها ، وهذا موقف من مواقف فرعون مع هامان : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَمُنُّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا ﴾ [القصص: ٣٨] ، ماذا يريد فرعون من هامان؟ يريد منه أن يبني له صرحًا من الطوب المحرق الذي يدخل المحرقة ، ويُصنع بطريقة سريعة لا تستدعي أن يأتي بالصخر وغيره ليشيد بناءً ، فهو يريد أن يستعجل البناء ، وأن يكون عاليًا ، يصل إلى عنان السماء لعله يطلع إلى إله موسى كما ذكر في موضع آخر ، فانظر إلى التعبير القرآني لم يذكر الآجر ، أو القرمذ المرادف ؛ لما فيه من تنافر ، ولما فيه من ثقل في النطق وغيرها .

فاستخدم لفظ هو يُعد من مبتكرات القرآن، أوقد لي يا هامان على الطين، هذا الاستخدام وهذه الصورة البديعة التي كما قلت حار البلاغيون في روعتها وفي خفتها وفي وقعها في سياق الآيات وفي جمالها، عندما تسمعها من القارئ، وهو يقلقل الدال وينطق اللام برقة، اللام مرققة لكسرها، فأوقد لي يا هامان، هذا الإحساس الذي تشعر به وأن تستمع للآية، ويجذبك ويجعلك بقلبك منصتاً لكلام الله ﷻ هذا لا يتأتى مع كلمة الأجر أو مرادفها من الكلمات ناهيك عما يدل على غباء فرعون بهذا الطلب، فكأنه يطلب منه أن يبني له إلى ما لا نهاية، فإن الطين الذي يوقد عليه لا يُفرغ من البناء فيه في وقت، وإنما أراد العجلة فكان الطول في إحداث هذا الأمر الذي يريد، ذلك كله ضرب من ضروب التلاؤم في حروف القرآن الكريم وصلتها بالمخارج كما بينا.

ثانياً: مسألة شكل الحرف:

الحرف الذي ننطقه في الألفاظ القرآنية تجد بينه وبين شبيهه علاقة، هذه العلاقة ما يُسمى بالتجانس، هناك فرق بين الجناس والتجانس، الجناس كما تعلم جناس تام وجناس ناقص وتوافق الحروف مع اختلاف المعنى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم: ٥٥]، فالساعة الأولى مراد بها القيامة، والساعة الثانية المراد بها وقت الساعة المعروفة في نهار اليوم التي يعرفها البشر، فهذا ما يسمى بالجناس التام: توافق الحروف في الشكل مع اختلافها في المعنى.

وهناك جناس يُسمى جناس ناقص: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٦] توافق الحروف مع اختلاف حرف من حروفها، ينهون وينأون، الهاء والهمزة مع

اتحاد المخارج للهاء والهمزة، فهي من حروف الحلق كما تعلم، هذا نوع أيضاً من الجناس، الأعمق من لفظ الجناس ما هو معروف في علم البديع؛ لأن هذا الجناس موجود في كلام الشعراء موجود في كلام الأدباء والخطباء.

الظاهر الذي يجذبك، والذي يشعرك بأهمية استخدام الحرف في القرآن ما يُسمى بالتجانس، الذي يتلخص في صورتين أو في ضربين ما يُسمى بالمزاوجة، وما يسمى بالمناسبة بين الحروف التي تستخدم، هذا يكون في الكلام الذي يجمعه أصل واحد، يعني يجمعه مادة لغوية واحدة يتكون منها، تجد اللفظ هو اللفظ، ولا نستطيع أن نقول: إنه ضرب من ضروب الجناس، وإنما هو ضرب من ضروب المزاوجة في اللفظ، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

"اعتدى"، "اعتدوا"، "بمثل ما اعتدى"؛ تلحظ تكرار كلمة "اعتدى" ومقابلتها بكلمة فاعتدوا عليه فلك أن تتساءل: هل أخذ الحق اعتداء؟ هل عندما تقابل الاعتداء بالاعتداء فأنت بذلك تكون معتدياً على من اعتدى عليك؟ هذا يسأله من ينظر في الكلام فيقال له: لا، وإنما هو جاء على سبيل المزاوجة، والمزاوجة هي من الجزاء بمعنى أنه استعير لفظ الاعتداء للثاني لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزاوجة الكلام بحسن البيان، فالله ﷻ جازاهم بما يستحقون؛ لأنهم اعتدوا فيجازون بالاعتداء، وإنما استعير للفظ الثاني وكان حقيقة في الأول يعني في المعنى الأول اعتدى فهو معتدي على الحقيقة، وأنت في الثانية ليس معتدياً، وإنما استعير اللفظ لما يسمى المساواة في المقدار وليبين أن ذلك جزاء لما أحدث.

كذلك في قول الله ﷻ: ﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرًا لِّلَّهِ ﴾ [آل عمران: ٥٤] فالله ﷻ جازاهم على مكرهم، فاستعير للجزاء على المكر اسم المكر؛ لتحقيق الدلالة، بني الدلالة والدلالة، والدلالة كلها فصيحة، تسمع الكلمة بالكسر أو بالفتح، لتحقيق الدلالة على أن وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم، هذا التجانس.

والمناسبة أيضاً تأتي في المعاني التي من أصل واحد كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا ﴾ [التوبة: ١٢٧] فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير، والأصل فيه واحد، وهو الذهاب عن الشيء؛ يعني أصل الصرف هو الذهاب عن الشيء فلذلك جونس بينهما، فهم عندما ذهبوا عن الذكر فقد ذهبت قلوبهم عن الخير، فكلاهما ذهب، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا ﴾ [النور: ٣٧] فجونس بالقلوب القلب، والأصل واحد، فالقلوب تتقلب بالخواطر والأبصار تتقلب في المناظر وأصلهما التصرف، هذا ما يتعلق بمسألة الشكل وأثره في الحروف، وأثره في ألفاظ القرآن الكريم.

ثالثاً: الأثر المعنوي للحروف ومخارجها:

لكي تتبين تلك النقطة لا بد أن تعرض لشيء في غاية الأهمية، وهو أن توازن بين ألفاظ القرآن وبين غيرها.

نرجع إلى المرد الأول وسر الإعجاز: أن القرآن لا تستطيع أن تضع فيه كلمة مكان كلمة، أو حرفاً مكان حرف، أو جملة مكان جملة، وكما قالوا لو أدت اللغة جميعها أي لو بحثت في لغة العرب جميعاً لا تجد كلمة تصلح أن توضع

مكان كلمة في كتاب الله ﷻ لذلك يذكر أهل البلاغة هذه القصة المشهورة بين
الخنساء وحسان {.

يقول حسان بن ثابت < :

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحي ❖ وأسيفنا يقطن من نجدة دما
ولنا بني العنقاء وابن محرق ❖ فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابناً
قال حسان هذين البيتين وكانت الخنساء > تكلمه في هذين البيتين، هذا الأمر
بالطبع قبل الإسلام يعني هذه مرحلة في سوق عكاظ عندما كان يجتمع الشعراء
ويتعرضون لما يُسمى مجالس النقد الأدبي، فالخنساء > تقول لحسان < :
ضعفت افتخارك وأبرزته في ثمانية مواضع أي: أنها لاحظت في هذين البيتين
ثمانية مواضع كانت سبباً في إضعاف الافتخار الذي أرادته حسان < ، هو يريد
أن يفتخر، فقال هذين البيتين، فهي تقول له: أنت أضعفت هذا الافتخار بسبب
استخدامك هذه الكلمات، وبدأت تعد له هذه الكلمات التي قالها.

فقلت: قلت لنا الجففات، والجففات ما دون العشر فقللت العدد، ولو قلت
الجفان لكان أكثر، وقلت الغر، والغرة البياض في الجبهة، ولو قلت: البيض
لكان أكثر اتساعاً، وقلت: يلمعن واللمع شيء يأتي بعد الشيء، ولو قلت
يشرقن لكان أكثر؛ لأن الإشراق أدوم من اللمعان، وقلت: بالضحي ولو
قلت: بالعشي لكن أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً، وقلت:
أسيفنا والأسيف دون العشر ولو قلت سيوفنا كان أكثر، وقلت: يقطن فدلت
على قلة القتل، ولو قلت: "يجرين" لكان أكثر لانصباب الدم، وقلت دمًا
والدماء أكثر من الدم، وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدوك، فعدت
له > ثمانية مواضع في بيتين من الشعر، ومن حسان كما تعلمون شاعر فحل

من شعراء العرب في الجاهلية، وأدرك الإسلام وكان من الشعراء المخضرمين، وهو شاعر الرسول ﷺ.

من هذا المدخل تعرف قيمة التأثير المعنوي لألفاظ القرآن؛ بأنه لا يستطيع أحد أن يضع لفظاً مكان لفظ؛ لأن هذا السياق وهذا الإبداع في استخدام الحروف وتكوين الكلمات - هذا واضح جلي في كتاب الله ﷻ بأنه ليس في قدرة أحد أن يشكك في هذا الكلام، فإن البلغاء مهما بلغوا يعترض عليهم، ونجد من يستطيع أن يحذف كلمة ويضع غيرها، أما القرآن بتأثيره فلا يستطيع أحد أن يلحظ ملاحظة أو أن يدعي أن هناك كلمة تؤدي المعنى في جمال هذه الكلمات التي ذكرها المولى ﷻ.

فهذه الدقة في اختيار الألفاظ التي لا يُستطاع أن تبدل أو تغير - هذه الدقة تحدث أثراً نفسياً عظيماً على من يتلقاها وتؤثر في حسه؛ لأنه لا يستفرغ جهداً في التفكير فيها أو البحث عن بديل أو عن معنى آخر يريده، وإنما هو جهده في الإصغاء والتروح بهذا الضرب الجميل من الألفاظ، فصارت ألفاظ القرآن وطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة، فإن أحداً من البلغاء لا تتمتع عليه مع فصاحته التي أرادها وهي بعد في الدواوين والكتب، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه، وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها إلا أنها في القرآن تظهر في تركيب متميز، وبهذا ترتفع إلى أسمى أنواع الدلالة اللغوية والبيانية، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم، وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة تجعلك تفكر فيها بعدما انشغلت أحاسيسك بها.

رابعاً: الحروف المتماثلة:

الحروف المتماثلة أي: المتشابهة مع بعضها البعض، ويُقصد بها عند الكلام على استخدام الفاصلة في القرآن الكريم، وختم الآيات في كتاب الله ﷻ هذا التماثل

الذي يأتي مع الحروف الفواصل بوجه خاص ، وسياق الآيات بوجه عام ، تجد مثلاً ما يُقال في علماء البلاغة عندما يلحظون أن الحرف إذا تكرر يعطي ثقلاً في الكلام ، أما في القرآن تجد مثلاً حرف الميم تكرر متتالياً ولم يعطِ ثقلاً ، وإنما أعطى جمالاً وروعة : ﴿ وَعَلَىٰ أُمُورٍ مَّمَّنَ مَعْلَكَ ﴾ [هود: ٤٨] ، لو نظقت هذه الآية الكريمة في سورة "هود" ﴿ وَعَلَىٰ أُمُورٍ مَّمَّنَ مَعْلَكَ ﴾ تجد نفسك تحرك حرف الميم ما بين أصلي ، وما بين ناتج عن الإدغام وما بين ناتج عن الغنة ، هذا حرف الميم يتكرر متتالي ويعطي جرساً موسيقياً عالياً تستمتع به وأنت تقرأ الحرف مع أنه حرف واحد متماثل ، أما في الفواصل كان هذا الاهتمام في هذا المجال بها ، الاهتمام بالفاصلة أو رءوس الآي ، وهي الكلمة الأخيرة في الآية ، فإن لفظ الفواصل قد يُتسامح في إطلاقه على جمل في درج الآية ، كما قالوا في قوله تعالى : ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ [الكهف: ٦٤].

فعندما برروا حذف الياء قيل لأجل الفاصلة ، يعني الأصل أن الفعل مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة المقدرة معتل الآخر ، فليس مجزوماً كي تُحذف الياء التي هي حرف العلة المنتهي به الفعل ، وإنما حُذفت في هذه الآية مع أن الفعل مرفوع وأثبتت في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ [يوسف: ٦٥] والفعل مرفوع فعندما عللوا سبب الحذف في آية "الكهف" قالوا: لأجل الفاصلة كذلك في قوله تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ [القمر: ٨] هي إلى الداعي ، فحُذفت الياء اللفظ من الاسم المنقوص مع وجود الألف واللام مع أن القاعدة إثبات الياء في مثل هذا الوضع ، قيل أيضاً: لأجل الفاصلة ، وهذا كلام سيبويه - رحمه الله - فأطلق لفظ الفاصلة على درج الآية ، أي جملة من جمل الآية في وسطها ، ذلك حدث أو تسومح أو كان على وجه المسامحة.

أما الأصل أن تُطلق الفاصلة على نهاية الآية أو رأس الآية، هذه الفواصل إذا تأملتها تجد أنها تؤدي دوراً بلاغياً جميلاً في النص وفي النسق القرآني:

أولاً: تتيح استراحة لقارئ القرآن، عند الانتقال من آية إلى أخرى.

ثانياً: تحدد نهايات الآيات وبداياتها فيما عدا مواضع في القرآن أنت تعرفها من خلال قراءتك لكتاب الله تجد أن معنى الآيتين متصل، فلا يحسن أن تقف على الآية مثلاً خاصة لو كان في أمر الصلاة أو كذا، فلا يحسن أن تقف على الآية وتركع ثم تأتي لتبدأ بالآية التي بعدها لاتصال الآيتين بعضهما ببعض، وهذا في مواضع معدودة في كتاب الله ﷻ أما الأصل فهو الوقوف على رؤوس الآي.

ثالثاً: تمكن القارئ من حسن الأداء وتتيح للسامع فرصة حسن المتابعة.

رابعاً: فهي تحدث انسجاماً صوتياً يستولي على القلوب ويستقطب العقول ويأسر الأسماع.

هذا دور الفواصل في إجماله وأثره من الناحية الأدائية ومن ناحية الأصوات، والفاصلة هي عبارة عن حرف يُختتم به كلمة، هذه الكلمة يُختتم بها الآية فانظر - رحمك الله - إلى الفواصل في كتاب الله وخواصها، تكلمنا عن فائدتها والآن نتكلم عن خواصها وأنها كيف تميزت في كتاب الله ﷻ بهذا الشيء الذي تراه.

يقول الرافعي: "وما هي هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجبياً، يلائم نوع الصوت والوجه الذي يُساق عليه بما ليس وراءه في

العجب مذهب ، تراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها ، أو بالمد وهو كذلك طبيعي في القرآن فإن لم تنته بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه ، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار ، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقله أو الصفير أو نحوهما مما هو دروب أخرى من النظم الموسيقي ."

يقصد الرافي في كلامه أن هذه الفواصل وختامها يوافق ما ذهب إليه العلماء في رؤية كلام العرب أنهم عندما يريدون التغني أو يريدون إحداث نغمًا في كلامهم ، وفي أشعارهم يختاروا حروف اللين أو حروف المد للانتهاء بها ، أو حرف النون وحرف الميم ، ولذلك تجد روائع القصائد ما يُسمى بالميمية والنونية التي تنتهي بهذه الأحرف التي تُحدث نغمًا صوتيًا يألفه السمع ، هذا تجده في كلام الله ﷻ مع هذا الذي تحدثه الفواصل يعهده العرب ويعرفونه في كلامهم وفي أشعارهم.

تابع: الحروف وأصواتها ودورها في بيان إعجاز القرآن

عناصر الدرس

- العنصر الأول : حركات الحروف وأثرها على السمع في القرآن الكريم ١١٣
- العنصر الثاني : مظاهر النسق الصوتي في القرآن الكريم، والأمثلة التي تذكر له ١١٨

حركات الحروف وأثرها على السمع في القرآن الكريم

ويجدر بنا أن نشير إلى أن هذه الفواصل إذا تأملتها تجدها إما متماثلة وإما متقاربة ؛ بمعنى أنها تنتهي بحرف واحد، وهذا يظهر جلياً في قصار السور، كأن تنتهي بالراء: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ۝٢ إِيَّاكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ [سورة الكوثر: ١ - ٣]، ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا خَسِيرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [سورة العصر: ١ - ٣]، أو بالدال: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، أو بالسين: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾ [سورة الناس: ١ - ٦]، بل قد يتكرر الحرف المتماثل في بعض السور ما فوق القصيرة ولكن ليست من السور الطوال، كسورة القمر تنتهي بحرف الراء، وقد تكون الفاصلة متقاربة ؛ أي إنها تأتي بين حرفين من مخرج حرف قريب مع أخيه، كسورة "الفاتحة" بين الميم والنون، سورة "ق" بين الباء والدال، وهكذا.

وأيضاً الناظر في الفواصل، يجد أن فواصل القرآن الكريم إما أن تتفق في الوزن الصرفي والحرف، كقوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُورٌ مُّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝١٤ ﴾ [الغاشية: ١٣، ١٤]، أو تتفق في الوزن الصرفي دون الحرف كقوله تعالى: ﴿ وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَائِبٌ مُّبْثُوثَةٌ ۝١٦ ﴾ [الغاشية: ١٥، ١٦] الفاء والثاء، أو تتفق في الحرف دون الوزن الصرفي كقوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ ۝١٤ ﴾

أطواراً ١٤ ﴿ انوح: ١٣، ١٤﴾ هذا ما تنبه إليه البعض فى قضية الفواصل واستخدامها وأثرها الصوتى، باعتبار أن الفاصلة فى القرآن الكرىم تساوى القافية فى الشعر أو ما يحتتم به الحرف فى سجع العرب فى كلامهم، فأنت فواصل القرآن الكرىم بطريقة تأسر الأسماع وتستولى على القلوب وتستقطب العقول، فكان بها وجه إعجازٍ، لا يخفى على من له ذوق فى العربية ويتذوق كلام العرب.

بقى فى هذا الموضوع نقطتان:

النقطة الأولى: هى حركات الحروف: الحركات التى تأتي على الحرف؛ ما بين ضم وفتح وكسر، هذه الحركات لها دورٌ بارز فى إعجاز القرآن الكرىم.

النقطة الثانية: وهى تأثير الضبط فى توجيه القراءات القرآنية.

أما حديثنا الآن حول تأثير الحرف على السمع باعتبار ذلك جرس القرآن الكرىم؛ أى: صوته الذى تسمعه وتتأثر به.

ولو تدبرت ألفاظ القرآن فى نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجرى فى الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هى له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضاً، ولكن لن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها فى النظم الموسيقى، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة فى نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعزب ولا تساغ، وربما كانت أوكس النصيبين فى حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هى استعملت فى القرآن رأيت لها شأنًا عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التى قبلها قد انتهجت لها طريقة فى اللسان، واكتفتها بدروب من النغم الموسيقى، حتى إذا خرجت فيه كانت أعزب شىء وأرقه وجاءت متمكنة فى موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى

الحركات بالخفة والروعة، هذا نظرك عامة في الحركات وأثرها، هذا تعبير الرافي - رحمه الله - عن دور الحركات، ولكن قبل أن نذكر لك موضع استشهاده على هذه المسألة وقصة الضبط والحركة وهناك مواضع أخرى نذكرها - إن شاء الله - نريدك أن تصغي جيداً لهذه الرائعة التي ذكرها الدكتور عبد الله دراز - رحمه الله - في وصف هذه المسألة، وهي "الحركات وأثرها على السمع" وأنت تسمع القرآن الكريم:

يقول: "أول ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره، دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله، نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومادّاتها وغنائها، واتصالاتها وسكناتها، ثم ألقى سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جردت تجريداً، وأرسلت ساجحة في الهواء - فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر، قد جرد هذا التجريد وجود هذا التجويد، ستجد اتساقاً واثلاًفاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر.

وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر؛ ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر، فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً وشطراً شطراً، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهباً متقارباً، فلا يلبث سمعك أن يجها وطبعك أن يملها، فإذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد، بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوع متجدد؛ تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعرّوك منه

على كثرة ترداده ملالة ولا سأم، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد، هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحدٍ ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب، فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟!

تأمل كلام الشيخ، هو يريد أن يصل بك إلى أن تقسيم الحركات والسكنات وضبط الحروف وهذه الحركات، أحدث في القرآن ما هو فوق ما يعرفه العرب في نظم أشعارهم؛ مما يسمى بالأسباب والأوتاد، درست في مادة العروض تكوين أشعار العرب من فواصل "فاصلة صغرى وفاصلة كبرى" وهذه الفواصل تتكون من أوتاد وأسباب، وتد مجموع أو مفروق وسبب خفيف أو ثقيل، كما هو معروف في هذا العلم، الحركة يتبعها ساكن يطلق عليها سبب خفيف، إذا توالى حركتان يطلق عليها سبب ثقيل، إذا توالى حركتان يتبعهما ساكن كانت وتد مجموع، إذا فصل بين متحركين ساكن كان وتدًا مفروقًا، إذا كانت مكونة من سببين ثقيل وخفيف كانت فاصلة صغرى، وإذا كانت مكونة من سبب ثقيل ووتد مجموع كانت فاصلة كبرى، هذا التكوين في أشعار العرب وفي كلامهم.

انظر إلى القرآن تجد بتقسيمه الحركات والسكنات فاق هذا الكلام الموزون الذي يحرصون كل الحرص على ضبط إيقاعه وعلى إخراجهم، فقامت الحركات بهذا الدور الرائع في بيان اتساق ألفاظ القرآن ومفرداته وكلامه، حتى إنك أول شيء تحسه أو تشعر به أذنك في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قُسمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعًا بالقسط، يساعد على ترجيع الصوت به، وتهادي النفس فيه آناً بعد آناً إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى، فيجد عندها راحته العظمى، عندما تقف على رأس الآية، هذا لا تجده في أجود أشعار

العرب، فقد وقع في أجود نثرها وشعرها عيوب تقلل من سلاسة التركيب ولا يمكن معها إجادة الترتيل، فكان القرآن شاملاً على كل عظيم في الفنين أو في النوعين النثر والشعر، فكان له من النثر جلاله وروعته ومن الشعر جماله وامتعته. هذا أثر الحركات التي تؤدي إلى ما سماه الشيخ دراز "الجمال التوقيعي في ألفاظ القرآن الكريم".

طبعاً الحركات وأثرها يبين لك بصورة واضحة في النقطة التالية التي نتحدث عنها:

إن هذه الحركات تؤدي لما يسمى بـ "النسق الصوتي" وهذا هو خلاصة ما تحدثنا فيه في درسنا الماضي وفي درسنا هذا؛ أن هذا التعاون والتكاتف بين الحروف، ما بين شكلها وما بين تلاؤمها وما بين أثرها وما بين تماثلها وحركاتها... إلى غير ذلك مما تحدثنا عنه، ينتج بنا في النهاية إلى موضع الكلام وهو "النسق الصوتي" أو ما يسميه بعض أهل العلم "الجرس القرآني" أي صوت القرآن، هذا النسق الذي تراه بيناً رائعاً في كلمات القرآن وفي اختيارها، وهذا الذي اهتم العلماء ببيانه.

نرجع إلى أول لفظة وقف معها الرفع وهي كلمة "النذر" في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦] هذه الكلمة انظر إلى حركاتها؛ فإن الضمة ثقيلة لتواليها على النون والذال معاً "نذُر" فضلاً عن جسأة هذا الحرف ونبوه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، فكل ذلك مما يكشف عنه ويُفسح عن موضع الثقل فيه، لكنه جاء في القرآن على العكس، وانتفى من طبيعته، يقصد أن هذا اللفظ نفسه لو نظرت إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٤١] تجده ليس فيه الثقل الظاهر بهذا الوضع لما سبقه من حروف، أما في هذه الآية تجده جمالاً شديداً باستخدامها

﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ (٣٦) إذا تأملت التركيب وتذوقت مواقع الحروف وحركاتها في حسّ السمع، وتأمل مواضع الفلقلقة في دال ﴿ وَلَقَدْ ﴾ وفي الطاء من ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ هذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو ﴿ فَمَارَوْا ﴾ مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لحنفة التابع في الفتحات، إذا هي جزّت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة، ثم ردد نظرك في الراء من ﴿ فَمَارَوْا ﴾ فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء "النذر"، حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تنبو فيه، ثم تتعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون: ﴿ أَنْذَرَهُمْ ﴾ وفي ميمها: ﴿ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴾ وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في ﴿ بِالنُّذُرِ ﴾.

هكذا بين الرافي بعد كلامه عن الحركات دور كلمة "النذر" عندما جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ (٣٦) هذا مثالاً أعطاه على موضوع الحركات. نطلق منه لكلامنا العام عن هذه النقطة، وهي "النسق الصوتي في القرآن والأمثلة التي تذكر له".

مظاهر النسق الصوتي في القرآن الكريم، والأمثلة التي تذكر له

أولاً: تجد في القرآن كلمات - كما يقال - طويلة؛ أي عدد حروفها كثير، كقوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٣٧] وكقوله تعالى: ﴿ لَيْسَتْ خَلْفَنَهُمْ ﴾ [النور: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿ أَنْزَلْنَا مَكُّوْهَا وَأَنْتُمْ هَا كَرِهُونَ ﴾ (٢٨) [هود: ٢٨] و ﴿ زَوْجَانِكهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] إلى غير ذلك مما هو في

عرف الكلام أو في عرف البلاغيين كلمة طويلة، أما عند النحاة فهي كلمات؛ لأنهم يقسمون الكلمة إلى اسم وفعل وحرف، فهي جمل وليست كلمة، أما أهل البلاغة ينظرون إليها لما اتصالها في النطق ككلمة واحدة.

فإذا نظرت إلى هذه الألفاظ التي عدد حروفها كثير ومقاطعها قد تكون مثقلة بطبيعة الوضع أو التركيب - إذا نظرت إليها في القرآن تجدها خرجت مخرجاً آخر، فخرجت من أخصر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقاً وأخفها تركيباً؛ إذ ترى القرآن قد هيئ لها أسباباً عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات، انظر: ﴿لَيْسَتْ خَلْفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] كلمة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف، ومن نظم حركاتها؛ فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات؛ إذ تنطق على أربعة مقاطع ليس / تخ / لفن / نهم؛ هذا التقسيم مقاطع، هو يشير كما أشار الدكتور دراز لموضوع الأسباب والأوتاد التي يقاس بها أوزان الشعر المقطع ينتهي عند الساكن: ليس / تخ / لفن / نهم، فصارت الكلمة كأربع كلمات بأربعة مقاطع، فأعطاهها جمالاً وسهولة وعذوبة في النطق، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ فإنها كلمة من تسعة أحرف وهي ثلاثة مقاطع، وقد تكررت فيها الياء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها.

مظهر آخر من مظاهر النسق الصوتي في القرآن الكريم: استخدام الألفاظ مع أصولها، بمعنى أنت لو نظرت للكلمات المستخدمة في القرآن الكريم، تجد عربيها يدور بين الثلاثي والرباعي؛ أي ثلاثي الأصول ورباعي الأصول، ولا تجد كلمة ذات أصول خماسية، مثل: غضنفر وسفرجل، هذه الكلمات الخماسية الأصول لا تجد مثلها في القرآن، فتجد القرآن يستخدم الأصول الثلاثية والرباعية، فهذه

الألفاظ ترجع في تجريدتها لثلاثي ورباعي، أما كونها خماسية الأصول فلا تجد شيئاً قد ورد من ذلك في القرآن؛ لأنه مما لا وجه للعدوثة فيه، إلا الأسماء الأعجمية أو المعربة، وستعرض بعد ذلك - إن شاء الله - لقضية "التعريب والألفاظ المعربة في القرآن الكريم" لماذا؟ لأنك لو نظرت في هذه الكلمات التي تجدها خماسية أو سباعية كإبراهيم وإسماعيل، وغير ذلك من الخماسي كطالوت وجالوت، هذه الألفاظ لو نظرت إليها تجدها من مقطعين؛ فكأنها كلمتان وليست كلمة واحدة، وذلك يجعلها سهلة في النطق إبراهيم، إسما/عيل، طا/لوت، جا/لوت، إسرا/ئيل، جبرا/ئيل، هذه الكلمات تجدها من السهولة بمكان؛ لأنها تعد كلمتين؛ فلذلك ورد استخدامها فيما فوق الثلاثي والرباعي.

وكذلك مظهر آخر من مظاهر النسق الصوتي في القرآن الكريم: وهو أن تأتي كلمة تعد عند البلاغيين غريبة؛ غريبة لعدم تواردها استخدامها أو كثرة استخدامها في كلام العرب، ولثقل النطق بها، فتشمل نوعاً من الغرابة، فيستشهد بذلك بكلمة "ضيزى" في قوله تعالى: ﴿ تَلَكَّ إِذَا قَسَمَ ضِيزَى ﴾ [النجم: ٢٢]، هذه الكلمة خارج النص القرآني تشعرك بأنها غريبة، وتساءل عن معناها ولماذا لم تستخدم جائرة؟ أو الجور بدلا من هذه اللفظة، أما لو نظرت للنص القرآني ستجد أن هذه اللفظة جاءت مع أسرار الفصاحة جميعاً في النطق بها.

تأمل المتأملون وأخرجوا مظاهر لفصاحتها، ونبه على أن هذا الكلام وهذه الاجتهادات في إبراز مظاهر الفصاحة كما سنذكر في نهاية درسنا - إن شاء الله - إنما هو اجتهاد من العلماء، وفي النهاية يقال: الله أعلم بمراده، فهذا تذوق يعرض عليك، ولك أن تتذوقه وأن ترى ما فيه، فمثلاً في كلمة ﴿ ضِيزَى ﴾

يعني تُعطي من أسباب الفصاحة أنها جاءت على الفاصلة "فاصلة السورة" سورة النجم تنتهي بالألف المقصورة ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ مَاضِلٌ صَاحِبُكُمْ وَمَا عَوَىٰ ۝٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ ﴿

[النجم: ١ - ٩].

إلى أن قال الله ﷻ في إنكاره على من يدعون له ﷻ البنات وينسبون لأنفسهم الأولاد، فيدعون أن الملائكة إناث وهم بنات الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فيقول الله ﷻ لهم موحياً: ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝١١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝١٢﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] فما ادعوه غريب، فيقال بلفظ غريب؛ هم ادعوا لله ﷻ البنات ولأنفسهم الأولاد ادعوا لأنفسهم كما لا لم ينسبوه إلى خالقهم!! هذا أمر وشأن عجيب من هؤلاء الجاحدين الكافرين، الذين لا يؤمنون بالله رب العالمين، فقابل ذلك غرابية في اللفظ، فهي تلائم لغرابية هذه القسمة العجيبة التي ذكروها، وهذا الكلام الباهت الجائر الذي تقوّلوه، والذي نطقوا به، هذا مظهر آخر في جمال اللفظة؛ فأولاً تناسب الفاصلة وثانياً تناسب الكلام الذي قالوه في غرابته وفي المبالغة في الإنكار عليه، كذلك تجد أنها تتألف من حروف تعطي معنى حسياً يؤثر في نفسك؛ يعني أمر صعب ﴿ضِيزَىٰ﴾ يعني أنت عندما تنطقها تستعد لإخراج الضاد من مخرجها والنطق بها؛ فهي تؤثر فيك حسياً قبل أن تتلفظ بها، كذلك تجدها من مقطعين أحدهما مد ثقيل والآخر مد خفيف، وجاءت عقب غنتين: إِذَا/ قِسْمَةٌ/ أيضاً الغنتان إحداهما خفيفة والأخرى ثقيلة، فتجد أنها جمعت لك في هذا النطق وبهذا الشكل تلاؤماً توارؤماً في مخارج اللفظ ونطق الكلمة ﴿ضِيزَىٰ﴾، فهذا ما أشير إليه في هذه اللفظة الكريمة في كتاب الله ﷻ.

لونٌ آخر من بىان النسق الصوى فى القرآن الكرىم: وهو ما ىسمىه بعض اللغوىىن بـ "حروف الزىادة"، هذى الحروف الزائدىة أو جوىد زىادة أو حرف زائدى - هذى المسألىة ننبىه إىلها الآن تنبىهاً بسىطاً، وسنأتى إىلها تفصىلاً - إن شاء الله ﷻ - فىقال: أولاً: هذى الادعاء الزائدى إن أرىد به زىادة فى اللفظ والمعنى فهذى كفر والعباذ بالله، لا فىقوله أحدى من أهل العلم ولا من أهل الجهل حتى، لا فىقوله إلا جاحدى منكر والعباذ بالله، أما المقصوىد باللفظ الزائدى عند العلماء والذى فىذكرونه، حتى إن كثرراً منهم فىحرص على تسمىته بحرف صلىة، فىعى: ولا فىقول حرف زائدى، حرف صلىة فىتوصل به إلى معنى معىن، وكثرى منهم فىصرف المعنى للوىكوىد فى وجود الزىادة وعىرها، وهذى القضىة - إن شاء الله - سنعرض لىها، إنما نعرف الآن أنهم لا فىقصدون بالزائدى أنه زىادة فى المعنى، حاشا لله، وإنما فىقصد به بالمصطلح ما فىرىدونىه فى علمهم؛ فىعى: أهل النحو عندما فىقولون: زائدى، فىرىدون به أنه لا فىؤثر فى الإعراب، أن ما بعده فىعرب حسب موقعه فى الكلام، لا فىرىدون به أنه زىادة فى المعنى، أو أنه فىستغنى عنه، حاشا لله.

المهم أننا ندىعوك الآن لأن ننظر لبعض الحروف التى هى فى عرف اللغوىىن من حروف الزىادة، بمعنى أنها جاءت فى موضع ذكرت فىه وما بعدها أعرب حسب موقعه فى الكلام، فىضرب الشىخ هنا مثالىن، قال فى قوله تعالى: ﴿فَمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وفى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بُصِيرًا﴾ [ىوسف: ٩٦] فىقول الشىخ: فىإن النحاة فىقولون ما فى الآلىة الأولى وأن فى الثانية زائدىتان أى: فى الإعراب، فىظن من لا بصرله أنهما كذلك فى النظم، وفىقىس علىه، مع أن فى هذى الزىادة لوناً من التصوير لو هو حُذف من الكلام لذهب بكثرى من حسنه وروعىته.

هذه المسألة تذكرنا بما قاله المتجرب صاحب (الفريد في إعراب القرآن المجيد) عندما تعرض لقضية الحرف الزائد فقال كلاماً بديعاً مؤداه: أنه لا يشعر بقيمة هذا الحرف في سياق الكلام إلا من يشعر بقيمة الوزن في سماع الشعر، بمعنى أن الذي يسمع الشعر وفطرته وسجيته شاعرية عندما يأتيه بيتٌ فيه كسر يقول: هنا كسر وربما لا يعرف سبب الكسر بطبيعته وبسجيته، فكذلك مستمع القرآن لو حُذِف هذا الحرف الذي ادُعي زيادته أو أُطلق عليه بالزائد - تجد أن المستمع الذي يطرب لسماع القرآن وأذنه ألفت سماع كلام الله ﷻ تجده في هذا الموضع يشعر بخلل قد حدث، فإذا ما وُجد هذا الحرف وجدت الانسياب والجمال الذي يسير عليه النسق القرآني، هكذا مثل الرجل - رحمه الله.

نرجع لكلام الشيخ يقول: "فإن المراد بالآية الأولى تصوير لين النبي ﷺ لقومه، وإن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المد في "ما" ﴿فِيمَا رَحِمَهُ﴾ جاء وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية، لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها وهو لفظ ﴿رَحِمَهُ﴾ مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وبنبه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبعي في بلاغة الآية كما ترى.

الآية الثانية: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف # وبين مجيئه هذا؛ "أن" التي وقعت بين "لَمَّا وجاء" تصور لنا الفصل الزمني بين مجيء البشير ليعقوب # بقميص يوسف # للبعد بين مكان يوسف # ومكان أبيه، هذا في مصر والآخر في فلسطين؛ فهذا المجيء بحرف أن يصور لنا البعد بين المكانين، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه، واستقراره غنة هذه

النون في الكلمة الفاصلة وهي أن في قوله: "أن جاء" ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ﴾ تفصل معك في السمع بين فلماً جاء، هذا الفاصل بأن مع الغنة في النون يشعر لك بشيئين:

أولاً: بعد المسافة هذا شيء، وإشارة إلى البعد المكان بين يوسف ويعقوب - عليهما السلام.

ثانياً: في الغنة لطرب يعقوب # بمجيء البشير بقميص يوسف؛ لأنه كما هو معلوم من سياق الآيات يعلم أن ابنه حي وأنه يجد ريحه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ﴿٩٤﴾ [يوسف: ٩٤].

وعلى هذا يجري كل ما ظن أنه في القرآن مزيد؛ فإن اعتبار الزيادة فيه، وإقرارها بمعناها إنما هو نقص يجعل القرآن عنه، وليس يقول بذلك إلا رجل يعتسف الكلام، ويقضي فيه بغير علمه ولا بعلم غيره، الذي يدعي هذا الكلام يرد عليه القول بالزيادة كما قلت: أنه لا يقصد بالطبع زيادة في المعنى، حاشا لله.

مظهر آخر جميل ذكر في النسق الصوتي: وهو في استخدام الأسماء الجامدة داخل الجمل، أسماء ترتبها، أي: فصاحة وبيان وبلاغة وروعة تجدها مثل الذي تجدها في تنسيق القرآن وترتيب الكلمات، كلمات تأتي إثر بعضها، وبها من البلاغة والروعة ما يتأمله، ويتنبه إليه من تنبه، كما ذكر الإمام ابن تيمية - رحمه الله - هذا الترتيب وهذا النسق العجيب يضرب له مثال بقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

خمسة أسماء؛ "طوفان، جراد، قمل، ضفادع، دم" لو نظرت فيها تجد أن فيها الثقيل وفيها الضعيف، فيها الخفيف وفيها الثقيل، الخفيف مثل الطوفان الجراد

الدم، والثقل إما لوجود حرف مضعّف مثل القمل أو لوجود حرف من مخارج ثقيلة مثل الضفادع - فتجد أن الكلمات لو رتبت على عكس هذا الترتيب أو قدم وأخر اسم مكان آخر لوجدت خللاً ظاهراً في الترتيب، فهذا من بدیع ما ينظر إليه في النسق الصوتي وفي تركيب الكلمات في القرآن الكريم؛ فإن أخفها في اللفظ الطوفان والجراد والدم، وأثقلها القمل والضفادع، فقدم الطوفان لمكان المدّين فيه الطوفان طو/فا، وقدم كذلك حتى يأنس اللسان بخفتها، ثم الجراد وفيها كذلك مد، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت، لمكان تلك الغنة ﴿وَأَلْقَمَلٌ﴾، ثم جيء بلفظة "الدم" آخرًا وهي أخف الخمسة وأقلها حروفًا؛ ليسرع اللسان فيها، ويستقيم لها ذوق النظم، ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب.

هذا مثالٌ ذكره الرافعي، ولك أن تقيس عليه فيما ورد في القرآن من ترتيب كقوله تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ (الواقعة: ١٨) تقديم الأكواب؛ لاشتمالها على المد وصرفها، والإتيان الوسيط بأباريق ممنوعة من الصرف، والختم بالكأس لخفته، كذلك: ﴿هَدَّيْتُمْ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠) لو نظرت في هذه الآيات وتأملت تتابع الكلمات تجد سرًّا لا يدركه إلا من يتذوق جمال اللغة في هذه الألفاظ.

أيضًا لو نظرت في كلامهم على الآية الكريمة: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَمِنُ عَلَى الطِّينِ﴾ (القصص: ٢٨) تجد أيضًا مسألة النسق الصوتي تظهر ظهورًا بيّنًا غير ما أشار إليه علماؤنا الأجلاء من الشعور النفسي بفرعون وتصويره بهذه العبارة، وبيان خفة عقله وسذاجته، وغير ذلك مما تخلصوا أو مما توصلوا إليه من مظاهر جمال في الآية - نستطيع أن نضيف وجهًا آخر في مسألة النسق الصوتي في الآية، وهو تأملك لقوله: لي/يا/هَامَا/ .. انظر: لي/يا/ها/مَا/ هذا التركيب لا تجده في

أشعار العرب جميعها ؛ أن تجد متحركاً ساكناً متحركاً ساكناً متحركاً ساكناً متحركاً ساكناً متحركاً ساكناً ، الأسباب والأوتاد بما يحدث فيها لا يوفر لك هذا التركيب ، متحرك ساكن ، هو الذي يطلق عليه السبب الخفيف لي/يا/ها/ما متحرك ساكن متحرك ساكن متحرك ساكن متحرك ساكن ، انظر إلى وقعها ونسقها الصوتي وسط الآية ، وهذا تفرد أيضاً في إبراز النسق الصوتي في القرآن الكريم ، وربما يأتي من يذكر وجهاً آخر في الآية نفسها ؛ وهكذا.

لماذا؟ هذا الذي نصل به في نهاية كلامنا عن الحروف وأصواتها اللغوية ، هذا الذي لا بد أن ننوه عليه بأن كل كلمة في القرآن ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه ؛ لذلك نختتم هذا الموضوع بعبارات جميلة من كلام شيخنا دراز - رحمه الله - وذلك تصديره لكلام عن هذه المسألة.

انظر - رحمك الله - لكلام الرجل هذا الرجل الذي بهر الناس بكتابه (النبأ العظيم) كأنه لوحة فنية رائعة أدبية تعرض بيان القرآن وقيمه وإعجازه ، عندما بدأ الحديث عن هذه المسألة ، وهي الحروف والأصوات اللغوية أو ما سماه بالقشرة السطحية للقرآن الكريم ، التي تتركز في جمال الإيقاع ، وفي جمال التنسيق - تنسيق بين الألفاظ والإيقاع في الحروف - وما أشار إليه - رحمه الله - عندما بدأ يتحدث عن هذه المسألة يقول هذه العبارات التي نقرأها عليك لتتظر قيمة العلم ، وتتنظر أهمية النظر لجهود السابقين ، يقول الرجل - رحمه الله :

"أما الآن ، فقد والله طلبت مني جسيماً وكلفتنا مرأماً بعيداً ، لمثله انتدب العلماء والأدباء من قبلنا وفي عصرنا ، فحفيت من دونه أقلامهم ، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال ، واعترفوا بأن ما خفي عليهم منه أكثر مما فطنوا له ، وأن الذي وصفوه مما أدركوه أقل مما ضاقت به عباراتهم ، ولم تقف به إشاراتهم".

تأمل هذه العبارة ، يشير إلى أن العلماء في هذه المسائل التي نظرناها من أوجه الإعجاز ، إنما تنبهوا إلى قليل من كثير ، وتنبهوا لما فتح الله به عليهم ، فرأوه

وعبروا عنه وأشاروا إليه ، وفي القرآن من الأسرار أكثر مما قالوا بكثير ، ولا يعلم مدى ذلك إلا الله ﷻ فهو أعلم بمراد كتابه - جل في علاه - ويسط من العلم من قربه وشرفه بمداولة القرآن وبالنظر فيه ، يسط له ما شاء ، وكله يندرج تحت قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] ، هذا بعض ما ظهر لنا في هذه المسألة .

وننتقل إلى مسألة أخرى ، تتعلق بالحروف أيضاً ولكنها من نوع آخر ، بمعنى أن الحروف إذا نظرت إليها تقسم عند العلماء إلى نوعين :

النوع الأول : حروف مباني : وهي ما يتكون منها الكلمات ، وهي التي تناولنها في الدرس هذا وفي درسنا السابق ، ومن بناء الكلمات والألفاظ .

النوع الثاني : حروف معاني : وهي الحروف التي جاء بها المعنى وهي الحروف التي يهتم بها النحاة أكثر من اللغويين ؛ لأنها تؤدي إلى معان وتؤثر في الإعراب ، ولها دخل بالعوامل النحوية ، فحروف المعاني كحروف الجر وحروف العطف وحروف النداء وإن وأخواتها وجوازم المضارع ونواصب المضارع كل ذلك يندرج تحت ما يسمى بحروف المعاني ، هذه الحروف لها وظيفتان :

الوظيفة الأولى : وظيفة نحوية كما قلت لكم : ما بعدها منصوب أو مجرور أو مجزوم .

الوظيفة الثانية : هي أسمى وأعلى وأدق ، وهي الوظيفة البلاغية التي يظهر من خلالها إعجاز القرآن الكريم وروعة البيان .

حروف المعاني (١)

عناصر الدرس

- العنصر الأول : حروف العطف (الواو والفاء) ١٣١
- العنصر الثاني : حروف العطف (ثم، أو، أم، بل، لكن، لا) ١٣٨

حروف العطف (الواو والفاء)

حروف المعاني هي الحروف التي يؤتى بها معنى ، وتكون رابطاً بين أجزاء الكلام ، فهي تربط بين الأسماء والأفعال ، ويجاء بها لمعنى .

هذه الحروف هي مناط كبير من أساليب الفصاحة التي جاء القرآن الكريم بأربع الأساليب في استخدامها ، فإن هذه الحروف شغلت كثيراً من العلماء ، وصنفت فيها التصانيف ؛ فصنف أبو الحسن الرماني كتابه في الحروف ، وصنف كذلك المرادي كتابه (الجنى الداني) وصنف كذلك المالقي كتابه (رصف المباني) وصنف كذلك ابن هشام كتابه المشهور (مغني اللبيب عن كتب الأعراب) وأفرد حروف المعاني باباً واسعاً في كتابه هذا ، فهذه الحروف التي شغلت من اهتم باللغة وأبانوا وجوه الإعجاز في استخدامها في القرآن الكريم .

وحروف العطف هي الحروف التي يطلق عليها النحاة عطف النسق ؛ أي : العطف بواسطة أداة تربط بين الكلمتين أو بين الجملتين ، هذه الحروف يسمونها حروفاً عاطفة ؛ أي تعطف بين ما قبلها وما بعدها في الحكم الإعرابي وفي المحل الإعرابي ، هذه الحروف يقسمها النحاة إلى نوعين :

النوع الأول : نوع يقتضي التشريك في اللفظ والمعنى .

النوع الثاني : يقتضي التشريك في اللفظ دون المعنى .

أما ما يقتضي التشريك في اللفظ والمعنى فينقسم قسمين ؛ قسم : يقتضي التشريك مطلقاً وهو الواو والفاء وثم وحتى ، وقسم آخر : يقتضي التشريك بالقيد ؛ بأنه

لا يقتضي إضراباً، وهو أو وأم، فإذا خرج إلى الإضراب خرج عن العطف، والقسم الثاني هو الذي يقتضي التشريك في اللفظ دون المعنى، فيثبت لما بعده ما انتفى عما قبله، وذلك بل ولكن، أو يثبت لما قبله ما انتفى عما بعده، وذلك لا وليس. الخلاصة أنهم يذكرون في عد هذه الحروف أنها عشرة أحرف يؤتى بها للعطف. أكد المفسرون أن المفسر لا بد أن يكون عالماً بمعاني هذه الأدوات وبمعاني الحروف، قبل أن يتحدث في كتاب الله ﷻ.

الواو يقولون: إنها لمطلق الجمع، فتعطف لاحقاً على سابق كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الحديد: ٢٦] وإبراهيم # لاحق لنوح # أو تعطف سابقاً على لاحق كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٣] فالنبي ﷺ لاحق للأنبياء الذين أرسلوا قبله ﷺ ومن بديع اجتماع الشيتين قوله تعالى: ﴿وَمِنْكَ وَمَنْ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٤٧]، فبدأ المولى ﷺ بذكر النبي ﷺ ثم أتى بنوح # وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم - عليهم السلام - فاجتمع عطف اللاحق على السابق وعطف السابق على اللاحق.

و"أو" أنها تعطف متصاحبين؛ أي ليس فيهما سابق ولا لاحق، كقوله تعالى: ﴿فَأَيِّمَنَّهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥] أهم ما يميز هذه الواو أنها لا تقتضي الترتيب بين المتعاطفين قال تعالى: ﴿وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] ويستدل أهل الفصاحة والبلاغة بقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١] وجاء في موضع: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] فلا يصلح إلا الواو في هذا الوضع دون أحرف العطف، فلا يقال: فادخلوا أو فقولوا أو ثم ادخلوا أو ثم قولوا، إنما عطف بالواو دون غيرها في الموضعين.

كذلك الواو من الحروف التي تعطف مشتركين، لا يُكتفى بالكلام على أحدهما يمثل لها بقولهم: اختصم محمد وعلي، أو اشترك علي وأخوه؛ فإن الاشتراك والاختصاص لا يكون إلا بين اثنين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿خَطُّوْا عَمَلًا صَٰلِحًا وَّآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] فالخلط كان بين العاملين؛ لذلك خطأ الأصمعي امرأ القيس عندما قال: "بين الدخول فحومل" فقال: "الصواب أن يقول: "وحومل". ولكنه رد عليه بأشياء من تناوب هذه الحروف ومن التأويل، أو التضمين الذي يسوغ لمن يستخدم الحرف أن يأتي بحرف يؤدي أداء أخيه مما ينتسب إلى فصيلة واحدة من الأدوات.

كذلك الواو تعطف بين المترادفين: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَفِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧] ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]. فالعطف هنا لا يكون إلا بالواو، كذلك تعطف عاملاً محذوفاً، مع بقاء معموله هذه قضية نحوية يستشهد لها بآيتين بقول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٩] فالدار تُتبوأ، أما الإيمان لا يُتبوأ، فيقولون: التقدير تبوءوا الدار واعتقدوا الإيمان، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] فلا يقال: أجمعوا شركاءكم، إنما يقال: اجمعوا شركاءكم، فالتقدير: أجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم، هذا أيضاً يكون بالعطف بالواو، كذلك جواز العطف بها على الجوار، وذلك في القراءة المشهورة المتواترة "وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ" بجر الأرجل، وكذلك في القراءة الأخرى المتواترة ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [١٧] يَا كُؤَابِ وَأَبَارِيْقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ [الواقعة: ١٧ - ١٨] ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢] فهذا دليل على جواز العطف على الجوار وإن اعترضه بعض النحاة ورفضوه، إلا أنه مخرج سهل لهاتين القراءتين المتواترتين.

كذلك الواو يفصل بين المتعاطفين بها بالظرف كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ [يس: ٢٩]، وكذلك تقع إما بينها وبين معطوفها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، كذلك تقع لا بينها وبين المعطوف بها: ﴿ فَلَا رَفْعَ وَلَا فَسُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿ لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴾ [المائدة: ٢]، كذلك تعطف الخاص على العام ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾ [الأحزاب: ٧] فالنبي ﷺ ونوح # من النبيين، فعطفت الخاص على العام، والمقابل تعطف العام على الخاص، كقوله تعالى في دعاء نوح # : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [نوح: ٢٨].

كذلك هذه الواو تأتي بمعنى "ثم" ويستدل على ذلك حكاية عن فرعون ﴿ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبَتُّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٩] وفي موضع الأعراف: ﴿ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَقْطَعَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٤] ومن اللطائف التي تنبه إليها أهل البلاغة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣] يقول الزمخشري: "الأولى التي وقعت أي التي وقعت بين الأول والآخر، الأولى للجمع بين الأولى والآخرة، والثالثة الجمع بين الظهور والخباء، أما الثانية الواو الوسطى التي وقعت بين الآخر والظاهر - فأتت للجمع بين مجموع الصفتين الأوليين والآخرين، وهذا من بديع استخدام الواو كأداة للعطف أو من حروف العطف".

هل تقع الواو زائدة؟

استدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [١٠٣] وَتَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعَهُمْ ﴿ [الصفات: ١٠٣، ١٠٤] قال: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَتَدَيْتُهُ،

فالواو هنا أتت زائدة وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] قالوا: "وانظر إلى حمارك؛ لنجعلك آية للناس"، هذا القول الذي قيل في زيادة الواو هو محل أخذ ورد، والأولى رده لأن القول بالزيادة هنا ليس كالقول بالزيادة في المواضع التي سنتطرق إليها في قضية التأكيد بالحرف الزائد.

حرف الفاء:

الأساس أنها تدل على الترتيب، بمعنى أن ما بعدها يأتي بعد ما قبلها، وهذا الترتيب يكون للتعقيب، بمعنى السرعة، يعني يليه مباشرة، ليس هناك فترة زمنية بين المتعاقبين: ﴿ أَمَانَهُ، فَأَقْبَرَهُ. ٢١ ﴾ [عبس: ٢١] فإن الإقبار يكون بعد الموت مباشرة، كذلك تفيد الفاء التسبب؛ أي أن ما قبلها يكون سبباً لما بعدها، ويستدل له بقوله تعالى: ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ [القصص: ١٥] فإن هذا الوكز كان سبباً في موت الرجل، وكذلك قول الله ﷻ: ﴿ سُنْفُرُكَ فَلَا تَنْسَى ٦ ﴾ [الأعلى: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمِنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ ﴾ [الصفوات: ١٤٨]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِرْعَانَ رَجِيمًا ٣٤ ﴾ [الحجر: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧]، فهذه الكلمات كانت سبب التوبة، والخروج كان بسبب أنه - لعنه الله - رجيم. وكذلك الإيمان كان سبباً في تمتيعهم وإقراء المولى ﷺ لرسوله الكريم عن طريق جبريل # كان سبباً في عدم نسيانه ﷺ بأنه لا ينسى ما يتلى عليه وما يوحى إليه ﷺ.

هذان المعنيان هما الأكثران والغالبان في استخدام الفاء، أما باستقراء أو بالنظر في كتاب الله ﷻ توجد معان أخرى للفاء، استنبطها العلماء وحاولوا تعريفها وتبيينها؛ ليتضح من خلالها أن الفاء لا يُشترط أن تكون بمعنى الترتيب والتعقيب أو بمعنى التسبب دون غيرهما من المعاني، فقالوا: هناك عندنا ما تُسمى بالفاء

الفصيحة، الفاء الفصيحة - كما ذكر الزمخشري - لا تقع إلا في الكلام البليغ، وعرفت بأنها التي تكون جواباً لشرط مقدر مع الأداة؛ بمعنى أنك تجد في الكلام حذفاً، هذا الحذف عبارة عن شرط مقدر حذف هو وأداته وبقي الجواب، وبالمثال يتضح المقال، قال الله ﷻ: ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ [الروم: ٥٦] أي: إن كنتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث، كذلك قول الله ﷻ: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّبِّ ۚ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾ [الماعون: ١، ٢]، فإذا أردت ربطاً بين الآيتين ستجد تقديراً وهو: إن أردت معرفته ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ [الماعون: ٢].

والصورة الأخرى للفاء الفصيحة هي:

أولاً: أن تعطف على محذوف، أي: هناك حذف بينها وبين ما قبلها، كقوله تعالى: ﴿ فَأَقْنُولُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٤] أي: فعلتم ذلك فتاب عليكم، وكقوله تعالى: ﴿ فَكُلْنَا أَضْرِبَ بَعْصَاكَ الْحَجْرَ فَأَنْفَجَرْتُمْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [البقرة: ٦٠] أي: فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وقوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل: ﴿ قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْجُوهَا ﴾ [البقرة: ٧١] أي فحصلوا البقرة فذبحوها. صورة أخرى من صور الفصيحة وهي وقوعها بعد أمر أو نهي مقدر كقوله تعالى: ﴿ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩] أي: لا تعتذروا فقد جاءكم بشير ونذير.

ثانياً: "الفاء التفرعية": التي تدل على التفرع كقوله تعالى: ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧٢].

ثالثاً: "الفاء التفسيرية": وهي التي تفسر ما قبلها: ﴿ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

[النساء: ١٥٣]، كذلك الآية التي اعترض بها على أن الفاء تفيد الترتيب في قوله تعالى: ﴿ **أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءََهَا بِأُسْنًا** ﴾ [الأعراف: ٤] قالوا: مجيء البأس يكون قبل الإهلاك، والبأس هو الذي يؤدي إلى الهلاك، فليس هنا ترتيب.

وكذلك قالوا في آية: ﴿ **فَأَنْتُمْ مَنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي آيَمٍ** ﴾ فإن هذا الإغراق هو الانتقام، وتُحمل هذه الآيات على أن الفاء فيها تفسيرية؛ أي: فسرت صورة الإهلاك وصورة الانتقام، وربما يرى البعض أن الفاء في هذا الموضع تكون على معنى الإرادة، أي: في قوله سبحانه: ﴿ **أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءََهَا بِأُسْنًا** ﴾ أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا، ومنهم من ذهب إلى أن الفاء فيها للترتيب الذكري، فالمذكور بعدها مرتب على ما قبلها.

رابعاً: قالوا بزيادة الفاء في قوله تعالى: ﴿ **فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ**

الْيَتِيمَ ﴾ [٢]، وقوله تعالى: ﴿ **هَذَا فَايِدُوفُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ** ﴾ [٥٧] [ص: ٥٧]، وهو مما لا داعي له لصحة تخريج الآية على غير الزيادة، ولعدم الفائدة التي تترتب على القول بالزيادة، كما سنرى في حروف الجر مثلاً أنها تؤدي إلى فائدة عظيمة في المعنى.

خامساً: من معاني الفاء "الترتيب الذكري" كقوله تعالى: ﴿ **وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ**

رَبِّ إِنِّي أَبْنَى مِنْ أَهْلِي ﴾ [هود: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ**

بِاللَّهِ ﴾ [النحل: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْشَأْنَهُمْ لِنَشْأَةٍ** ﴾ [٣٥] ﴿ **فَجَعَلْنَهُمْ أَجْبَارًا** ﴾ [٣٦] [الواقعة: ٣٥، ٣٦] فدللت على الترتيب الذكري بمعنى أن المذكور بعدها مرتب على ما قبلها؛ أي ترتب على نداء نوح # أنه يدعو ربه بأن ابنه من أهله، ﴿ **فَقَالَ**

رَبِّ إِنِّي أَبْنَى مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ [هود: ٤٥] فإنه يسأل ربه بِحُجَّتِهِ نجاته ابنه بعاطفة الأبوة.

سادساً: قالوا: الفاء تأتي بمعنى "ثم" أرباب الفصاحة والبلاغة يقولون أن الفاء فيها مهلة، ولكنها ليست كـ"ثم"، فالفاء لترتيب وثم لترتيب أيضاً، ويفرقون بينهما بأن الفاء للتعقيب وثم للتراخي، أي هناك مهلة وفترة. والتدقيق أن الفاء أيضاً فيها مهلة وفيها فترة، ولكنها ليست كـ"ثم" فبحد عبارة الزمخشري: "وتنفرد ثم بالمهلة وقد يكون مع الفاء مهلة"، الآية قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠] ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ فتعاورت الفاء وثم على الموضعين، ويستدل بوقوع الفاء محل ثم، بقوله تعالى أيضاً: ﴿فَخَلَقْنَا التُّفُفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤] ومعلوم أن هناك فرقاً زمنياً بين هذه المراحل في تكوين الجنين.

حروف العطف (ثم، أو، أم، بل، لكن، لا)

حرف العطف "ثم":

"ثم" اشتهر أنها للترتيب والتراخي، فتأتي للزمان المتراخي أي: فيه مهلة بينه وبين ما قبله كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشَرُهُ﴾ [٢٢] ﴿عَبَسَ: ٢٢﴾، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤] ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٩٢] ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي﴾ [الشعراء: ٨١] ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١] فهنا دلالة في أن "ثم" تستخدم للتراخي.

ف"ثم" تأتي أيضاً للترتيب الذكري: فلا تفيد التراخي والمهلة، ولا تفيد أن الثاني بعد الأول، بل ربما يكون قبلها، ويُستدل على ذلك بقوله تعالى:

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّعِقَةَ يُظْلِمُهُمُ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجَلَ مِنْ بَعْدِ ﴾ [النساء: ١٥٣]،
 وكذلك قوله ﷻ: ﴿ كَتَبَ أَحْكَمَتَا ابْنِهِ ثُمَّ فَصَلَتْ ﴾ [هود: ١]، وقوله سبحانه:
 ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ﴾ [الأنعام: ٢] فقضاء الآجال قبل الخلق،
 كما صح في الحديث القدسي، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ
 الْيَقِينِ ﴾ [٧] ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ [التكاثر: ٧، ٨].

فالسؤال عن النعيم قبل الرؤية، وكذلك ثم تستخدم بمعنى الواو، قال تعالى:

﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٣]، وقال ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ
 حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وقال ﷻ: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ
 نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [٨] ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ﴿٩﴾ [السجدة: ٨، ٩]
 وقد تكون على أصلها معطوفة على قوله تعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ [٧]
 ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ﴿٩﴾
 [السجدة: ٧ - ٩] فخرجت على قولين أن ثم بمعنى الواو أي: وسواه ونفخ فيه من
 روحه أو أنها معطوفة على قوله: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ [٧].

كذلك ثم تأتي لمعنى الاستبعاد: أي: استبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما
 قبلها، وعدم مناسبتها لها ويعبر عنها بتفاوت المرتبة بينهما، قال تعالى: ﴿ وَأَنْتُمْ
 تَشْهَدُونَ ﴾ [٨٤] ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴿٨٥﴾ [البقرة: ٨٥]، ﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا
 رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٣] فبين التوبة وطلب المغفرة بون بعيد. كذلك تأتي
 للتراخي في الرتبة لا في الزمان؛ يعني لا يُشترط أن تكون "ثم" تدل على التراخي
 في الزمن فقد يكون التراخي تراخياً في الرتبة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ [٢٥]

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال ﷺ: ﴿ الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ [١٢] ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [١٣] [الأعلى: ١٢، ١٣] فالترجح بين الموت والحياة أفضح من إصلاء الجحيم - والعياذ بالله.

حرف العطف "حتى":

و"حتى" لم ترد عاطفةً في كتاب الله ﷻ ومن الجميل أن فريقاً من النحاة لا يثبتون "حتى" من الحروف العاطفة.

حرف العطف "أو":

بعد ذلك تأتي لـ "أو وأم"؛ "أو": إما أن تقع بعد الطلب أو تقع بعد الخبر؛ فإن وقعت بعد الطلب تفيد إما التخيير أو الإباحة، وإن وقعت بعد الخبر تفيد الشك ومعان أخرى، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٠]، وقوله ﷺ: ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء: ٨٦]، وقوله ﷺ: ﴿ فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١] لو نظرت في الآيات الكريمة تجد امتناع الجمع بين الشيئين؛ بين الاستغفار وعدمه وبين التحية بأحسن أو مجرد الرد وبين النفور: ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١] متفرقين أو مجتمعين.

فهناك فرق بين التجمع والافتراق؛ فلذلك قالوا: تدل على التخيير إذا امتنع الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، ومثّلوا له بقولهم: تزوج زينب أو أختها، فلا يجوز أن تجمع بين الأختين، وقالوا: إذا جاز الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، فهي تدل على الإباحة، ويمثّلون له بقولهم: جالس العلماء أو الزهاد،

فإنه يجوز أن تجالس الفريقين، ومما يحتمل ذلك في كتاب الله ﷻ قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] فيجوز لك أن تقتصر على الواحدة أو على ما ملكت اليمين، أو أن تجمع بينهما؛ أن تتزوج واحدة وما معك من ملك اليمين، فكان ذلك دليلاً على أنها تفيد الإباحة، هذا بالنسبة لـ "أو" في وقوعها بعد الطلب.

أما إذا وقعت بعد الخبر لها معانٍ، تفيد الشك كقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْسَ بِيَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، وكذلك تفيد الإبهام كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] وذلك إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى، فهذه الآية الكريمة يستشهد بها على ذلك، فإن رسولنا ﷺ يعلم من هو الذي على هدى، ولكن استخدمت "أو" هنا للإبهام على السامع.

كذلك تعطي معنى التفصيل، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] ﴿قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] فتفصيل الأقوال التي قيلت: ﴿قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [٥٢] بعضهم قال: ساحر، وبعضهم قال: مجنون، وهم قالوا القولين؛ قالوا بأنه ساحر وقالوا بأنه مجنون، فأفادت تفصيل قولهم. كذلك تفيد "أو" التقسيم أو التنويع، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]. كذلك تفيد الإضراب كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] أي: بل يزيدون، الإضراب أي: أن تكون بمعنى "بل" وكقوله تعالى: ﴿كَذَرِكُمْ أَبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] أي بل أشد ذكراً، وقوله تعالى: ﴿كَلِمَاحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ١٧٧] بل هو أقرب.

وكذلك تكون بمعنى الواو، إذا عطف ما لا بد منه ويحتملها، كقوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿فَتَبَلَّغُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران: ١٦٧]، ﴿فَتَوَكَّلْ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩] قال: ساحر ومجنون، بدليل قوله تعالى حكاية عنه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، وقوله كذلك: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] فهنا يقولون: إن "أو" بمعنى الواو، ويمثل أيضاً له بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمْرًا بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [العلق: ١١، ١٢] أي وأمر بالتقوى.

لعلك لاحظت مما ذكرت لك من معاني "أو" أن الحرف قد يكون له أكثر من معنى، فهذا هو في الحقيقة سر الإعجاز في استخدام هذه الحروف؛ أن الحرف يأتي في موضع واحد يحتمل كذا وكذا وكذا، مما يؤدي إلى توفير المعاني مع اتحاد اللفظ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز اللغوي، وأمثلة لك بهاتين الآيتين قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥] "أو" هنا تحتمل التفصيل وتحتمل التخيير وتحتمل الإباحة وتحتمل الإبهام على المخاطب، كذلك في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٠] فتحتمل التخيير أو الإباحة أو الإضراب.

كذلك من اللطائف أن هذا الاستخدام يؤدي إلى ما ينبني عليه من أحكام، استخدام هذا الحرف هل هو للتخيير أم للإباحة أو للتقسيم، هذا يؤدي إلى ثمة نعرفها في الخلافات الفقهية بين الفقهاء: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فهنا الذي يقع في محذور من محظورات الإحرام أيكون الأمر بالنسبة له على التخيير بين أي كفارة من الثلاث؛ إما أن يصوم أو يتصدق أو يذبح، وهذا

المقصود بالنسك، كذلك قول الله ﷻ: ﴿فَكَفَّرْتَهُمْ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، وكذلك كفارة اليمين كما أخبر المولى ﷻ.

حرف العطف "أم":

"أم" تأتي إما متصلة أو منقطعة، والمتصلة هي التي تسبقها همزة التسوية، قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]، وقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، وكذلك التي يتقدم عليها همزة يُطلب بها وبـ أم التعيين؛ أي يراد بها الإجابة عن شيء معين، وتسمى المعادلة؛ لأنها تعادل الهمزة في إفادة التسوية، وذلك كقوله تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ﴾ [النازعات: ٢٧]، وكقوله تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ [م نَحْنُ الْخَالِقُونَ] [الواقعة: ٥٩]، وهناك فرق بين التي يتقدمها همزة التسوية والتي يتقدمها همزة يُطلب بها وبـ أم التعيين، هو أن الواقعة بعد همزة التسوية لا تستحق جواباً كما ذكرنا من الآيات، والواقعة بعد همزة التسوية لا تقع إلا بين جملتين؛ أما التي يُراد بها التعيين فقد تقع بين مفردين وتستحق الجواب؛ لأنه يُطلب بها الجواب.

أما "أم" المنقطعة فهي تأتي على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن تكون مسبوقه بخبر كقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأرِيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٢] أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ﴾ [السجدة: ٢، ٣].

النوع الثاني: أن تكون مسبوقه بهمزة لغير استفهام كقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥].

النوع الثالث: أن تكون مسبوقه باستفهام بغير الهمزة، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَوَىٰ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد: ١٦].

ومعنى أم المنقطعة الذي لا يفارقها هو الإضراب، فهي تفيد الإضراب، كقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَوَىٰ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ [الرعد: ١٦] فإذا تأملت الآية الكريمة تجد في قوله تعالى: ﴿ أَمْ هَلْ سَوَىٰ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ في معنى: بل هل تستوي الظلمات والنور و﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ بل جعلوا لله شركاء؛ لأنهم اعتقدوا هذا الاعتقاد الباطل، والله ﷻ يخبرهم عن تصوير الإيمان والكفر بالظلمات والنور والأعمى والبصير، أو أن تكون متضمنة لمعنى الاستفهام الإنكاري، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْأَبْنَاؤُا ﴾ [الطور: ٣٩] فالتقدير: بل أله البنات ولكم البنون؟ هذا بالنسبة لـ "أم" ويشار إلى أنها قد ترد محتملة للاتصال والانقطاع، ويُستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَخَذْتُم مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠] فيجوز في "أم" أن تكون معادلة، بمعنى أي الأمرين كائن على سبيل التقرير لحصول العلم بكون أحدهما، ويجوز أن تكون منقطعة كذلك.

حرف العطف "بل":

و"بل" من الحروف التي لا يجزم باستخدامها عاطفة في كتاب الله ﷻ فابن مالك يرى أنها وقعت في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ [ذکر اسم ربه فصل ١٥] بل تَوَثَّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٦]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا كَنْبٌ يَطَّوِقُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يُظَاهِمُونَ ﴾ [بل قلوبهم في غمق] [المؤمنون: ٦٢، ٦٣] وأنكر ابن هشام

ذلك ؛ لأنها فيما ذكر حرف ابتداء وليست عاطفة ، فالتقدير: بل أنتم تؤثرون الحياة الدنيا، وكذلك ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ﴾ فالعاطفة لا بد أن يليها مفردٌ، سواء سبقت بنفي أو نهي أو لم تسبق، وعلى ذلك الصحيح أنها لم تقع عاطفة في كتاب الله ﷻ.

كذلك حرف "لكن" الذي يأتي لعطف المفردات بشرطين:

الشرط الأول: أن يتقدمها نفي أو نهي.

الشرط الثاني: وألا تقترن بالواو فلا تكون ولكن، وعلى ذلك ففي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف: ١١١]، وفي ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] الصحيح أن المنصوب بعد "لكن" هو خبر لكان المحذوفة، ولكن كان رسول الله، ولكن كان تصديق الذي بين يديه.

حرف العطف "لا":

وهذا الحرف أيضاً استخدامه كحرف عطف له شروط: أن يتقدمها إثبات، وألا تقترن بعاطف، وأن يتعاند متعاطفاها، أي: يختلف ما قبلها عما بعدها، فلا يقال: "جاءني رجل لا زيد" وعلى هذا فالصحيح أيضاً أنها بهذه الشروط لم تستخدم عاطفة في كتاب الله ﷻ وكذلك الحرف حتى ولك لتبين سر الإعجاز أن تلمح شيئين:

أولاً: تنوع المعاني في استخدامها؛ فتارة تكون بمعنى كذا وبمعنى كذا وتارة يحتمل الموقف أو الموضع الواحد أكثر من معنى.

ثانياً: القاعدة التي ذكرناها آنفا أنك إذا قلت بأن الفاء بمعنى ثم أو ثم بمعنى الواو؛ فإنك لا يسعك أن تضع ما هي بمعناها، وهذا سر من أسرار الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم؛ أن هذا الحرف إن كان بمعنى كذا فلا يستطيع ما هو بمعناه أن يؤدي الغرض أو أن يؤدي الوظيفة التي أداها هذا الحرف في نسقه، وهذا ما كان مبنياً على ما ذكرناه من التنسيق الصوتي ومن الإطار - الشكل - الذي خرج في صورته كلام الله ﷻ.

حروف المعاني (٢)

عناصر الدرس

١٤٩	العنصر الأول : حروف النداء
١٥٢	العنصر الثاني : حروف النفي
١٥٨	العنصر الثالث : حرفا الشرط: "إن" و"لو"
١٦١	العنصر الرابع : حرفا الاستفهام "الهمزة"، و"هل"

حروف النداء

حروف النداء عند العرب ستة: "أيا" و"هيا" وينادى بها البعيد، والهمزة و"أي" وينادى بها القريب، و"يا" للبعيد والقريب، و"وا" للندبة، هذا المشهور في تقسيم حروف النداء، ولكن الناظر في كتاب الله ﷻ لا يجد حرفاً استخدم للنداء سوى حرف يا، ولذلك كان القول: بأنه إذا كان حرف النداء محذوفاً لا يقدر سوى يا، فلا يصح تقدير أي حرف سوى يا، أما الحرف الآخر الذي ذهب البعض إلى أنه وقع في كتاب الله وهو النداء بالهمزة، وذلك على قراءة الكسائي: "أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ" [الزمر: ١٩] "أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ" قالوا: نداء يا من هو قانت آتاء الليل ساجداً وقائماً، وقالوا: إن الهمزة للاستفهام، فكان ذلك احتمال بأن تكون للنداء أو للاستفهام.

حرف النداء "يا" استخدم في كتاب الله ﷻ دون سائر حروف النداء، وكان له بعض السمات التي أحصاها شيخنا محمد عبد الخالق عضيمة، في كتابه (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) من ذلك: أن جميع الأنبياء - عليهم السلام - ناداهم الله ﷻ بأسمائهم عدا رسولنا الكريم ﷺ فقد نودي بوصفه تشریفاً وتكريماً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ﴾ [المزمل: ١].

كذلك إن لفظ "رب" يكثر في ندائه حذف حرف النداء، فلم تثبت "يا" مع لفظ "رب" إلا في موضعين وهما: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَذَا قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨].

كذلك استُخدم حرف النداء مع غير العاقل كثيرا في القرآن الكريم إما على سبيل المجاز، وإما على أن الله ﷻ يخلق في هذه المخلوقات ما يجعلها تفهم خطابه ﷻ، كقوله تعالى: ﴿يَجِبَالُ أَوَّيْ مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] ﴿يَنَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلْمًا عَلَيَّ إِِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسْمَاءَ أَقْلَعِي﴾ [هود: ٤٤].

كذلك يكثر حذف حرف النداء بدلالة السياق كقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنَّا هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وقد اجتمع الحذف مع أيها ومع العلم، في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦] ومما أشار إليه أيضاً أن حرف "يا" إذا وليه "ليت" أو وليه فعل كقراءة: "ألا يا اسجدوا" في سورة النمل أن حرف "يا" في هذه الحالة يكون للتنبيه على الصحيح، وليس للنداء.

يشير - رحمه الله - إلى الخلاف الواقع في هذه المسألة في نحو قوله تعالى: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦] ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] وقراءة "ألا يا اسجدوا" فهنا للنحاة مذهبان أو لأهل التوجيه الآية مذهبان:

المذهب الأول: أن هناك نداء محذوف، ودخل عليه حرف النداء؛ لأن حرف النداء يختص بالاسم.

المذهب الثاني: أن "يا" هنا ليست للنداء، وإنما هي للتنبيه. وهو المذهب الذي اختاره الشيخ وعليه المحققون من المتأخرين.

بقي أن نشير في النداء على أشياء يستشفها المرء من استخدامات حرف النداء
مثال:

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [البقرة: ١٠٤] هذه الآية الكريمة تجد أنها دائماً تقع في أول السور، ولم تقع وسط الآيات، إلا في آية واحدة في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلَواتٌ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ وَسَلَامَةً عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. كأن ذلك اختصاص للنبي ﷺ فبندائه صلوات الله وسلامه عليه. وكما قلت لكم: إن مثل هذا من اللطائف التي كما قيل عنها تُشَمَّم ولا تؤكل، فهي لطيفة يشار بها.

ويشار كذلك من لطائف استخدامات النداء، أن اقتصار كتاب الله ﷻ على الحرف يا فيه إشعار بأن هذا الحرف يُستخدم في سائر الاستخدامات دون غيره، فكأنك به تجده للقريب محل، أي والهمزة، ولتنظر مثلاً هذا الحوار بين إبراهيم # وأبيه: ﴿ يَتَأْتِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [٤٥] ﴿ لَمْرِيم: ٤٥ ﴾ ﴿ يَتَأْتِي إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ [مريم: ٤٣] إلى آخر سياق الآيات فهذا النداء به من الشفقة والحنان، والمودة من إبراهيم # مع أبيه ما تراه.

وترى المقابلة في الاستخدام: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ يَتَابِعُونَكَ لِيُنزِلَنَّكَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مِّن سِوَاهِ الْمَاءِ الَّذِي فَضَّلْنَا لَكَ ﴾ [مريم: ٤٦] فنداه باسمه، ولم يناده بـ"يا بني" مثلاً مقابلة لما نادى به إبراهيم #.

كذلك تجد هذا الحرف يستخدم للبعيد كما استخدم للقريب: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠] فكأنك تراه ينادي على قومه فيما يذكره المولى ﷻ في هذه الآية، ويصيح بهم ويطلب منهم أن يتبعوا من أرسلهم الله ﷻ وكذلك: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠].

إذا رأيت سياق الآيات في سورة القصص يتبين لك أن الرجل ينادي على موسى # ويُرشده إلى الخروج قبل أن يصيبه الضرر من فرعون وقومه.

هذا بالإضافة إلى النظر لاستخدامات هذا الحرف في القرآن الكريم، تبين لك أنه حرف يسد مسد سائر حروف النداء؛ حتى الخلاف المعلوم في وضع الندبة أنها تختص بها "وا" دون غيرها كقولنا: "وا عمراه" "وا أسفاه" "وا حسرتاه" إلى آخره تجد أنها جاءت في القرآن الكريم: ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٦] فهذا الاستخدام أيضاً يرجح من ذهب إلى استخدام غير "وا" في الندبة بدلالة السياق؛ فهو يتحسر على نفسه. نكتفي بهذا المقدار في الكلام عن حروف النداء.

حروف النفي

حروف النفي ستة: يشترك اثنان في نفي الحال، وهما: "ما، وإن" واثنان في نفي المستقبل وهما: "لا، ولن"، واثنان في نفي الماضي وهما: "لم ولما"، هذا التقسيم الذي اختاره صاحب التخمير، أو شارح المفصل للزمخشري، وكما معلوم أن تقسيم هذه الحروف إلى أبوابها هو يعتبر ما تفرد به الزمخشري في تقسيمه في (المفصل) لحروف المعاني؛ بخلاف ما قسّم أصحاب كتب الحروف عندما وزعوها تبعاً لحروفها وتركيبها: أحادية، وثنائية، وثلاثية، ورباعية. أو تبعاً لحروف المعجم: الهمزة المفردة، ثم الهمزة مع حرف آخر، ثم الباء هكذا إلى نهاية حروف المعجم.

فما قسم أحد هذا التقسيم تبعاً للأبواب إلا الزمخشري في مفصله، مما يدل على حاسته البلاغية، وحسّه اللغوي في تقسيم الحروف بأنها تنسب لبابها؛ فاختر

هذا التقسيم، وكان لمن بعده آراء مع هذا التقسيم؛ لكن أولاً نقف مع الفروق بين هذه الحروف التي تشترك في معنى، أي: "لم، ولما" يشتركان معاً في نفي الفعل المضارع، وقلب زمنه إلى الماضي.

فعندما نقول: "لم يحضر" فقد نفينا حضوره، و"لما يحضر" كذلك نفي حضوره، فما الفرق إذاً بين لم ولما؟ يوجز الفرق بينهما في هذه العبارة الدقيقة: "أن لم لنفي فعل، ولما لنفي قد فعل". أي: عندما يقال لك: هل حضر محمد؟ تقول: لم يحضر. وإذا قيل لك: قد حضر محمد وأردت النفي قلت: لما يحضر محمد. أي: لما يحضر بعد محمد، فهذا ما فرق به بإيجاز بين لم ولما.

وتفصيل ذلك ذكرها البعض بأن بينها فروق تتركز في الآتي:

الفرق الأول: أن "لم" تقترب بأداة الشرط، و"لما" لا تقترب بأداة الشرط، قال تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ [المائدة: ٧٣] وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرِّسُولُ بِبَلَاغٍ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَاتُهُ﴾ [المائدة: ٦٧] ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ فاقترنت لم بإن، ولا تقترب لما بإن فلا يقال: إن لما، كذلك هذا الفرق الأول.

الفرق الثاني: أن "لم" تَحْتَمِلُ الاتصال والاستمرار إلى زمن التكلم، وتَحْتَمِلُ الانقطاع قبل زمن التكلم، قال تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيحًا﴾ [مريم: ٤] فهذا مستمرٌ إلى حال دعائه # رَبِّهِ، والانقطاع كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أما "لما" فمفنيها مستمر بها إلى الحال، أي: إلى زمن التكلم.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] فنفي الله ﷻ عنهم دعوى الإيمان: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ وأثبت لهم الإسلام: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ ﴾ أي: إلى أن يدخل الإيمان قلوبكم عند ذلك يصح إيمانكم، فهذا فرق أيضاً بين "لم" و"لما".

الفرق الثالث: هو أنّ منفي "لما" متوقع ثبوته بخلاف منفي "لم" قال تعالى ﴿ بَلْ لَمَّا يَدُفُّوْا عَذَابَ ۙ ﴾ [ص: ٨] فهم لم يذوقوه إلا أنه متوقع، وقال ﷻ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٤] وقال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فذلك فيه دلالة على إيمانهم فيما بعد.

وأنّ إيمانهم كان متوقعاً، أمّا منفي "لم" فلا توقع فيه؛ فهو ثابت ومستمر، قال ﷻ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الإسراء: ١١١] وقال سبحانه: ﴿ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص: ٣] وعاقب ابن هشام بأنهما في نفي المستقبل قد يكون هذا متوقعاً، أي: ما بعد "لما" بخلاف "لم" أما إذا نفي الماضي فهما سيان في نفي التوقع؛ فإذا كان الزمن الذي نفي هو زمن مضى بقريظة السياق وبقريظة المعنى؛ فإنّ ذلك يشترك فيه لم ولما دون توقع بينهما.

نأتي للحرفين التاليين اللذين هما لنفي الحال، وهما "ما" و"إن":

"ما":

ف"ما" تعمل بوظيفة نحوية معروفة؛ فتعمل عمل ليس مع الجملة الاسمية، وهي لغة الحجاز، هي لغة قريش، وجاء بها قوله تعالى: ﴿ مَا هُرِّبَ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ [المجادلة: ٢] بكسر التاء في "أمهاتهم" على أنها منصوبة لكونها خبر "ما" العاملة عمل

ليس ، وفي قوله تعالى: ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ [يوسف: ٣١] كذلك نصبت "بشراً" على أنها خبر لـ"ما" العاملة عمل "ليس" ولذلك شروط ولعملها ، شروط متوفرة في كتب النحو وليست من موضوعنا.

ولا تعمل "ما" مع الجملة الفعلية قال تعالى: ﴿ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] فيظل ما بعدها مرفوعاً ، ولا أثر لما عليه.

أما وظيفتها من حيث المعنى ؛ فإنها إذا نفت المضارع تجعله خالصاً للحال ، عند جمهور العلماء كقوله تعالى: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧] وكقوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَائِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧] البعض اعترض ذلك بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي ﴾ [يونس: ١٥] فإن الزمن هنا لم يخلص للحال بل هو مستمر ، وهذا النفي مستمر بعده.

"أن":

أما "إن" النافية فهي تدخل على الجملة الاسمية ، وعلى الجملة الفعلية ، واجتمع ذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس: ٦٦] فإن "إن" تكون بمعنى "ما" وجاءت مع الجملتين في قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ [النجم: ٢٣] هي جملة فعلية: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [النجم: ٦٦] جملة اسمية.

وأمثلة ذلك كثيرة فمثال دخولها على الجملة الاسمية: ﴿ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ [الملك: ٢٠] ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢] وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء: ١٥٩] أي: وما

أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] فالجملة اسمية.

ومثال دخولها على الجملة الفعلية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَرْدَنَّا إِلَّا الْحَسَنَى ﴾ [التوبة: ١٠٧] ﴿ إِنَّ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْشَاءً ﴾ [النساء: ١١٧] ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٢] ﴿ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥] أي : ما يقولون إلا كذبًا.

أما قول بعض أهل العلم بأن "إن" النافية لا تأتي إلا وبعدها "إلا" فذلك قول غير دقيق رده ابن هشام ، وحجته واضحة بكلام الله ﷻ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ [يونس: ٦٨] أي : ما عندكم ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مِمَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الجن: ٢٥] أي : ما أدري.

وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء: ١١١] أي : وما أدري لعله فتنة لكم ، فجاءت بمعنى ما ، أي : نافية مثل "ما" ومع ذلك لما يتبعها "إلا" كما اشترط من اشترط ذلك ، وآخر حرفين للنفي هما : "لا" و"لن" لا لنفي المستقبل ، و"لن" لنفي المستقبل ، إلا أن "لن" تُفيد تأكيد النفي ، واعتراض على ذلك ولكن ذلك هو السائد عند أهل هذا الفن ، في أن "لن" تُفيد تأكيد النفي ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [الكهف: ٦٠] وقوله تعالى في سورة يوسف : ﴿ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ [يوسف: ٨٠] فجاءت "لا أبرح" وجاءت "لن أبرح" وكلاهما لنفي المستقبل إلا أن لن أشد توكيداً في نفيها.

واختلف في كونها تفيد التأييد ، فكون "لن" تفيد التأييد هذا قول مرجوح ومردود بأدلة قوية ؛ لأن "لن" تتبعها حتى ، وحتى تفيد الغاية فلو كانت تفيد التأييد ما

تبعها حتى كما مثلنا بقوله تعالى: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ كذلك لفظ "لم" جاء معه الزمان محدوداً قال ﷺ: ﴿ فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْ سِيَّآ ﴾ [مريم: ٢٦] فخصص باليوم، ولو كانت للتأييد ما كان هناك تخصيص، وكذلك أنها تقترن بكلمة "أبداً"؛ فكونها للتأييد وتقترن بكلمة "أبداً" ذلك تكرار لا مسوغ له أو لا داعي له.

قال تعالى: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٥] فوجود أبداً يدل على أن "لن" لا تُفيد التأييد كما زعم من زعم ذلك.

بقي أن نذكر أن بعضهم ذهب إلى أن لن تُفيد الدعاء، واستدل بقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٧] على معنى "فلا تجعلني ظهيراً للمجرمين" وهذا القول أيضاً يُنظر فيه، ولكنه ذكر في استخدام لن بمعنى الدعاء بدلاً من النفي.

هذا الفرق بين "لا" و"لن" في الاستخدام أما "لا" فتستعمل كثيراً للنفي، وتأتي بصور شتى فتأتي عاملة عمل "إن" فيكون لها اسم وخبر، واسمها يكون منصوباً وخبرها مرفوعاً، ولم ترد في القرآن ناصبة، وإنما أتى اسمها مبنياً في محل نصب كقوله تعالى: ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف: ٩٢] ﴿ قَالُوا لِأَصِيرٍ ﴾ [الشعراء: ٥٠] وكقوله تعالى: ﴿ يَتَأَهَّلُ يَتْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٣].

كذلك تكون عاملة عمل ليس، وهذا له شروط معروفة في كتب النحو، وتأتي أيضاً للنفي على غير هذا؛ فيكون ما بعدها جملة اسمية أو فعلية، وإذا كانت جملة اسمية قد يأتي صدرها معرفة كقوله تعالى: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ [يس: ٤٠] ويكون اسمها نكرة كقوله تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ [الصفات: ٤٧] وتأتي نافية لجملة فعلية فعلها ماض كقوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴾ [القيامة: ٣١].

وكذلك تنفي المفردات ؛ فإذا نفت المفردات وجب تكرارها كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ ﴾ [البقرة: ٦٨] وكقوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴾ [٤٣] لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤] وكقوله تعالى : ﴿ وَفَكَهَمَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ [٣٢] لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴿٣٣﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]. وكقوله تعالى : ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور: ٣٥].

أما إذا كانت نافية لجملة فعلية فعلها مضارع ؛ فلا يجب تكرارها وتنفي مباشرة كقوله تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ ﴾ [النساء: ١٤٨] وكقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الأنعام: ٩٠]، هذا بالنسبة لاستخدامات "لا، ولن" في حال النفي، وهذه هي حروف النفي الستة "ما، وإن، ولا، ولن، ولما، ولم".

حرفا الشرط: "إن" و"لو"

نتقل بعد ذلك لحرفي الشرط : والشرط من الأشياء التي تختص بها الجملة الفعلية ؛ فالشرط له أدوات هذه الأدوات إما حروف، وإما أسماء، فموضوعنا حول الحروف، وحروف الشرط التي اتفق على حرفيتها نص الزمخشري على أنهما حرفان: "إن" و"لو" بالطبع هناك خلاف في "إذما" كأداة من أدوات الشرط الجازمة.

أما الجازمة ومتفق على حرفيتها اتفاقاً فهي "إن"، و"لو" لا تجزم وهو متفق على حرفيتها، فأوجز أو اختصر الشرط في حرفين هما: "إن" و"لو" فنأتي أولاً للكلام عن الحرف إن باعتبارها أساساً في معنى الشرط ؛ فحرف إن يأتي جازماً كقوله تعالى : ﴿ إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿ إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧] ﴿ وَإِن تَعُودُوا نَعُدَّ ﴾ [الأنفال: ١٩] وآيات كثيرة في كتاب الله ﷻ.

وكذلك إن يأتي بعدها "لا" ولا تؤثر في كونها شرطية كقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] ﴿إِلَّا نَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩] ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣] هكذا تزداد لا ولا تؤثر في كونها شرطية، وكذلك تدخل عليها ما النافية للتأكيد كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّدِيكُمْ مَنِّي هُدَىٰ فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

"إن" تتميز بأنها تدور حول المعاني المحتملة المشكوك في كونها، فلا يقال: إن طلعت الشمس آتيك. إلا إذا كان اليوم به غيم، ويقال: إن مات فلان يحدث كذا؛ لأن الموت، وإن كان متحقق الوقوع إلا أنه غير معلوم وقته، فهذا ما ميز به النحاة أن عن غيرها بإفادتها هذا المعنى، وهو معنى الشك، فهنا يأتي دور من يتناول النص القرآني، والآيات القرآنية؛ ليجيب عن هذه القاعدة أطلقت حول "إن" بأنها تفيد الشك.

هنا يعرض ابن هشام آيتين كانتا مجالاً خصباً لنقاش هذه المسألة في كون "إن" تُفيد الشك أم لا تفيده، وهو ما يقال اعترض بكذا، عندنا قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] هنا معنى الاحتمالية، أو معنى أنه أمر مشكوك فيه طبعاً لا يقبل، وهو فاسد مع هاتين الآيتين الكريميتين؛ فكيف تُخرَج؟

أولاً: مذهب الكوفيين: ذهبوا إلى أن "إن" هنا بمعنى إذ يعني: واتقوا الله إذ كنتم مؤمنين؛ إذ شاء الله دخولكم المسجد الحرام دخلتموه آمنين.

ثانياً: جمهور أهل العلم يرون إن هنا في الآيتين على معناها من معنى الشرط بينما أتت في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أنه شرط جيء به للتهيج والإلهاب، ومثلوا بمثال جميل كما تقول لابنك: إن كنت ابني فلا تفعل كذا.

فهذا يحركه لأن يفعل ما تطلبه ، فهذا مثال فهم به قوله تعالى : ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ أي : إن كنتم مؤمنين اتقوا الله ﷻ على سبيل الإشارة والتهييج والإلهاب ، والتحريك للتقوى بدافع الإيمان.

أما آية المشيئة ﴿ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ** ﴾ (٩١) فهذه يجاب عنها بأشياء كثيرة فمنها : أن ذلك تعليمٌ للعباد كيف يتكلمون إذا أخبروا عن المستقبل أنه إذا أراد أن يتحدث عن المستقبل ؛ فعليه أن يُقدّم المشيئة ، ويقول : إن شاء الله ، ومنها : أن أصل ذلك الشرط ، ثم صار يُذكر للتبرك به ، أن ذلك أصله شرط ، ولكنه ذكر للتبرك بهذا القول الكريم : إن شاء الله.

أو أن المعنى لتدخلن جميعاً إن شاء الله ألا يموت منكم أحد قبل الدخول ، يعني : أن ذلك خبر من الله ﷻ أن هؤلاء الصّحب الكرام سيدخلون المسجد الحرام ، ولن يموت أحد قبل هذا الدخول ، أو أن هذه العبارة من كلام الرسول الكريم ﷺ حين أخبرهم بالرؤيا التي رآها ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ** ﴾ [الفتح : ٢٧] هذا ما يتعلق بالكلام عن إن الشرطية.

أما "لو" فهي حرفُ شرط في المستقبل إلا أنّها لا تجزم ، فهذا فرق بينها وبين "إن" في العمل وهو أن لو لا تجزم وإن تجزم ، قال الله ﷻ : ﴿ **وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ** ﴾ [النساء : ٩] أي : وليخش الذين إن شارفوا وقاربوا أن يتركوا ، وهنا يلجأ إلى القول بالمشاركة على الترك ، وليس بالترك الواقع ؛ لأنّ الخطاب للأوصياء ، وإنما يتوجه إليهم قبل الترك ؛ لأنهم بعد تركهم الذرية يكونون أمواتاً ؛ فلا يتوجه إليهم خطاب.

حرفاً الاستفهام "الهمزة" و"هل"

الاستفهام كما تعلمون هو طلب الجواب ؛ فالذي يستفهم يطلب جواباً عن سؤاله ، وهذا على حقيقته لا يقبل حمله على كلام الله ﷻ ومن ثم يخرج الاستفهام عن حقيقته ، إلى معان مجازية ؛ اهتم أهل هذا الشأن ببيان معاني أداتي الاستفهام من الحروف ، وهما "الهمزة" و"هل" وأفرد على سبيل المثال الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) فصلاً وتحدث فيه عن الهمزة ، وكذلك اهتم أهل كتب المعاني ببيان معاني "الهمزة ، وهل" في استخداماتها في كتاب الله ﷻ.

فنبداً في الكلام عن "الهمزة" ؛ لأنها أعمُّ في الاستفهام من "هل" فهي تقع مواقع الاستفهام كلها ، بخلاف "هل" فيُستفهم بها عن الإيجاب ، وعن النفي :

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٢٨] ﴿ الْأَعْرَافُ : ٢٨ ﴾ ﴿ أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ [الحجرات: ١٢] وهذا في الموجب وأيضاً تستخدم مع النفي :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر: ٦] ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ [التين: ٨] ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦] ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢].

والاستفهام بـ"هل" لا يكون مع النفي ، وإنما يكون مع الموجب ، أما الهمزة تنفرد عن هل بهذه الميزة ، وكذلك الهمزة تقع قبل الواو ، قال تعالى : ﴿ أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٠] وتقع قبل الفاء قال تعالى :

﴿ أَمَّنْ يَمشِي مَكْبَأً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢] أو

ثم قال تعالى : ﴿ أَتَمُرُّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ﴾ [يونس: ٥١].

ولا تقع "هل" في هذه المواقع ، كذلك الهمزة تُحذف إذا دل عليها دليل ، بخلاف "هل" وقد حمل بعضهم عليها على ذلك ، قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي : أتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ، فحذفت الهمزة لدلالة عليها بسياق الكلام .

معاني الهمزة :

أولاً : تأتي لمعنى التسوية ، والتسوية بمعنى أنها تسبق بكلمة سواء ، أو ما يؤدي معناها ، يعني ليست قاصرة على أن تُسبق بكلمة سواء ؛ فإذا سُبقت بكلمة نحو "ما أبالي" "ما أدري" "ليت شعري" فهذه الكلمات تؤدي أيضاً معنى التسوية مع استخدام الهمزة ، قال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [المنافقون: ٦] فهذه الهمزة الداخلة على جملة يصح حلول المصدر محلها ، هذه الهمزة تسمى همزة التسوية ، ولا يشترط أن تسبق بكلمة سواء بعينها . فهنا المعنى سواء عليك استغفارك أو عدمه .

ثانياً : تفيد معنى الإنكار : الإنكار نوعان :

النوع الأول : إنكار إبطالي ، فهي تفيد معنى الإنكار الإبطالي ، ومعنى الإنكار الإبطالي : أن ما بعدها غير واقع ، وأن مدعيه كاذب قال تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَكَ رِبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثَاءً ﴾ [الإسراء: ٤٠] وقال سبحانه : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلرَّبُّكَ أَلْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ [الصفات: ١٤٩] وقال سبحانه : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور: ١٥] وقال سبحانه : ﴿ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ ﴾ [الزخرف: ١٩] وكذلك في قوله سبحانه : ﴿ أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ [الحجرات: ١٢] وقوله سبحانه : ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ [ق: ١٥] .

كل ذلك إنكار إبطالي لماذا؟ لأن ما بعد الهمزة غير واقع، وأن الذي ادعى هذا الكلام هو كاذب، فهؤلاء الذين ادعوا أن الله ﷻ اتخذ من الملائكة إناثاً، وأنه اصطفاهم بالبنين هؤلاء كاذبون، وكذلك كل من افتري كذباً؛ فكذب بهذا الاستفهام الإنكاري كقوله تعالى: ﴿ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف: ١٩] فهم لم يشهدوا خلق الملائكة، وإنما ادعوا ذلك ادعاءً، وهم كاذبون فيه، هذا ما يسمى بالإنكار الإبطالي.

النوع الثاني: الإنكار التويخي فما بعد الهمزة واقع، ولكن فاعله ملوم أو يستحق أن يعاتب أو أن يوبخ، فقال ﷻ: ﴿ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنْحَسِبُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥] وقال سبحانه: ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠] وقال سبحانه: ﴿ أَيْفَكَاءَ إِلَهِةً دُونَ اللَّهِ يُرِيدُونَ ﴾ [الصافات: ٨٦] وقال سبحانه: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥] فهم فعلوا هذه الأشياء، ويستحقون أن يوبخوا عليها؛ فمن ثم تسمى الهمزة هنا للإنكار التويخي.

ثالثاً: تأتي الهمزة للتهكم كقول قوم شعيب له #: ﴿ يَشْعِيبُ أَصْلَوْتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [هود: ٨٧] ﴿ أَصْلَوْتِكَ تَأْمُرُكَ ﴾ هم يتحكمون عليه #.

رابعاً: تُستخدم الهمزة للأمر قال ﷻ: ﴿ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [آل عمران: ٢٠] أي: أسلموا، ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ أي: قل لهم: أسلموا؛ فإن أسلموا فقد اهتدوا. فالهمزة هنا استفهام دلالة الأمر.

خامساً: تُستخدم الهمزة على معنى التعجب استفهام غرضه التعجب، كقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ [الفرقان: ٤٥]

سادساً: تُستخدم أيضاً بمعنى الاستبطاء؛ فإن يستفهم بها عن أمر تباطأ المخاطب في فعله، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦].

سابعاً: تستخدم الهمزة للتقرير، والتقرير هو: حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه، هنا يجب أن يليها الشيء الذي تقرره به، يعني حمل المخاطب على معنى يريده السامع؛ فتذكر الشيء الذي تريده أن يقربه كقوله ﷺ: ﴿ ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٢] فهم عندما وجهوا هذا الخطاب لإبراهيم # لا يسألون عن الفاعل، فهم يعلمون أن الفاعل هو إبراهيم # ﴿ سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠] ﴿ أَعْيُنُ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٠، ٦١].

فهنا طرحوا هذا السؤال على إبراهيم # ليأخذوا منه إجابة، هذه الإجابة يستطيعون بها أن يفعلوا ما يريدون فعله معه، فهنا لو لم يعلموا الفاعل كان هذا استفهاماً حقيقياً، ولو كانوا يعلمون فلعلمهم أن إبراهيم # هو الذي فعل ذلك، وجهوا إليه السؤال لحمله على ما يريدون.

ومن أمثله أيضاً في القرآن: قول الله ﷻ لعيسى #: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ الْنَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦] فالله ﷻ يعلم أن عيسى # لم يقل هذا القول، وإنما هم افتروا عليه هذا الافتراء، فسأله المولى ﷻ في هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة، كي يكون على مرأى ومسمع

من الناس جميعاً؛ ليجيب # بما أجاب؛ فيكون في ذلك حجة على بني إسرائيل الذين اتهموه هذا الاتهام الباطل.

هذا بالنسبة للهمزة أما "هل" فهي حرف الاستفهام الثاني، ويختلف عن الهمزة أيضاً بأشياء:

أولاً: أن "هل" تقع بعد أم المنقطعة بخلاف الهمزة، قال الله ﷻ: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَوَىٰ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد: ١٦].

ثانياً: أن يُراد بالاستفهام بها النفي؛ بخلاف الهمزة ومن ثم كثر نقضها بـ"إلا" فهل وإلا استفهام غرضه النفي، كقوله ﷻ: ﴿ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿ [الأعراف: ٥٣] ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] وقوله سبحانه: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] ﴿ وَهَلْ نُجِزِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧] فهل هنا يراد بها النفي.

ثالثاً: جاءت بمعنى النفي دون نقضها بـ"إلا" فالكثير نقضها بـ"إلا" وأتت في مواضع يراد بها النفي، إلا أنها لم تنتقض بإلا كقوله ﷻ: ﴿ هَلْ يَدَّبَّهِنَّ كَيْدُهُمَا يَعِظُ ﴾ [الحج: ١٥] ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ ، ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ [النحل: ٧٥] فكل ذلك محمول على معنى النفي.

رابعاً: تأتي بمعنى الأمر أيضاً كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٤] أي: أسلموا ﴿ قَالَ هَلْ

أَنْتُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطَّلِعَ فِرْعَاؤُهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ [الصافات: ٥٤، ٥٥] قال: اطلعوا فاطلعوا فراه في سواء الجحيم، فالاستفهام هنا غرضه الأمر.

خامساً: تأتي بغرض التوبيخ قال ﷺ: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣٤] هذا يُسمى بالإنكار التوبيخي الذي ذكرناه قبل مع الهمزة، وقال ﷺ حكاية عن يوسف # قائلاً لإخوانه: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ١٨٩] فهنا يوبخهم # على فعلتهم التي علموها من فعلهم يوسف # وهو صغير.

كذلك قوله ﷺ: ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣].

سادساً: تأتي "هل" أيضاً للتقرير كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر: ٣] وقوله ﷺ: ﴿هَلْ تُؤَبِّبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦].

سابعاً: تأتي هل للتمني كقوله ﷺ: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: ٥٣].

ثامناً: تأتي للتأدب وحُسن السؤال كقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

تاسعاً: تأتي للنصح والإرشاد كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ [طه: ٤٠] وكقول موسى # لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ﴾ [النازعات: ١٨] وكقول إبليس لآدم #: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

عاشراً: تأتي "هل" بمعنى قد، فتستخدم للتحقيق بدلاً من "قد"؟ هذه مسألة مشهورة بين المفسرين، واستدلوا لها بآيات عديدة حتى إن بعضهم قال: إن كل "هل أتاك" بمعنى قد أتاك ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [١٥] ﴿النزعات: ١٥﴾ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [٢٤] ﴿الذاريات: ٢٤﴾ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [١] ﴿الغاشية: ١﴾ أن هذه الآيات تحمل على معنى قد، ويحمل كذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ٤١] أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر.

وبعضهم حمل قول يوسف # : ﴿هَلْ عَلَّمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٩] أي: قد علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه، إنه متحقق من أنهم يعلمون فعلتهم التي فعلوها.

الحادي عشر: تأتي "هل" استفهامية لفظاً خبرية معنى، وهذا الذي يقال: أسلوب إنشائي لفظاً وخبري معنى، في قول الله ﷻ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارِعِ كُفْرِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]

فأتى المولى ﷻ بالاستفهام؛ لكونه أوقع في النفس مع ما هو معلوم من أن الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله، هو التجارة التي تنجي من العذاب الأليم؛ فأتى الخبر في صورة الإنشاء.

هذه بعض اللطائف التي أظهرها بعض العلماء في استخدام حرفي "الهمزة، وهل" كحرفين للاستفهام في أساليب القرآن الكريم، وفي كتاب الله ﷻ وهذه هي موضوعنا الذي يهمنا، وهو أن حروف المعاني باستخدامها هذا وجه من وجوه

الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، تجعل كل من أراد أن يدخل إلى كتاب الله، وأن يتحدث في تفسيره لا بد أن يقف على هذا العلم، ويُدرك هذا الشيء، فهو مما يلزم المفسر.

وعبارة الزمخشري المشهورة: "إنَّ المُفسر لو اعتلك اللغة بفكيه، وكان أنحى من سيويه لزمه أن يعرف هذين العلمين: علم المعاني، وعلم البيان؛ فإن هذه العلوم هي التي تمكن من فهم كلام الله ﷻ وأساليبه".

حروف المعاني (٣)

عناصر الدرس

- العنصر الأول : حروف التوكيد، وحروف الجر والقسم ١٧١
- العنصر الثاني : كيف كان استخدام حروف المعاني وجهًا من ١٨٢
وجوه الإعجاز اللغوي؟

حروف التوكيد، وحروف الجر والقسم

حروف التوكيد:

منها ما يؤكد الجمل، ومنها ما يؤكد الأفعال، ومنها ما يؤكد المفردات، وجُملة حروف التوكيد: "إِنَّ وَأَنَّ"، ونون التوكيد واللام "إِنَّ" و"أَنَّ" من أدوات التوكيد التي تؤكد بها الجمل: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ [العصر: ١، ٢]. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالتَّاسِ لِرءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٧٣﴾ [البقرة: ١٧٣].

هذه الآيات الكريمة تؤكد مضمون ما بعدها من جملة اسمية دخلت عليها إِنَّ فأكدتها، فاستخدم بها أسلوب التوكيد، وكذلك أَنَّ والفرق بينهما هو أَنَّ إِنَّ تَقَعُ في بداية القول، أو ما يحلُّ محله، أما "أَنَّ" فتَقَعُ موقعَ المفرد الذي يُؤول بمصدرٍ؛ بمعنى أنها لا يُؤتى بها أول الكلام، وإِثْمًا تكون وسطاً.

ونون التوكيد يمتنع مجيئها مع الفعل الماضي، إلا ما سُمع من بعض كلامهم، ولكنَّ الجمهور على امتناع توكيد الماضي، ويجوزُ مطلقاً أن تؤكد الأمر، ولها مع المضارع أحكام؛ فيؤكد بها الفعل المضارع وجوباً بشروط كقوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧] فأكد الفعل "أكيد" بنون التوكيد الثقيلة؛ لوقوعه بعد القسم، واتصاله به بلا فاصل، فأكد باللام ونون التوكيد الثقيلة.

كَذَلِكَ يُؤكِّد الفعل المضارع بما هو قريب من الوجوب، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٦] فينزغَنَّكَ مؤكد بالنون الثقيلة، وكذلك يؤكد جوازاً بعد الطلب وما في معناه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا

تَحَسَّبْتَ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٢﴾ [إبراهيم: ٤٢] هذا بالنسبة لنون التوكيد.

أما "اللام" وهي ما تُسمى بلام الابتداء، وتكون لتوكيد مضمون الجملة، وتدخل مع "إن" فلا تليها بل تقع بعد اسمها، وإن جاءت على الاسم لا يكون ذلك إلا إذا تقدم الخبر على الاسم، وذلك إذا كان الخبر شبه جملة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦].

وأيضاً تقع على الخبر كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧] ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [٣٩] [إبراهيم: ٣٩] وتدخل أيضاً على خبر إن إذا كان جملة فعلية كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل: ١٢٤] ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٣] وتدخل أيضاً على الخبر شبه الجملة كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [٢]. هذا بإيجاز الكلام عن حروف التوكيد؛ لأننا سنتعرض لها تفصيلاً.

حُرُوفُ الْجَرِّ:

هي أثنى الحروف في هذا الباب، واهتم أهل اللغة بالحديث عن معانيها، فكل حرف له معنى، ويأتي بمعانٍ آخر؛ ولا ضابط في ذلك إلا السياق.

حرف الجر "من" ولها معانٍ منها:

١- معنى التبويض كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَنْفَقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] التبويض أي: تكون بمعنى بعض، فالمعنى: حتى تنفقوا من بعض ما تحبون، أو حتى تنفقوا بعض ما تحبون.

٢- تأتي "من" لبيان الجنس كقوله تعالى: ﴿يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ آسَاورٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] من ذهب أي: جنسها من الذهب، وكقوله تعالى: ﴿مَهَمَّا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ [الأعراف: ١٣٢] وكقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] وكقوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ﴾ [الكهف: ٣١] وهناك خلاف بين النحاة في هذا المعنى، ولكن هذا المعنى ثابت في كتب التفسير عن حرف الجر من.

٣- كذلك من تأتي لابتداء الغاية المكانية؛ وذلك باتفاق كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] فمن دلت على ابتداء الغاية المكانية، وكذلك أيضًا تدل على ابتداء الغاية الزمانية بقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

٤- كذلك تأتي "من" بمعنى التنصيص على العموم، أو تأكيد التنصيص عليه، وهذه ما تُسمى بمن الزائدة.

من هذه التي يُطلق عليها النحاة كلمة الزائدة يشترطون لها شروطاً: "أن تسبق بنفي أو نهى أو استفهام، وأن يكون مجرورها نكرة، وهذا المجرور بها إما أن يكون فاعلاً كقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ [الأنبياء: ٢] أي: ما يأتيهم ذكر، وكقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] أي: ما جاءنا بشير، وكذلك إذا وقع المجرور بها مفعولاً كقوله تعالى: ﴿هَلْ نُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨] أي: أحداً، وكقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٧] أي: رزقاً. وكقول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] أي: إلهاً.

وكذلك المجرور يكون مبتدأ كقوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ ﴾ [فاطر: ٣] فخالق هنا وقعت في محل مبتدأ، وجرت بمن الزائدة، وكقوله تعالى: ﴿ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

٥- وتأتي بمعنى البديل كقوله تعالى: ﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ [التوبة: ٣٨] أي: بدل الآخرة.

٦- وتأتي من بمعنى الظرفية كقوله تعالى: ﴿ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٤٠] أي: في الأرض كقوله تعالى: ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ [الجمعة: ٩] أي: في يوم الجمعة، وتأتي من أيضاً بمعنى التعليل كقوله تعالى: ﴿ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾ [نوح: ٢٥] أي: بسبب خطيئاتهم أغرقوا.

حرف الجر " اللام " وله معان منها:

الأول: بمعنى الملك كقوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]

الثاني: تأتي بمعنى شبه الملك أو التملك، كقوله تعالى: ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [النحل: ٧٢].

الثالث: تأتي أيضاً بمعنى الاختصاص كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ [يوسف: ٧٨] ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ [النساء: ١١].

الرابع: وكقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨] والقراءة المتواترة: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿ يَلَيْتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر: ٢٤] ففي هذه المواضع تأتي اللام بمعنى التعليل.

الخامس: هو أن تكون بمعنى التوكيد، وهذه ما يُسمونها بالزائدة، وحمل عليها بعضهم قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢] أي: ردفكم؛ فالظاهر في هذه الآية - والله أعلم - أن المعنى بتضمين ردف اقترب، وليست زائدة.

السادس: تقوية العامل؛ وهذا في مواضع معينة ذلك إذا دخلت على المفعول به، وتقدم المفعول على العامل كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] فيقولون: إن الأصل إن كنتم تعبرون الرؤيا؛ فدخلت اللام على كلمة الرؤيا على سبيل تقوية العامل؛ لأنه تأخر عن المعمول، أو إذا كان العامل فرعاً في العمل، يعني اسماً مشتقاً يَعْمَلُ عَمَلُ فَعْلِهِ، كقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] أي: مُصَدِّقًا مَا مَعَهُمْ، وكقوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] أي: فعال ما يريد.

السابع: تأتي اللام بمعنى انتهاء الغاية، وهذا بمعنى إلى أي توافق إلى في المعنى، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] أي: إلى أجل مسمى، وكقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: أوحى إليها، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] أي: إلى ما نهوا عنه.

الثامن: تأتي اللام بمعنى توكيد النفي، وهي ما تُسمى بلام الجحود ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٣٧] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] أي: المسبوقة بـ"لم يكن" أو "ما كان" وهذه الفعل بعدها يكون منصوباً بأن مضمرة، وأنَّ وما دخلت عليها يكون مجروراً باللام.

التاسع: أن تأتي للصيرورة، أي: بمعنى المأل، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿فَالنَّقْطَةُءَاءٌ أَلٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ١٨] فهم لم يلتقطوا

موسى # ليكون لهم عدواً وحزناً، وإثما التقطوه ليكون ولدًا لهم، أو لينفعمهم: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] لكن المآل صار إلى أنه صار حزناً وعدواً لفرعون وقومه.

العاشر: تأتي اللام بمعنى "في" بمعنى الظرفية أي: توافق في، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] أي: في يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي: في وقتها وأيضاً قوله تعالى: ﴿يَلَيْتَنِي فَدَمَّتْ لِحْيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] أي: في حياتي.

الحادي عشر: تأتي اللام بمعنى البعدية، أي: بمعنى كلمة بعد كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: بعد دلوك الشمس، وتأتي اللام بمعنى الاستعلاء، وتكون بمعنى على كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ لِلأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: ١٠٧] أي: على الأذقان، وكقوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ [يونس: ١٢] أي: على جنبه، وأيضاً تأتي بمعنى على مجازاً كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] أي: عليها.

الثاني عشر: تأتي اللام بمعنى عن، وهي التي يُقال لها أنها تفيد المجاوزة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قال الذين كفروا عن الذين آمنوا.

﴿قَالَتْ أَخْرِثُهُمْ لَأُولِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: عن أولاهم، ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١] ولا أقول عن الذين تزدري أعينكم، وضابط هذه اللام أنها تدخل على غير المقول له.

حرف الجر "الباء" ولها معانٍ:

أولاً: فالباء تأتي بمعنى التعديّة، أي: تُحوّل الفعل من حال إلى حال، كقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] أي: أذهب الله نورهم؛ فالباء هنا أفادت تعديّة الفعل اللازم ذهب بالحرف، وكذلك تأتي الباء بمعنى التبعية كقوله تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] أي: منها.

ثانياً: تأتي بمعنى المصاحبة ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ﴾ [المائدة: ٦١] أي: مع الكفر، وكقوله تعالى: ﴿أَهْبِطُ بِسَلَامٍ﴾ [هود: ٤٨] أي: اهبط مع سلام.

ثالثاً: تأتي بمعنى المجاوزة، وقلنا المجاوزة أن تكون بمعنى عن، كقوله تعالى: ﴿فَسئَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أي: فاسأل عنه خيراً، وكذلك تأتي الباء بمعنى الظرفية، أي: بمعنى "في" كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤] أي: في جانب الغربي.

رابعاً: تأتي بمعنى الغاية أي: موافقة إلى، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: أحسن إلي. وتأتي أيضاً بمعنى البدل، وتأتي بمعنى الاستعلاء كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ﴾ [المطففين: ٣٠] أي: مروا عليهم، وكقوله تعالى: ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَقِنطَارٍ﴾ [آل عمران: ٧٥] أي: على قنطار.

خامساً: تأتي بمعنى السببية كقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] أي: فسبب نقضهم، وكقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠] أي: بسبب ذنوبه، وكقوله تعالى: ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعَجَلِ﴾ [البقرة: ٥٤] أي: بسبب اتخاذهم العجل.

سادساً: تأتي بمعنى التأكيد، وهي أيضاً الزائدة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] أي: ولا تلقوا أيديكم إلى التهلكة، وكقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] وكقوله تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥] وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِمِ﴾ [الحج: ٢٥] أي: ومن يرد فيه إلحاداً.

حرف "في" وله معان منها:

أولاً: الظرفية:

أ- الظرفية المكانية. كقوله تعالى: ﴿فِي آدْنَى الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٣].

ب- الظرفية الزمانية: كقوله تعالى: ﴿فِي بِيضِ سَنِينَ﴾ [الروم: ٢٤].

ج- الظرفية المجازية، والظرفية المجازية التي ليست على حقيقة معنى الظرف، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وتأتي في مرادفة إلى؛ أي: بمعنى إلى كقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] وتأتي زائدة، وأجاز ذلك بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا﴾ [هود: ٤١] أي: اركبوا.

ثانياً: تأتي "في" بمعنى السببية كقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤] أي: بسبب ما أفضتم فيه، وكقوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢] أي بسببه، وتأتي في بمعنى المصاحبة كقوله

تعالى: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: مع أمم، وكقوله حكاية عن قارون: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ [القصص: ١٧٩] أي: مع ما تزين به.

ثالثاً: تأتي "في" بمعنى الاستعلاء كقوله تعالى: ﴿ وَأَصْلَبَنَّاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١] أي: على جذوع النخل، وهنا للزمخشري، وغيره رأي في أن الحرف على حقيقته؛ لأنه أبلغ في النكاية وتصوير العذاب، أن يكون التصليب في الجذوع، وليس على الجذوع.

رابعاً: تأتي أيضاً "في" بمعنى المقايسة، كقوله تعالى: ﴿ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨] ومعنى المقايسة هو دخولها بين مفضول سابق، وفاضل لاحق، هذا بالنسبة لحرف الجر "في".

حرف الجر "على":

أيضاً حرف الجر "على" فمعناه الأصلي أو المعنى الأساسي لاستخدامه هو الاستعلاء كقوله تعالى: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٢] وهذا الاستعلاء يكون حقيقة كالأية المذكورة، ويكون مجازاً كقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥] وكقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وكقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

وتأتي على بمعنى الظرفية كقوله تعالى: ﴿ عَلَى حِينٍ غَفَلَةٍ ﴾ [القصص: ١٥] أي: في حين غفلة، وتأتي أيضاً بمعنى المصاحبة؛ بمعنى مع في كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد: ٦] أي: مع ظلمهم، ولها معانٍ أخرى؛ فتأتي

بمعنى اللام ، واستشهد له بقوله تعالى : ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي : لما هداكم ، وتأتي بمعنى عند كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ ﴾ [الشعراء: ١٤] أي : عندي وتأتي بمعنى من كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ [المطففين: ٢] أي : من الناس .

حرف الجر "عن" :

وكذلك حرف الجر "عن" له معان منها البعدية كقوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: ١٩] أي : حالاً بعد حال ، ومنها : معنى الاستعلاء كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْحَلْ فَإِنَّمَا يَبْحَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ [محمد: ٣٨] ومعنى التعليل كقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ ﴾ [هود: ٥٣] أي : لأجل قولك ، وكذلك حرف الكاف يأتي بمعنى التشبيه ، كقوله تعالى : ﴿ وَرَدَّةٌ كَالِدِهَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٧] ويأتي بمعنى التعليل ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨] ويأتي بمعنى التوكيد ، والآية المشهورة التي دار حديث العلماء عنها في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] .

حروف الجر "إلى ، حتى" :

كذلك عندنا حروف الجر "إلى ، وحتى" وهما يأتيان بانتهاء الغاية في المكان أو الزمان ، وشاهد المكان قوله تعالى : ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ وشاهد الزمان قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ الْيَلِيلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] وقوله تعالى : ﴿ سَلَّمْهُ حَتَّىٰ مُطَلِعِ الْفَجْرِ ﴾ [القدر: ٥] .

حروف الجر "الواو، التاء":

وكذلك عندنا حروف "الواو، والتاء" وهي حروف تستخدم للقسم، وشواهدها مشهورة ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ [العصر: ١] ﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾ [الفجر: ١] ﴿وَاللَّيْلِ ۝١﴾ [الليل: ١] ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ [الشمس: ١] والتاء ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧] ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوًا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥] والفرق أنّ الواو لمطلق القسم، والتاء لا يُقسم بها إلا على اللفظ الجليل ﷻ.

هذا ما عرضنا له من معاني حروف الجر، وهو باب واسع، وأردت أن أعرض هذه الشواهد، وهذه النماذج لاستخدامات حروف الجر، على ما فيها من حوارات، ومن كلام بين العلماء في المعاني الذي يؤدي بنا إلى طرح مسألتين في غاية الأهمية، تناولها العلماء في هذه المعاني:

المسألة الأولى: هل ينوب حرف عن حرف؟ كما مثلنا وذكرنا في الأمثلة السابقة؛ نجد العلماء يقفون موقفين، هناك من يرفض أن ينوب حرف عن حرف، ويحمل جميع الحروف على معنى أصلي، وغيرها يؤوله على هذا المعنى أو يصرفه إليه، وهناك فريق آخر يثبت هذا التناوب مطلقاً، والحقيقة أن كلا القولين بهما نظر؛ لأنّ العلماء الأجل الذين أنكروا، ومثلوا ببعض الأمثلة، أننا إذا فتحنا المجال لهذه القضية، ولتناوب الحروف جاز لأحد أن يقول: ذهبت إلى فلان. ثم يقول: أردت ذهبت معه، وإلى غيره ذلك؛ لأنه يضع حرفاً مكان حرف، على معنى يريده ويدعي أنه يريد كذا.

والأمر في الحقيقة ليس كذلك؛ لأن قضية تناوب الحروف، وقضية أن الحرف يأتي لأكثر من معنى، هذه القضية أساسها السياق، ومجالها كتب التفسير التي

شهدت لهذه المعاني ، وأقوال العلماء فيها لم تكن على إطلاق أن الحرف يأتي لأكثر من معنى ، وإنما الأساس هو السياق الذي يرد فيه الحرف ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز في استخدام الحرف.

المسألة الثانية: قضية حروف الزيادة ، وقضية حروف الزيادة نكتفي فيها الآن بأن نقول: "إنّ الزيادة المقصودة لا تعني زيادة في اللفظ ، ولا في المعنى ، وإنما هو مصطلحٌ يَضَعُه النحاة ، يدلّ على أنّ الحرف لا يؤثر في الإعراب".

كيف كان استخدام حروف المعاني وجهاً من وجوه الإعجاز اللغوي؟

نأتي الآن إلى القسم الثاني من الدرس وهو: الكلام عن سر الإعجاز ، أو كيف كان استخدام حروف المعاني وجهاً من وجوه الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم؟ وهذا ما أشار إليه المدققون كابن الأثير في كتابه (المثل السائر) عندما عقد فصلاً في الحروف العاطفة والجارّة ، وبيّن فيه: أنّ كلامه لا ينصب على الناحية النحوية ، ولكنه عقد هذا الفصل ؛ لأن أكثر الناس يضعون هذه الحروف في غير مواضعها ، فيجعلون ما ينبغي أن يجر بـ"على" مجروراً بـ"في" ، وأن هذه الأشياء فيها دقائق وأسرار.

وبداً - رحمه الله - يعرض لنا نماذج من حروف العطف ؛ فأتى بقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ

يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ [الشعراء: ٧٩ - ٨١] فالمولي ﷻ استخدم في هذه الآيات الثلاث

ثلاثة أحرف للعطف: "الواو والفاء وثم" فالأول عطفه بالواو، التي هي

للجمع، وتقديم الإطعام على الإسقاء، والإسقاء على الإطعام جائز؛ لأنّ الواو كما قلنا لمطلق الجمع، فتقدم سابق على لاحق، أو لاحق على سابق؛ فهذا جائز لولا مراعاة حسن النظم في الآية الكريمة.

ثم عطف الثاني بالفاء؛ لأنّ الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما، فالإنسان في حياته إما أنه معافى، وإما أنه مريض، لا فترة بين العافية والمرض؛ فمن ثمّ عطف بالفاء. وعطف الثالث بـ"ثم" لأنّ الإحياء يكون بعد الموت بزمان، ولهذا جيء في عطفه بـ"ثم" التي هي للتراخي.

فيستدل بقوله أنه لو قال قائل في موضع الآية "الذي يطعمني، ويسقيني، ويمرضني، ويشفيني، ويميتني، ويحييني" كان كلامه كلاماً تاماً، إلّا أنّ هذا الكلام لن يكون بهذا الوجه من العرض، ومن الأسلوب، ومن النظم لكلام الله ﷻ.

واستدل أيضاً بقوله تعالى: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَّانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢] يقول: ألا ترى أنه لما قال: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ كيف قال: ﴿فَقَدَرَهُ﴾ ولم يقل: "ثم قدره" لأنّ التقدير لما كان تابعاً للخلقة، وملازماً لها عطفه عليها بالفاء، وذلك بخلاف قوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ لأنّ بين خلقته وتقديره في بطن أمه، وبين إخراجها منه وتسهيل سبيله مهلة وزمناً؛ فلذلك عطفه بـ"ثم".

وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَّانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ لأنّ بين إخراجها من بطنه أمه وبين موته تراخياً وفُسْحَةً، وكذلك بين موته ونشوره أيضاً؛

ولذلك عطفها بـ"ثم" ، ولما لم يكن بين موت الإنسان ، وإقباره أي : دخوله القبر تراخ ولا مهلة عطفه بالفاء .

فبين - رحمه الله - في هذين النموذجين كيف كانت الدقة في استخدام الحرف في موضوعه ، ولا يجوز أن يوضع حرف آخر مكانه ، وأتى بشاهد لطيف من قوله تعالى في قصة مريم - عليها السلام : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم: ٢٢ ، ٢٣] استشهد بأن المفسرين اختلفوا في حمل مريم - عليها السلام - وهل حملت حملاً كسائر النساء أخذ مدته المعهودة ، أم أن حملاً كان على غير عادة النساء ؛ فحملت في زمن قريب ليس بالفترة التي يعهدها النساء في حملهن .

فقال : إن الآية الكريمة مزيلة للخلاف ؛ لأنها دلت صريحاً على أن الحمل والوضع كانا متقاربين على الفور ، من غير مهلة ، فالمولي ﷺ استخدم حرف العطف الفاء ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ فالآية حسمت الخلاف إذا نظر في استخدام الحروف العاطفة فيها .

وهناك مثال رائع ، وهو مع فعل المطاوعة ؛ فإن هذا الفعل لا يعطف عليه إلا بالفاء دون الواو ، تقول : كسرته فانكسر ، وفتحته فانفتح ... إلى آخره ، فأتى بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الكهف: ٢٨] فقوله ﷺ : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ الناظر فيه لو كان هذا السياق في غير القرآن لقال : إنه يؤتى في هذا الموضع بالفاء ؛ فيقال : "فاتبع هواه" ولا يقال : "واتبع هواه" لأن الفعل هنا من أفعال المطاوعة ، ولكن النظم القرآني البديع بين أن هذا الفعل في

هذا الموضوع ليس على معنى المطاوعة، وإنما هو على معنى غفل ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أي: غفل قلبه عن ذكرنا.

ومن ثم فإنّ المولى ﷺ كأنه يقول: "ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه" أي: لا تطع من فعل كذا وكذا؛ فعدد أفعاله التي توجب ترك طاعته، ولعل في القراءة الشاذة: "ولا تطع من أغفلنا قلبه" بفتح اللام في "أغفل" وبرفع قلبه على الفاعلية ما يؤيد المعنى الذي ذهب له ابن الأثير في هذا الموضوع.

وبعد ذلك انتقل على استخدامات حروف الجر، وضرب مثلاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] يقول: ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود بمخالفة حرفي الجر ههنا؛ فإنه إنما حُولف بينهما في الدخول على الحق والباطل؛ فمع الحق قال المولى ﷺ: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ ومع الباطل استخدم حرف الجر "في" ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

لأنّ صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يرقد به حيث شاء، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه لا يدري أين يتوجه، فمن ثم استخدم "على" مع الهدى والحق، واستخدم "في" مع الضلال، وهذا استخدام القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] مع أن المتحدث لو وضع حرفاً مكان حرف لكان ذلك جائزاً، إلّا أنّ الاستخدام القرآني يرنو إلى الدقة، وإلى الفصاحة في استخدام الحروف؛ فمن الناس من يقول: "أنت على ضلالك كما أعهدك" فيأتي بـ"على" بموضع "في" وإنما الأولى أن تكون مع الضلالة حرف "في" ومع الهداية حرف "على" كما استخدمه القرآن الكريم.

وضرب مثلاً آخر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُؤِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ [التوبة: ٦٠] التفرقة بين استخدام اللام ﴿ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ ﴾ وبين استخدام "في" ﴿ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ فاستدل بذلك على أن الطائفة الأخيرة المذكورة "عتق الرقاب والغارمين وفي سبيل الله" أن هؤلاء أولى بالصدقات من غيرهم، ومن ثمَّ استُخدم معهم حرفُ الجرِّ "في" الذي يُفيد الظرفية، وكرّر مرة ثانية، وفصل به بين الغارمين، وبين سبيل الله؛ ليعلم أن سبيل الله أوكد في استحقاق النفقة فيه. وهذه لطائف يتنبه إليها من ينظر في كتاب الله ﷻ.

وبقي أن نشير إلى أن هذا الفن الذي أضاء جنباته ابن الأثير في كتابه، وضرب له أمثلة، هناك من صنف فيه كتباً مستقلة لهذه المسألة، في الاستخدامات في القرآن الكريم بإتيانه حرف مكان حرف، أو بإتيان لفظ مكان لفظ آخر، ومن ذلك كتاب (درة التنزل وغرة التأويل) للخطيب الإسكافي المتوفى سنة أربعمئة وعشرين للهجرة، هذا الكتاب أفرد فيه الآيات التي تشابهت في مواضعها، واستُخدم فيها أداة في موضع، وأداة أخرى في موضع آخر؛ أو لفظ في موضع، ولفظ في موضع آخر.

ونضرب لك بعض الأمثلة التي عرضها لما نحن بصددده وهو: حروف المعاني:

لما أتى به بموضع وضع فيه حرفان للعطف، والموضعان متشابهان، وهما في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥] وجاءت في سورة "الأعراف":

فجاء في موضع "وكلا" وجاء في موضع آخر "فكلا" فاستخدمت الواو في الأولى، واستخدمت الفاء في الثانية، مع أن الأصل أن كل فعل عطف عليه ما يتعلق به تعلق الجواب بالابتداء، وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء؛ فالأصل فيه الثاني على الأول بالفاء دون الواو، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨].

يقصد الإمام هنا أن معنى الشرط إذا كان بين فعلين الثاني مترتب على الأول استخدم معه حرف الفاء؛ لاقتران الشرط بالجزاء، واستدل بهذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا﴾ [البقرة: ٥٨] أي: إن دخلتم "فكلوا" هذا المعنى في الآية الكريمة.

ثم يبين أن هذا الموضع الذي استشهد به أيضاً له نظير استخدمت فيه الواو، وهو قول الله ﷻ في سورة "الأعراف" أيضاً: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٦١] أي: "وكلوا منها" فاستخدم الواو هنا بدلاً من الفاء، فهناك فرق بين الآيتين كيف؟

الآية الأولى معنى الشرط فيها واضح، بمعنى أن الدخول يترتب عليه الإطعام، أنه يأكل منها، أما في موضع سورة "الأعراف" كان بصيغة "اسكنوا" فالسكنى لا تستلزم الإطعام، كما أن الدخول يستلزم الإطعام فيها، فلذلك عطف بحرف الواو بدلاً من حرف الفاء لماذا؟ لأنه لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء، فعطف بالواو دون الفاء.

في هذه الآية التي بدأ بالحديث عنها وهي في قصة آدم # يجد أن الآيتين تعلقا بالفعل "اسكن" ولم يحدث فرق كما كان في الآية التي حمل عليها القاعدة، وهي "ادخلوا" و"اسكنوا" فالآيتان في الموضع الأول هي "اسكن" وليس فيها الفعل

"ادخل" فيبقى هنا السؤال كما هو ما المراد بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ سِتْتَمًا﴾؟

يقول: أن الفعل "اسكن" يُقال لمن دخل مكاناً، ويراد به الزم المكان الذي دخلته، ولا تنتقل منه، ويُقال أيضاً لمن لم يدخله "اسكن هذا المكان" يعني: ادخله واسكن فيه.

أي: هذا الفعل يُقال على حالين قد يقال لك بعد الدخول، وقد يقال لك قبل الدخول؛ فإذا قيل لك قبل الدخول على معنى ادخل واسكن، وإذا قيل لك بعد الدخول، فهنا قد حدث لك استقرار في المكان؛ فيطلب منك أن تأكل؛ لأنك دخلت المكان بالفعل، وحدث لك استقرار به، ومن ثم قيل: "فكلا" أي أنه في موضع كان الخطاب بعد الدخول، وفي موضع كان الخطاب قبل الدخول، ورُجِحَ أن الخطاب بعد الدخول في سورة "الأعراف"، ومن ثم استُخدم معها حرف الفاء؛ لتكون مقابلة لقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذءً وَمَا مَدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨] فيكون دخول آدم # وزوجه الجنة في مقابل خروج إبليس عليه اللعنة منها، ويكون ذلك مظهراً من مظاهر الإبداع في استخدام الحرفين الفاء والواو في موضع متشابه.

ثم أتى بمثال آخر على حروف النفي، سبق أن ذكرنا أن "لا" و"لن" يستخدمان لنفي المستقبل مع المضارع، فيأتي هنا الشيخ، ويذكر لنا موضعين قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥] وقال ﷺ: ﴿قُلْ يَتَائِبُ الذِّبِّ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنتُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت ۗ﴾ [الجمعة: ٦، ٧].

فهنا الموضوعان السياق مُتشابه بين الموضوعين في ظاهره، لمن لا يتأمل الكلام يظن أن الموضوعين متشابهان، واستخدم في أحدهما "لن" واستخدم في الآخر "لا" فيسأل عن الفرق في استخدام "لن" واستخدام "لا" مع أنّ كليهما لنفي المستقبل.

فيقول هنا الشيخ في جواب هذه المسألة: "أن الشرط في سورة البقرة يختلف عن الشرط في سورة الجمعة، فالشرط سورة البقرة متعلق بما يفيد الانتهاء، وبما يفيد التمام؛ لأنهم ذكروا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وأنهم لهم الآخرة، ولا أحد يُشاركهم فيها، فمن ثم كان تأكيد وتأييد النفي على حالهم باستخدام "لن": ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾.

أما في سورة الجمعة فهم زعموا أنهم أولياء الله، وهذه الولاية لا تستلزم خلودًا، ولا تستلزم استمرارًا في النعيم، وإنما تتطلب ما بعدها من الخلود في دار الجزاء، ودار الكرامة، وهم لم يدعوا ذلك؛ فناسب ذلك استخدام الحرف "لا" وهو أقل من "لن" في إفادة تأكيد النفي، ولا يفيد التأييد كما أفادت لن".

وهنا مسألة نقف معها، وهي مسألة التأييد في حرف لن وفي استخدامه" فالناظر يجد في الآيتين استخدم معهما كلمة "أبدًا" ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ فالتأييد هنا يستفاد من استخدام كلمة أبدًا، أما لفظ "لن" لحاله ولفظ "لا" لحاله لا فرق بينهما، وهذا الذي يرتاح إليه الرأي كما قال ابن هشام، أنّ هذا دعوة لا دليل فيها، كون أن نذكر أنّ "لا" تُفيد النفي فحسب؛ وأنّ لن تفيد تأكيد النفي؛ فهذا كلام ذكرناه قبل ذلك أنه لا دليل عليه.

فإن احتج أحد بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] وبقوله تعالى: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ١٧٣] عروض بما ذكرنا من

قوله تعالى: ﴿ فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦] ومن ذكر الأبد في قوله تعالى: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا ﴾ .

كذلك حرف "لا" كيف يقال: أنه لا يفيد تأييداً، وفي سياق الآيات قد جاء ما يفيد فيه التأييد كقوله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ لَا يُفْضِنُ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا ﴾ [فاطر: ٣٦] فإذا الذي يرتاح إليه الرأي أن حرف "لا" وحرف "لن" لا يفيدان تأييداً من أنفسهما أو بلفظهما، وإنما التأييد وعدمه يكون بقريئة السياق، التي هي أساس البلاغة جميعها.

عرض بعد ذلك مثلاً لاستخدام حروف الجرّ، في موضعين متشابهين: قال الله ﷻ: ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال ﷻ: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [آل عمران: ٨٤] إلى نهاية الآيتين فهنا السؤال استخدم في أحدهما حرف الجر "إلى" واستخدم في الأخرى حرف الجر "على" فهل هناك فرق بين استخدام الحرفين؟

هذا هو السؤال والجواب عن هذا السؤال: وجهه الشيخ بمعنى لطيف وهو: أن "إلى" و"على" يختلفان في الدلالة؛ فحرف على موضوع لكون الشيء فوق الشيء، ومجيئه من علو؛ فهي مُختَصَّةٌ فحرف على يختص بجهة من الجهات الست، ولا يكون على الإطلاق، فهو يأتي من مكان معين، وهذا يناسب الخطاب للنبي الكريم ﷺ: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ "قل" فالخطاب هنا موجه للنبي صلوات الله وسلامه عليه؛ فناسب أن يستخدم معه حرف الجر

القراءات القرآنية وما بها من أوجه للإعجاز

عناصر الدرس

١٩٥	العنصر الأول : القراءة وطرق الأداء
١٩٨	العنصر الثاني : وجوه القراءة
٢٠٣	العنصر الثالث : الكلام عن قراءة التلحين
٢٠٧	العنصر الرابع : لغة القرآن
٢٠٩	العنصر الخامس : مسألة الأحرف السبعة

القراءة وطرق الأداء

نتحدث عن القراءات القرآنية، وما بها من أوجه للإعجاز.

فنبداً حديثنا بالكلام عن القراءة وطرق الأداء:

القراءة وطرق الأداء ربما نتوصل إلى فهم المراد بهذا العنوان بالتمهيد له ببيان ما هي القراءات؟

القراءات هي صور نظم كلام الله - تعالى - من حيث وجوه الاختلافات المتواترة المنسوبة إلى أئمة معينين ناقلين لها، قد يُراد بالقراءات الصور الواردة بالتبادل على اللفظ، هذه القراءات اتفاقاً المتواترة المجمع عليها تسمى قرآناً، ويعمل بها في التلاوة التعبديّة، وهذا هو أساس كلامنا عن القراءات المتواترة المجمع عليها عند أئمة هذا الفن.

فطرق أداء القراءة:

هي الطرق التي يصل بها أو تصل بها القراءة إلينا عن طريق رواة القارئ ومَن نقل عنه، فكل قارئ من القراء السبعة أو العشرة له رواية، مثلاً: كلنا نعرف قراءة حفص عن عاصم، وورش عن نافع وغير ذلك، هؤلاء الرواة لهم مَن نقل عنهم، فهؤلاء الذين ينقلون عن حفص مثلاً يسمى ما ينقلونه طرق القراءة، فهذا طريق من طرق القراءة، أما الراوي فهو حفص وأما القارئ فهو عاصم. مثال: كقوله تعالى في سورة الروم: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤] فتقرأ:

"مَنْ ضَعْفٍ" وتُقرأ: "مَنْ ضُعْفٌ" وكلا الوجهين: هو قراءة حفص عن عاصم لم يخرج عنها، فهذا يسمى طريق من طرق الأداء

كذلك مثلاً في: ﴿الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] تقرأ هكذا بالمد، وتقرأ "الذكرين" بتسهيل المد والاقْتصار على حركتين فقط.

كذلك يترتب في قراءة حفص حكم على مَنْ يمد المنفصل يختلف عمن يقصر المنفصل، فالذي يقرأ بمد المنفصل يلزمه السكتات المعروفة في مواضع معينة في القراءة: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٧] وكذلك في: ﴿قَالُوا يَنْوِيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنَ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ [يس: ٥٢] هذه الوقفات المعينة والسكتات تترتب على مَنْ يمد القراءة في حفص، وهذا كله ما يسمى بطرق أداء القراءة.

القراءة وطرق الأداء أمران يتعلقان باللفظ، وبينان على وجوه اللغة التي قام بها هذا النظم الذي جاء عليه القرآن الكريم، فقد نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ بأفصح ما تسموا إليه لغة العرب في خصائصها العجيبة وما تقوم به، مما هو السبب في جزالتها، ودقة أوضاعها، وإحكام نظمها واجتماعها من ذلك على تأليف صوتي يكاد يكون موسيقياً محضاً في التركيب والتناسب بين أجراس الحروف، والملائمة بين طبيعة المعنى، وطبيعة الصوت الذي يؤديه، فإذا تم هذا النظم للقرآني مع بقاء الإعجاز الذي تحدى به، مع اليأس من معارضته على ما يكون في نظمه من تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات بحسب ما يلائم تلك الأحوال في مناطق العرب - أي: طرق نطقهم - فقد تم له التمام كله، وسار إعجازه إعجازاً للفترة اللغوية في نفسها حيث كانت وكيف ظهرت، ومهما يكن من أمرها، ومتى كان العجز فطرياً فقد ثبت بطبيعته.

أي: يقصد هنا الرافي في تمهيده للكلام عن هذه المسألة: بأن أول أوجه بيان قيمة معرفة القراءات وطرق أدائها، أنها وجه إعجاز بين للقرآن الكريم، أنها على اختلافها وعلى اختلاف طرقها ووجوهها مع هذا الاختلاف، هي معجزة، ففي كل وجه مع ملاءمته لطبيعة العرب وفطرتهم اللغوية، عجزوا عن معارضته وعجزوا عن الإتيان بمثله، فهذا أدعى لبيان أن الإعجاز أظهر عجزهم الفطري عن معارضة القرآن، وعن الإتيان بمثله مع هذا التنوع، وهذه الطرق التي قرئ بها القرآن الكريم. فإن القرآن لو نزل على لفظ واحد ما كان يضره شيء، وهو ما هو إحكام وإبداع، فما بالك وقد تعددت طرقه، وقد كثرت طرق نقله وروايته مما بين أثر هذا الإعجاز الواضح في تعدد طرق القراءات.

وهناك حكمة جليلة من هذا التعدد في طرق القراءة، وهذه الحكمة تتركز في تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين، لم يكن حفظ الشرائع مما عرفوه فضلاً عن أن يكون مما ألفوه، وكذلك يلحق بمعاني الإعجاز كون الألفاظ في اختلاف بعض صورها مما يتهيأ معه استنباط حكم أو تحقيق معنى من معاني الشريعة، فالقراءات من حجة الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد، وهذا المعنى انفرد به القرآن الكريم ولا يستطيع لغوي أو بياني في تصوير خيال، فضلاً عن تقرير شريعة.

وأيضاً من طرق الأداء وتنوعها يتبين لنا شيء عظيم، وهو أن الناظر في إعجاز القرآن ونظمه يحسب أن ألفاظ القرآن تنقاد لمعانيه، ثم يتعرف ويتغلغل فيه، فينتهي إلى أن معانيه متقادة بألفاظه، فإن الله ﷻ خلق في العرب فطرةً لغويةً، وأنزل عليهم كتابه أعجز هذه الفطرة التي فُطروا عليها، ووقفوا أمام أساليب القرآن وما قرئ به موقف العاجز على الإتيان أو على معارضة مثل هذا الكتاب المبارك الذي أنزله الله ﷻ عليهم.

وهناك روايات عن أصحاب رسول الله ﷺ في أمر طرق الأداء وفي أمر القراءات التي وصلت إليهم، وأن بعضهم كان ينكر على بعض، وأن بداية ما حدث في ذلك الأمر كان في عهد رسولنا الكريم ﷺ كما روى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة "الفرقان" في حياة رسول ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرأها رسول الله ﷺ كذلك فكذت أساوره في الصلاة، فصبرت حتى سلّم، فلما سلّم لبيته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأها؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ لهو أقرأني هذه السورة، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن سمعت هذا يقرأ سورة "الفرقان" على حروف لم تُقرأها، وأنت أقرأني سورة "الفرقان"، فقال رسول الله ﷺ: ((اقرأ يا هشام))، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأها، فقال: ((هكذا نزلت)) ثم قال: ((اقرأ يا عمر)) فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله ﷺ فقال: ((هكذا نزلت)) ثم قال: ((إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسر منها))."

وجه القراء

ووجه القراءة هي ما قرئ به اللفظ من تنوع، بمعنى: الحرف قرئ بكذا وبكذا، مثلاً: ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] قرأها الجمهور: "وامراته حمالة الحطب" فإذا الحرف هنا قرئ بوجهين بالنصب وبالرفع. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] قرئ: "والأرحام" بالخفض، فقرأ بالنصب وبالخفض، وغير ذلك من الظواهر. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى "فجاء الفعل بصورة الأمر، وجاء الفعل بصورة الماضي، وترتب على ذلك تنوع وجوه القراءة.

مقاييس القراءة الصحيحة :

فهنا يجب أن نقف عند نقطة في غاية الأهمية ، وهي مقاييس القراءة الصحيحة أو ما وضعه العلماء للحكم على هذا الوجه بالصحة ، وبأنه قرآن يقرأ ويُتعبد بتلاوته. يذكر الرافعي في كتابه : أن القياس عندهم موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه ، سواء كان أفصح أم فصيحاً ، مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله ؛ لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها ، والمصير إليها بالإسناد لا بالرأي ، ثم يشترط في تلك القراءة أن توافق أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وأن تكون مع ذلك صحيحة الإسناد ، فإن اجتمعت الأركان الثلاثة موافقة العربية ورسم المصحف وصحة السند ، فتلك هي القراءة الصحيحة ، ومتى اختلف ركن منها أو أكثر أطلق عليها أنها ضعيفة أو شاذة أو باطلة ، ولتجئ بعد ذلك عن كائن من كان.

هذا الكلام الذي ذكره الرافعي هو فَهْمُهُ - رحمه الله - لكلام ابن الجزري في (النشر) وما نص عليه من قوله :

وكل ما وافق وجه نحوي ❖ وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح إسناداً هو القرآن ❖ فهذه الثلاثة الأركان

وهذا الكلام الذي نص عليه ابن الجزري للعلماء معه وقفة فيه ، في أنه لم ينص في كلامه عن التواتر ، والتواتر شرط أساسي لصحة القراءة ، ولا يكتفى بصحة السند ، فإن العلماء المختصين بهذا الأمر بينوا أن هذا القول قاله مكّي بن أبي طالب القيسي ، وتبعه فيه ابن الجزري ، وقالوا : إن هذا القول قول حادث ، وأنهم ردوا هذا القول.

وللأسف إن هذا القول الذي ساد واشتهر بتوافر الشروط الثلاثة دون النص الصريح على مسألة التواتر، ولا أشك أن ابن الجزري يشير بصحة السند ضمناً إلى التواتر، فإن هذا التواتر هو الميزة العظمى في نقل القرآن الكريم، أنه محفوظ في الصدور، منقول عن طريق التواتر عن جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب، فمعروف أن التواتر هو نقل جمع عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب كما يؤمن وقوع الكذب منهم في المنقول وقوعاً اتفاقياً بدون تواطؤ في كل طبقة من أول السند إلى منتهاه، فهذا التواتر ركن ركين في صحة القراءة.

وهذا الذي ذكره ابن الجزري وفهمه من فهمه عنه باشتراط الشروط دون الالتفات لنقطة التواتر، وخاصة في عبارته أيضاً عندما قال:

وحيثما يختل شرط أثبت ❖ شذوذه لو أنه في السبعة فهموا من هذا القول أن السبعة - أو القراءات السبعية - ربما يكون فيه ما هو شاذ وما هو مردود. وهذا الكلام لا يجوز أن نقول به في وقتنا الحالي بحال من الأحوال، وهذا ما وقع فيه بعض الأكابر، فرأينا مثلاً الدكتور صالح فاضل السامرائي في كتابه (الكلمة في التعبير القرآني) ذكر بطلان قراءة متواترة بل هي قراءة الأكثرين، عندما أراد أن يبين الفرق بين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ [الكهف: ٦٤] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ [يوسف: ٦٥] بإثبات الياء في: ﴿نَبْغِي﴾ وحذفها في: ﴿نَبْغُ﴾ مع استلزام إثباتها؛ لأن الفعل في حالة الرفع وعلامته ضمة مقدرة على الياء، فإثبات الياء في الرفع هو الأصل، فأراد أن يبين الفرق بين الإثبات والحذف، فسئل - حفظه الله - عن وجود الإثبات في التواتر في قراءة متواترة: "ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي" بإثبات الياء، فاعتراض بأن ذلك يكون مخالفاً لرسم المصحف، وإذا خالف ذلك رسم المصحف ردت القراءة وإن

كانت قراءة مَنْ مِنَ القراء من العشرة، أو ما هو أعلى منهم، كما صرح في بداية كتابه.

وهذا كلام لا نستطيع أن نمر عليه مرور الكرام أو أن نتجاوزه؛ لأن هذه القراءة قراءة الأكثرين بإثبات الياء: "ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي" وهذا كونها تخالف رسم المصحف، هذا دعوة لا دليل على صحتها؛ لأنها توافق الرسم احتمالاً، والمصحف له خمسة رسوم، المقصد باختلاف رسم المصحف ليس المصحف العثماني وحده، وإنما المصاحف الخمسة أن تأتي القراءة مخالفة لاحتمال الرسم في المصاحف جميعاً، ولا شك طالما أنها قراءة الأكثرين فهي تُثبت في أحد المصاحف ولو احتمالاً، فلا حجة لردها.

فذلك مما استدعى أن نقف عنده من الكلام عن وجوه القراءة، وعن ورودها بهذه الشروط التي أشير إليها. وهذا بالنسبة لرسم المصحف.

وبالنسبة لموافقة العربية، فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يُعول في القراءة على ما هو أفشى في اللغة، وأقيس في العربية دون ما هو أثبت في الأثر وأصح في النقل؛ لأن العرب متفاوتون في خلوص اللغة وقوة المنطق، فإن قرءوا فلكل قبيل نهجه، ومن هنا اشتهرت قراءات معينة تحدثوا فيه أنكرها من يطعن في السند ومن لا يتحدث أو لا يعظم مسألة الأثر، ويقدم - كما قيل - الدراية على الرواية، وهذا الأمر لا يجوز في مسألة القراءات، فإن الرواية فيها مقدمة قطعاً على الدراية، يعني: لا إعمال للعقل فيما صحت روايته وتناقلت عن القراء تناقلًا تواتراً، لا مربة فيه، يلزم أخذه دون رد.

من ذلك: ما كان من تناول بعضهم على قراءة حمزة: "وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ" [النساء: ١] اعتراضاً بأنه عطف على الضمير المتصل دون

إعادة الخافض ، وهذا لا يكون في لغة العرب ، فالأصل أن يُعاد حرف الجر مع المخفوض فيقال : وبالأرحام ، وعلى ذلك ما جاء في القرآن : ﴿ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾ [الأحزاب: ٤٧] ﴿ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] ﴿ لِي وَلِوَالِدَيْ ﴾ [نوح: ٢٨] بإعادة الخافض مع الاسم الظاهر بعد الضمير ، فمن ثم اعترضوا على قراءة حمزة بن حبيب ، وهو من هو من القراء ، ولا وجه لهذا الاعتراض ؛ لأن العطف على الضمير المتصل المجرور جائز في لغة العرب ، وثابت في كلامهم وفي نثرهم وفي نظمهم ، بل القراءة شاهد واضح على جواز العطف على الضمير المتصل المجرور ، وإن كان الأولى والأقيس والأشهر إعادة الخافض ، إلا أن الجار دون إعادة الخافض يسلم به بما نقلت به القراءة.

كذلك عندنا الحديث المشهور عن قراءة ابن عامر بجر : ﴿ شُرَكَائِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٧] في سورة الأنعام ، وما ادعاه الزمخشري من أن ابن عامر نظر في بعض مصاحف أهل الشام فرآها مرسومة هكذا ، فظن أنها مخفوضة أو مجرورة ، وذلك قول لا يعول عليه ولا يقبل من مثله ، ورحم الله جميعهم.

أما اشتراط صحة السند فهذا لا مرأى فيه ولا جدال ؛ لأن القراءة سنة متبعة ، وهو الأساس فيها طالما صحت لا ينظر إلى غيرها. و الشيخ ذكر بعض القراءات المتواترة المعروفة من إسكان العلامة الإعرابية أو عدم ظهور العلامة الإعرابية ، كقوله تعالى : " فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ " (البقرة: ٥٤) بسكون الهمزة دون جرّها بالكسرة.

وبعد ذلك ننبه أو نشير إشارة بسيطة إلى أن ما عدا القراءات السبعية أو العشرية المتواترة لا يقرأ به قولاً واحداً ، أو لا يعد قرآناً ، فإنه لم يقرأ بالشاذ على أنه قرآن وإن كان يحتج به في سائر الأحكام اللغوية والشرعية ، وغير ذلك مما هو مشهور عند جمهور العلماء.

وتعرض الرافي - رحمه الله - للكلام عن قراء الشواذ، وبداية ظهورهم، وغير ذلك، وذلك أمر نحسمه بأن القراءات العشر المتواترة هي التي يتعبد بتلاوتها، وما عداها فهو شاذ.

الكلام عن قراءة التلحين

هو كلام عما ابتدع في القراءة والأداء مما بقي إلى يومنا هذا من استخدام القراء لما يشبه الغناء الخفي، كأنهم - كما أطلق عليهم - المغبرة، الذين يغبرون بذكر الله، فيهللون، ويرددون الصوت بالقراءة وغيرها، وهذا النوع الذي ظهر في القرون الأولى واستمر إلى يومنا هذا، لنا معه وقفة؛ لأنه يتناول جانبين؛ جانب: يُتفق على أنه مردود ومرفوض، وأنه من البدع التي استحدثت في قراءة القرآن، والتي لا يجب أن يعول عليها، بل إنها تدور بين حكمين؛ إما الكراهة وإما الحرمة، الكراهة إذا حافظ على الحروف، أما إذا مَطَّ الحرفَ وخرج به إلى غيره، وغير أو زاد أو نقص في الحرف نتيجة ما فعله، فذلك محرم قولاً واحداً؛ لأنه تغيير في كلام الله ﷻ.

من أقسام النغم الذي أحدثوه فيما يسمى بقراءة التلحين: الترعيد، والترعيد؛ وهو أن يرعد القارئ صوته كأنه يرعد من البرد والألم، يقرأ وكأنه يرتعش متأماً أثناء قراءته.

والترقيص: وهو أن يروم السكوت على الساكن، ثم ينقر مع الحركة كأنه في عدو وهرولة - يسرع - وكأنه أراد أن يقف فجري، ورقص السامع بهذا الذي أحدثه.

والتطريب: وهو أن يترنم بالقرآن ويتنغم به، فيمد في غير مواضع المد ويزيد في المد إن أصاب موضعه.

والتحزين: وهو أن يأتي بالقراءة على وجه حزين يكاد يبكي مع خشوع وخضوع.

والترديد: وهو رد الجماعة على القارئ في ختام قراءته بلحن واحد على وجه من تلك الوجوه.

هذه النماذج التي ذكرها الرافعي في حديثه عن قراءة التلحين، وهي نماذج واضحة وتُسمع من بعض القراء الذين يببالغون، وخاصةً ممن يقرءون في المناسبات وغير ذلك، تجده يريد أن يجذب انتباه السامعين إلى بيان صوته وإلى أدائه، فيقع في بعض هذه الأشياء، ولا يقع في ذلك إلا من لا وثوق في علمه من القراء. وبحمد الله لم نسمع أمثال ذلك من القراء الأكابر المعتمدين في زماننا، لم يلجئوا إلى هذه الأساليب في قراءتهم، وإن كانوا يراعون المقامات الصوتية وغير ذلك مما تعلموه في عصورنا الحديثة كما يقال: تعلموه تعليماً أكاديمياً؛ لتحسين الصوت والتغني بالقرآن الكريم. إلا أن هذه الأشياء لم تظهر فاشيةً عند القراء المعتمدين الكبار الذين تؤخذ عنهم القراءة.

فذلك الجانب هو الذي يرفض من القراءة بالتلحين؛ لأنه ربما يؤدي - كما قلنا - لإبدال حرف مكان حرف، أو اختلاس حرف، فيقع من الكلمة وتنطق على غير مرادها، وضرب الشيخ هنا مثلاً ببعضهم عندما كان يقرأ قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩] فاختلس وجعلها "كأنها مسكين" يعني: "أما السفينة فكانت لمسكين!". فحذف الألف في قراءته،

اختلس الألف اختلاصاً، فكأنها تحولت من الجمع إلى الأفراد، وذلك كما قرأ بعضهم بيت شعر فقال: "بعض مفيها مفيها" بدلاً: "من ما فيها".

فهذا الاختلاس الذي تم هذا يرفض؛ لأنه غير من الكلمة، وحولها من كلمة لأخرى، فلذلك يقول صاحب (جمال القراءة) ويبدو والله أعلم أن المقصود هو السخاوي في كتابه (جمال القراء وكمال الإقراء) - إن أول ما غنى به القرآن قراءة الهيثم: "أما السفينة... فكما تقدم. فلعل ذلك أول ما ظهر من هذا النوع من قراءة التلحين الذي هو مرفوض؛ لأنه خروج عن قراءة القرآن كما أنزلها المولى ﷺ لتجويدا وأحكامها، بل عد الشافعي ذلك من أفعال الزنادقة الذين وضعوا ما يسمى بالتغيير؛ ليصدوا الناس عن ذكر الله وقراءة القرآن، وهي إدخال الإنشاد واستخدام الأساليب التي تذهب جلال القرآن وقديسيته في النفوس إذا ما استخدم القرآن بالتلحين.

وبالجملة: فإن التعبد بفهم معاني القرآن في وزن التعبد بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراء المتصلة بالنبي ﷺ.

أما الجانب الآخر في موضوع قراءة التلحين هو ما ورد في أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ فيما يسمى بالتغني بالقرآن. هناك فرق بين ما أحدثه القراء من هذه البدع المرفوضة، وبين ما أشار إليه نبينا الكريم ﷺ في الأحاديث الصحيحة: ((ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن)) وفي رواية: ((ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن، يجهر به)) وحديث: ((ليس منا من لم يتغنى بالقرآن)). فالمراد بالتغني بالقرآن هو تحسين الصوت، بدليل الحديث المشهور عن أبي موسى < قال لي رسول الله ﷺ ذات يوم: ((لورأيتني وأنا أستمع قراءتك

البارحة، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود، فقال < : أما والله لو علمت أنك تسمع قراءتي، لحبرتها لك تحبيراً)).

هذا ما نص عليه ابن كثير - رحمه الله - في قوله: "أن المراد تحسين الصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع، والانقياد بالطاعة، أما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية، والقانون الموسيقي - كما يقولون - فالقرآن منزّه عن هذا، ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، وهذا محذور كبير نص الأئمة على النهي عنه؛ لأنه كما قلنا: لو خرج إلى التنطيط الفاحش الذي يزيد بسببه حرف أو ينقص حرف، فقد اتفق العلماء على تحريم ذلك.

أما التحزين بالقرآن وهو ما ذكره الرافعي - رحمه الله - على أنه صور من صور التلحين، أنه يقرأ على وجه حزين يكاد يبكي مع خشوع وخضوع، فهذا ما ذهب إليه الرافعي - رحمه الله - لأن هذا الأصل في قراءة القرآن أن القارئ يستحب له البكاء والتباكي لمن لم يقدر على البكاء والحزن والخشوع؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩ ﴾ [الإسراء: ١٠٩] ولقوله ﷺ: ((اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا)) وفي الحديث الذي رواه أبو داود بسنده عن عبد الله بن الشخير < وأرضاه عن أبيه قال: ((رأيت رسول الله ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء)) وفي (الشعب) للبيهقي الحديث عن سعد بن مالك مرفوعاً: "إن هذا القرآن نزل بحزن وكآبة، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا".

ولذا قال الغزالي - رحمه الله: "البكاء مستحب مع القراءة وعندها، فذلك أمر مطلوب". وأيضاً كي لا نتحامل على شيخنا الرافعي، فإن نستطيع أن نقول: إن

التحزين له جانبان ؛ جانب مقبول وهو الذي يقرأ القرآن بخشوع وخضوع ، وجانب مرفوض هو المبالغة في هذا الأمر ، وحتى أنه يبالغ في التصنع في هذا الأمر ، فالسامع لا يتبين الحروف من قارئها.

لغة القريش

الأصل فيمن نزل القرآن بلغتهم قريش ، كان طبيعياً أن يكون القرآن بلغة قريش ؛ لأن رسول الله ﷺ قرشي ، ثم ليكون هذا الكلام زعيم اللغات كلها كما استمازت قريش من العرب بجوار البيت وسقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، وغيرها من خصائصهم ، وقد ألف العرب أمرهم ذلك ، واحتملوا عليه ، وأفردوهم به ، كذلك يكون الأمر في كلام الله ﷻ.

يعني : العرب ألفوا أن قريشاً هي سيدة العرب ، وهي أعلى القبائل شأنًا بين العرب ، فكون القرآن يأتي بلغتها ذلك يناسب سيادتها للعرب قبل.

وأيضاً وجه جلي آخر لنزوله بلغة قريش : أن قريشاً اشتملت لغتها على لغات العرب ، فكانت تأخذ من اللغات أحسنها بحكم الجوار كثيف وهوازن وهذيل ، وغيرها من القبائل ، وبني سعد وغيرها ممن هم على مشارف مكة. وأيضاً عندما كان يأتيها في المواسم من القبائل الأخرى البعيدة عنها كتميم وغيرها ، كانت تؤخذ أعلى اللغات في لغة قريش ، فقريش ضمت لغات العرب أصفها وأحسنها. فالقرآن لو نزل بغير ما ألفه النبي ﷺ من اللغة القرشية وما اتصل بها ، كان ذلك مغمزاً فيه ﷻ أن يأتيهم بلغة ليست بلغتهم ، وبطريقة كلام لا يعرفونها.

ويضرب هنا مثال أحسن الشيخ في ذكره - الرافي - قال: "لو أن شاعراً من شعرائهم ظهر فيهم بدين خيالي وأقامهم عليه، لكان من الرجاء والاحتمال أن يستجيبوا له دون صاحب القرآن الذي ينزل عليه بلغة غير لغة قبيلته". يعني: هذا الأمر معروف عند العرب في طباعها، أنها تتبع ما يجيء على فطرتهم اللغوية التي فطروا عليها، وطريقتهم التي يتحدثون بها. فهناك طائفة من الناس يذهبون: إلى أن القرآن لو نزل على النبي ﷺ بغير القرشية لكان ذلك وجهاً من إعجازه. وهذا كلام من لا يدري كيف يقول؛ لما سبق ذكره، من أن النزول على لغة قريش هو الطبيعي لسيادة قريش، وهو المنطقي بنزوله على لغة يعرفونها، فقد كان من إعجاز القرآن أن يأتيهم بأفصح ما تنتهي إليه لغات العرب جميعاً. فهنا يظهر لنا أن القرآن نزل بلغة قريش، وإن كان في القرآن ألفاظ - سنتحدث عنها مستقبلاً إن شاء الله سبحانه تعالى - مما يسمى بالغريب، أو مما يسمى بالمعرب، أو غيره من الكلمات، وإن كان هناك ألفاظ جاءت على لغة أقوام آخر، كقوله تعالى: ﴿لَا يَلِكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤] أي: لا ينقصكم، وهذه لغة بني عيس، فإن هذا الذي يذكر من مثل هذا لا يتعدى كلمة أو كلمتين في القرآن كله تنسب إلى لغة من اللغات.

فبالتالي لغة القرآن الكريم جاءت بلغة قريش على ما ألفه العرب في كلامهم، وجرت لغة القرآن على أحرف مختلفات في منطق الكلام كتحقيق الهمز وتخفيفه، والمد والقصر، والفتح والإمالة، وما بينهما، والإظهار والإدغام، وضم الهاء وكسرها، من: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] و﴿إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧] وتقرأ: "عليهم" و"إليهم"، وإلحاق الواو فيهما، وفي لفظتين: "منهم" [البقرة: ٧٥] و"عنهم" [البقرة: ٨٦] وإلحاق الياء في: ﴿إِلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٨] و﴿عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢] و﴿فِيهِ﴾ [البقرة: ١٨٥] ونحو ذلك.

فكان أهل كل لحن يقرءونه بلحنهم، وربما استعمل القرآن الكلمة الواحدة على منطلق أهل اللغات المختلفة، فجاء بها على وجهين؛ لمناسبة في نظمه، ويضرب

مثال بذلك كلمة: براء وبريء، فأهل الحجاز يقولون: أنا منك براء، وتميم يقولون: أنا منك بريء، وجاء في القرآن اللفظان: ﴿بِرَاءٌ﴾ [الزخرف: ٢٦] و﴿بِرِيءٌ﴾ [الحشر: ١٦] وكذلك: ﴿فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١] و﴿وَأَلِيلٍ إِذَا يَسْرٍ﴾ [الفجر: ٤] فأسر هي لغة قريش، يقولون: أسريت، وغيرهم من العرب يقولون: سريت.

وهذا باب من اللغة متنافر وموجود، وأهل علوم القرآن أحصوا هذه الكلمات، وذكروها معدودةً، فهذه القراءات السبع المتواترة لم يكن من قبيل الأداء، أما ما هو من قبيله كالمدة والإمالة ونحوها، فهذه الظواهر اللغوية كتخفيف الهمزة وتحقيقها، والفتح والإمالة، والإظهار والإدغام، والتفخيم والترقيق، وغير ذلك من الظواهر، كله موافق للغة العرب، ولا نخرجه عن أن الأصل في لغة القرآن هي لغة قريش.

مسألة الأحرف السبعة

هذه المسألة أصلها الأحاديث المتواترة الصحيحة المنقولة عن رسولنا الكريم ﷺ في هذا الباب كقوله: ((أقراني جبريل على حرف، فراجعت، فلم أزل أستزيده ويزيدوني حتى انتهى إلى سبعة أحرف)) والحديث الذي ذكرناه من شأن عمر < وأرضاه مع هشام بن حكيم < وأرضاه. فانتهى بقوله ﷺ: ((فاقرأ ما تيسر منه)) وفي رواية لمسلم عن جبريل # أنه قال لرسولنا - صلوات الله وسلامه عليه: ((إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيا حرف قرءوا عليه أصابوا)).

وغير ذلك من الأحاديث التي وردت في هذا الباب.

ومفتاح الكلام عن الأحرف السبعة نبدأ من نهاية ما ذكره الرافعي - رحمه الله - يقول: لو أن هذا الحديث قد جاء في تأويله نص عن النبي ﷺ يعين المراد

منه ، لما اختلفت أقوال العلماء فيه ، وما داموا قد اختلفوا فدعنا نختلف معهم ،
ونأخذ بالأشبه والأمثل مما يوافق القرآن نفسه ، وقد أنزله الله : ﴿ الَّذِي أَنْزَلَ
السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤] فإن ذهب مذهبنا
وإلا فخذ ما أحببت أو دَع.

أثرت أن أذكر عبارة الرافي ؛ لأنه أتى برأي في مسألة الأحرف السبعة ، واختاره
ورجحه ، ورد رأياً آخر ، فكما قال نقول ما قاله - رحمه الله. نقول : نحن
نوضح المسألة ونختار أيضاً ما نراه في هذه المسألة.

فالأحرف السبعة انقسم العلماء فيها إلى ثمانية أقوال :

القول الأول : قال قوم : هي سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد.

القول الثاني : يقول : المراد بالأحرف السبعة هي سبع لغات من لغات العرب
على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عن سبع لغات ، وهناك فرق بين
القول الأول والثاني ؛ لأنه يعني أن الأحرف السبعة إنما هي أحرف سبعة متفرقة
في سور القرآن ، لا أنها لغات مختلفة في كلمة واحدة باتفاق المعاني هذا وجه
الاختلاف بين القول الثاني والأول.

القول الثالث : قالوا : إنها سبعة أوجه من الأمر والنهي ، والوعد ، والوعيد ،
والجدل ، والقصص ، والمثل ، أو من الأمر والنهي ، والحرام والحلال ، والمحكم
والمتشابه والأمثال.

القول الرابع : قال : إن العدد المذكور في الحديث لا مفهوم له ، وإنما هو رمز إلى
ما ألفه العرب من معنى الكمال في هذا العدد. وهذا استحسنة الرافي أيضاً.

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة هي القراءات السبع، وهذا أضعف الأقوال وأردها، ولا يحتاج إلى تعليق كما يقال؛ لأن القراءات المتواترة عشرة وليست سبعة.

القول السادس: أنها سبعة أحرف من الاختلاف لا يخرج عنها، وهذا رأي ابن الجزري، واختاره الرافعي في بداية كلامه ناسبه لأحد العلماء.

يقول: الاختلاف في الحركات بلا تغيير في المعنى والصورة، يحسب ويحسب أن يكون بتغيير في المعنى فقط: ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] "فتلقى آدم من ربه كلمات" بالتبادل بين "آدم" و"كلمات" بين الرفع والنصب.

أن يكون التغيير في الحروف مع التغيير في المعنى لا الصورة: ﴿تَنَلُّوا﴾ [البقرة: ١٠٢] و﴿تَبَلُّوا﴾ [يونس: ٣٠].

أن يكون التغيير في الحروف مع التغيير في الصورة: ﴿الضَّرَطُ﴾ [الفاتحة: ٦] بالصاد و"السرط" بالسين.

أن يكون التغيير في الحروف والصورة: ﴿يَأْتِلُ﴾ [النور: ٢٢] و"يتأل".

أن يكون التغيير بالتقديم والتأخير: ﴿وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٩٥] أو وقراءة: "وقتلوا وقاتلوا".

أن يكون التغيير زيادة والنقصان: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢] و"أوصى بها إبراهيم بنيه".

هذا قول في الأوجه السبعة.

القول السابع: يقول: إن الأوجه السبعة هي الأصول المضطردة مثل صلة الميم - ميم الجمع، وهاء الضمير - ومثل الإدغام والإظهار، والمد والقصر، وتحقيق الهمز وتخفيفه، والإمالة وتركها، والوقف بالسكون وبالإشارة إلى الحركة، وفتح الياءات وإسكانها وإثباتها وحذفها.

القول الثامن: الذي يرى في هذا المسألة، ويرجح على غيره: أن الأوجه السبعة هي وجوه التغيرات السبعة التي يقع فيها الاختلاف:

الوجه الأول: باختلاف الأسماء بالإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث، تأتي الكلمة مفردة في قراءة وجمعاً في قراءة، أو تأتي مذكرة في قراءة وتأتي مؤنثة في قراءة، فكما قرئ تواتراً: ﴿لَأْمَنَّتِيهِمْ﴾ [المؤمنون: ٨] و"لأمانتهم".

الوجه الثاني: للتغير فهو التغير في وجوه الإعراب، كما ضربنا المثل: "فتلقى آدم من ربه كلمات"، ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾.

الوجه الثالث: الاختلاف في التصريف: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] وقرئ: "فقالوا ربنا بعد بين أسفارنا"، وقرئ: "ربنا بعد بين أسفارنا".

الوجه الرابع: الاختلاف في التقديم والتأخير: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسَّ﴾ [الرعد: ٣١] و"أفلم يأتي سي". وكذلك التقديم والتأخير في الكلمات: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١] "فيقتلون ويقتلون".

الوجه الخامس: الاختلاف بالإبدال، سواء كان الإبدال إبدال حرف مكان حرف: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] وقرئ بالراء بدلاً من الزاي. وإبدال لفظ مكان لفظ، ومثاله ليس من المتواتر: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [الفارعة: ٥] وقرئت في قراءة ابن مسعود: "كالصوف المنفوش".

الوجه السادس: الاختلاف بالزيادة والنقصان وهذا في المتواتر: ﴿وَأَعَدَّهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠] قرئ: "من تحتها الأنهار" بزيادة "من" - وهذا سنتعرض له تفصيلاً في موضوع الزيادة.

الوجه السابع: فهو اختلاف اللهجات للتفخيم والترقيق، والفتح والإمالة، والإظهار، والهمز، والتسهيل، والإشمام، ونحو ذلك. وهذا أرجح الآراء في معنى الأحرف السبعة؛ لأنه يؤيده الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ ولأنه يخلو من المحذور الذي يقع فيه بعض الآراء الأخر؛ ولأنه يعتمد على الاستقراء لأوجه الاختلاف في القراءات.

بقي أن نشير فقط إلى الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف، فمن ذلك: صيانة كتاب الله وحفظه من التبديل والتحريف، والتخفيف على الأمة، وتسهيل القراءة عليها، وجمع الأمة على لسان واحد وهو لسان قريش الذي نزل به القرآن الكريم، والذي انتظم كثيراً من مختارات ألسنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج وأسواق العرب المشهورة، وأخيراً الجمع بين حُكَمين مختلفين بمجموع القراءتين.

والخلاصة: هي أن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات، وذلك ضرب من ضروب البلاغة، يبتدئ من جمال هذا الإيجاز وينتهي إلى كمال الإعجاز. ومعنى هذا أن القرآن معجز؛ إذ قرئ بهذه القراءة الأولى، ومعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثانية، ومعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة، وهلم جراً.

تابع: القراءات القرآنية وما بها من أوجه للإعجاز

عناصر الدرس

- العنصر الأول : الإعجاز في تنوع أوجه القراءات فيما يتعلق
ببعض مسائل الاعتقاد ٢١٧
- العنصر الثاني : تنوع القراءات القرآنية من حيث الإعجاز
التشريعي ٢٢٠
- العنصر الثالث : الإعجاز البياني واللغوي في تنوع القراءات ٢٢٢
- العنصر الرابع : القراءات وأثرها في: التوجيه البلاغي، وتنوع
الأساليب ٢٢٨

الإعجاز في تنوع أوجه القراءات فيما يتعلق ببعض مسائل الاعتقاد

هذا الإعجاز الذي شمل جميع أركان الشريعة الإسلامية من عبادات وعقائد، وما يتعلق أيضاً من اجتهادات في المجالات اللغوية والبيانية.

نبدأ في حديثنا عن الإعجاز في تنوع أوجه القراءات فيما يتعلق ببعض مسائل الاعتقاد كجانب تطبيقي.

مطلب أفعال العباد:

هذه المسألة التي كثر فيها الكلام عند المتكلمين، نجد من القراءات المتواترة العشرية التي ثبتت ما يساعدنا على الحسم في هذه المسائل، أو بيان إعجاز القرآن منها. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وقوله ﴿وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [طه: ٨٠].

فهذه الآيات قرئت تواتراً: "واعدنا وواعدنا"، "واعدنا" بألف بعد الواو، "وواعدنا" دون ألف، وقراءة "وَعَدْنَا" دون الألف في الفعل هذه القراءة صريحة في أن الفعل فعلُ الله ﷻ فالوعد منه ابتداءً، والقراءة الأخرى: "واعدنا" دلت على نسبة الأفعال إلى العباد على سبيل المجاز، فكأن موسى # في اشتياق إلى لقاء المولى ﷻ ومن ثم كان إثبات الأفعال مجازاً أو على سبيل المجاز إلى العباد مع أن الله ﷻ هو صاحب الفعل على الحقيقة، وهو ﷻ الذي ابتداءً بوعد موسى # وبإتمام هذا.

وكذلك عندنا قراءة قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ، وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (٣٧) [غافر: ٣٧] قرئت: "وصد على السبيل" بالبناء بما لم يسم فاعله، أو بالبناء للمجهول، وقرئ: "وصد عن السبيل" بالبناء للمعلوم. وقيل: القراءتان قرئت تواتراً. وهذه القراءة - بالبناء للمفعول: "صد عن السبيل" إخبار من الله ﷻ عن انحراف فرعون وفجوره، وأن الله ﷻ صدَّ هذا الطاغية عن سبيل الحق، وعن طريق الهداية؛ لما بدر منه، وبما كان من تعنته، وبما كان من ادعائه الألوهية والربوبية، وما برز منه تجاه المولى ﷻ. فجاءت القراءة الأخرى: "وصد عن السبيل" بالبناء للمعلوم، بنسبة الفعل إلى فرعون؛ لأنه هو الذي فعل هذا الصد، فأفادت القراءة أن الأفعال للمولى ﷻ وأنه قد تُنسب إلى العباد على سبيل المجاز، مع أن الله ﷻ هو المالك المتصرف في خلقه كما يشاء.

مطلب آخر في مسائل الاعتقاد هذا المطلب ما يتعلق بالنبوات:

فالأنبياء هم أكرم خلق الله ﷻ والأنبياء هم المعصومون المبرءون الذين اختارهم الله من صفوة خلقه؛ لكي يبلغوا رسالة ربهم، فالنبي يُعتقد فيه الكمال ويعتقد فيه أنه مرسل من الله ﷻ مبرئاً من العيوب أو ما يشينه. فكانت القراءات في موضع من المواضع وفي بعض القراءات ما يؤكد هذا المعنى بما يختص به رسل الله ﷻ قال المولى ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٢٤) [التكوير: ٢٤] فقرئت تواتراً: ﴿بِضَنِينٍ﴾ وقرئت: "بظنين" أي: بالضاد وبالظاء، والمعنى يختلف على القراءتين، ولكنه ينصب في عصمة الأنبياء، وفي بيان قدر الأنبياء المكرمين، فما هو على الغيب بضنين، أي: ببخيل.

فإن الرسول الكريم ﷺ لم يسأل المشركين أجراً على ما أخبرهم به، ولم يبخل عليهم بما عنده من علم - فصلوات الله وسلامه عليه - كان يرغبهم في الجنة ويحذرهم من النار، ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار، ومع ذلك لم يطلب منهم شيئاً: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠] فكان ذلك علامة على صدق نبوته، بأنه لم يبخل عليهم بالعلم كعادة الكهان الذين كانوا لا يقدمون الخبر، أو لا يفيدون بالنبأ، إلا إذا أخذوا في المقابل أجراً، وهو ما يسمى بالحلوان أو حلوان الكاهن.

والقراءة الأخرى: "وما هو على الغيب بظنين" أي: بمتهم أنه ﷺ ليس بمتهم فيما يخبر به عن ربه ﷻ فهو الصادق المصدوق ﷺ يخبر بما أخبر به ربه ﷻ وعلى القراءتين يتضح كمال عصمة الأنبياء.

كذلك عندنا أيضاً في القراءات ما يساعد وما يبين مسائل تتعلق بالسمعيات، أي: الغيبيات التي أخبر المولى ﷺ. من ذلك: أمر الملائكة، فهؤلاء الملائكة المكرمون عباد الله الذين: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] هذه الملائكة نجد من القراءات ما يبين قدر هؤلاء الملائكة الكرام، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنْتًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] فقرئت: ﴿عِبْدُ الرَّحْمَنِ﴾ جمع عبد، وقرئت: "عند الرحمن" و"عند" ظرف كما هو معلوم. فهاتان القراءتان بينت منزلة الملائكة الكرام عند الله ﷻ فالقراءة على العندية بمعنى الظرف: أنهم مكرمون عند ربهم ﷻ وأنهم لا يعصونه فيما يأمر به، فهذه العندية عندية الفضل والقرب من الله - تعالى - بسبب الطاعة.

فتعاورت القراءتان على لفظة واحدة لها معانٍ متنوعة، هذه المعاني تنصب حول شيء واحد، وهو أن الملائكة أصحاب مكانة عند الله، وليسوا كما ادعى هؤلاء المشركون فيهم من أنهم إناث وليسوا ذكوراً، فإن الله ﷻ أخبر أنهم عنده، ومن عند الملك ﷻ لا بد أن يكون على أكمل حال، وعلى أتم الأوصاف، فلا يكون منهم نقص فيما ينتقصه الناس من ظنهم أن الإناث ينقصون الذكور في الفضل وفي المكانة، فأخبر الله ﷻ أنهم عنده، وأنهم أصحاب المكانة العلية، فهم ملائكة كرام ما عصوه سبحانه طرفة عين.

تنوع القراءات القرآنية من حيث الإعجاز التشريعي

نتقل إلى جانب آخر من جوانب الإعجاز في تنوع القراءات القرآنية، وهو الإعجاز التشريعي، أي: فيما يتعلق بمسائل الشريعة.

فمعلوم أن الفقهاء والأصوليين ومن يتصدون لهذه المسائل التشريعية أو الفقهية، هؤلاء تُعد القراءات عندهم من المصادر المعتمدة التي تبين لهم، ويحتجون به في خلافاتهم، وتظهر وجه الإعجاز في هذه القراءات. فالقراءة حجة الفقهاء في الاستنباط، ومحجتهم في الابتداء، وكل قراءة في حد ذاتها خبر شرعي دون إغفال لغيرها من القراءات وما تقتضيه من حكم موافق لها أو مخالف، وهذا يسميه العلماء بالإعجاز التشريعي.

ونماذج ذلك عديدة في كتاب الله ﷻ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْكَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] قرئت تواتراً: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ بصيغة الأمر، وقرئت: "واتخذوا" بصيغة الماضي، فعلى كلتا القراءتين كان الخلاف الفقهي بين العلماء في حكم الصلاة خلف مقام إبراهيم # بعد الفراغ

من الطواف بالبيت العتيق. فهل هو واجب بدلالة قراءة الأمر: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾؟ أم أن المسألة سنة، ودليل ذلك أن الفعل جاء بصيغة الإخبار أي: صيغة الماضي "واتخذوا من مقام إبراهيم" وليس بصيغة الخطاب إلى مَنْ يخاطب وهو مكلف بهذا الفعل؟

كان ذلك هو الخلاف بين الفقهاء مترتباً على تنوع القراءتين بين الأمر والمضي. فذهب أبو حنيفة والشافعي - في أحد قوليهِ: إلى أن صلاة ركعتين خلف مقام إبراهيم # واجبتان، وذهب الإمام مالك وأحمد والشافعي - في قوله الثاني: إلى أن صلاة الركعتين خلف مقام إبراهيم # سنة، وذلك ناتج عن الاختلاف في القراءتين، وأدلتهم في ذلك يرجع فيها إلى كتب الفقه.

كذلك في قول الله ﷻ: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣] فقرئت: ﴿لَمَسْتُمُ﴾ بالألف، وقرئت: "لمستم" بدون الألف، وترتب على ذلك خلاف واضح بين الفقهاء في حكم مس المرأة، هل لمس المرأة ينقض الطهارة أو ينقض الوضوء، أم أنه لا ينقض الوضوء؟ وانبني الخلاف على تنوع القراءتين بين: ﴿لَمَسْتُمُ﴾ بالألف وبين "لمستم" بدون الألف. فذهب أبو حنيفة: إلى أن لمس الرجل للمرأة لا ينقض الوضوء مطلقاً سواء أكان اللمس بشهوة أو بغير شهوة، وذهب مالك وأحمد: إلى أن لمس المرأة بشهوة ناقض للوضوء، فإن كان بغير شهوة فلا ينتقض الوضوء به، وذهب الشافعي: إلى أن لمس الرجل للمرأة بدون حائل ينقض الوضوء سواء كان اللمس بشهوة أم بغير شهوة، باستثناء المحارم، فكان منشأ الخلاف هو تنوع القراءتين كما هو واضح من معنى اللمس والملازمة، وهل هي تنصب حول الجَماع أم مجرد اللمس فقط؟ وهذا معروف في النواحي الفقهية، ونتج عن تنوع القراءتين.

كذلك حكم إتيان المرأة بعد الطهارة من الحيض ، اختلف الفقهاء فيه نتيجة اختلاف القراءتين في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا ﴾ [النساء: ٢٢٢] فقري تواتراً : ﴿ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴾ وقرئ : " حتى يطهرن". فالتطهر والَطَّهْر على تلك القراءتين اختلف عليه حكم الفقهاء في إتيان المرأة عقب طهارتها ، فهل يكفي أنها تطهر؟ بمعنى : ينقطع دم الحيض عنها فيجوز إتيانها ، أم أنه يجب عليها أن تغتسل فتتطهر قبل أن يأتيها زوجها؟ فلذلك اختلف الفقهاء نتيجة تنوع القراءتين ؛ فذهب جمهورهم : إلى أن المرأة إذا انقطع حيضها لا يحل لزوجها مجامعتها إلى بعد أن تغتسل بالماء ، وذهب أبو حنيفة : إلى أن المراد بالطهر انقطاع الدم ، فإذا انقطع دم الحيض جاز لزوجها أن يطأها قبل الغسل.

ذلك أمثلة لما نتج عن الخلاف الفقهي الناتج عن القراءات القرآنية.

الإعجاز البياني واللغوي في تنوع القراءات

نتقل إلى جانب آخر من جوانب الإعجاز في تنوع القراءات ، وهو جانب ذو أهمية عظيمة ، وهو جانب الإعجاز البياني واللغوي في تنوع القراءات. فإن تغاير القراءات أثر لغوياً في جوانب الإعراب ، وكذا في جوانب التصريف ، والجوانب البلاغية فيما يتعلق بالتوجيه البلاغي.

تغاير القراءات في النواحي الإعرابية :

معلوم أن الإعراب يساعد على وضوح المعنى وتحديدته ، ويزيل اللبس ، ويكشف الغموض ، ويعطي الكلمات حرية الحركة ، فتتنوع التراكيب بتنوع الموقف

والمقامات، وبدون الإعراب تختلط المعاني، ويضطرب فهم مراد الله - تعالى. وهذه المسألة اهتم بها العلماء كثيراً، وقد أفردت لها دراستي - الماجستير - بعنوان: (النحو والقراءات عند المنتجبي الهمداني في كتابه الفريد في إعراب القرآن المجيد).

تمثل لهذه الظاهرة بالتماذج الآتية:

أولها: تغاير القراءات بين الرفع والنصب، أي: تقرأ القراءة بالرفع وتقرأ بالنصب، وما يترتب على ذلك من أوجه للإعجاز. قال الله ﷻ: ﴿يَبَيِّنْ أَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] قرئ تواتراً: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ بالرفع "لباس" وقرئ "لباس التقوى" بالنصب. فقراءة النصب ينصرف توجيهها إلى العطف على كلمة "لباسا": ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تَكُمُ﴾، و"أنزلنا لباس التقوى" فذلك على معنى العطف، فاللباس الذي يوارى السوء الظاهرة، والتقوى التي توارى السوءات الباطنة التي تصيب العبد من أمراض وأدواء في القلب، التقوى هي طريق علاجها وطريق التطهر منها، فهذه القراءة تأتي على العطف، وقراءة الرفع تأتي على الاستئناف، على أن "لباس" مبتدأ، و"التقوى" مضاف إليه، وجملة: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ في محل رفع خبر لكلمة: ﴿وَلِبَاسٌ﴾. فكأن المولى ﷻ ينشئ معنى جديداً ويستأنف معنى جديداً لأهل الإيمان، بأن خير ما يلبسون وخير ما يتزينون به هو تقوى الله ﷻ.

ومعلوم أن نزول الآية أو سبب نزولها كان يتعلق بما كانوا عليه في الجاهلية من الطواف بالبيت دون ملابس، يطوفون عرايا بالبيت، فأنزل الله ﷻ على عباده

هذه الآية ؛ ليبين لهم أن تقوى الله ﷻ خير ما يرتدون، وتأتي بتحريم أن يطوفوا بالبيت عرايا. وقوله ﷻ: ((أن لا يطوف بالبيت عريان)) فجاءت القراءة على الوجهين ؛ لتؤكد هذا المعنى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ ، "ولباس التقوى ذلك خير".

كذلك قرئ في الرفع والنصب قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةٌ أَحْطَبٍ﴾ [المسد: ٤٤] قرئ: ﴿حَمَالَةٌ﴾ بالنصب، وقرئ "حمالة" بالرفع، وعلى تلك القراءتين يظهر الفرق بين تعدد الأوصاف المذمومة بهذه المرأة - امرأة أبي لهب - فقراءة النصب تنصرف على أنها مذمومة معينه مخصوصة بهذا الوصف القبيح الذي يضاهاها، أو الذي يناسبها ويشاكلها بأنها حمالة الحطب، وقراءة الرفع على أنها خير لامراته: "وامراته حمالة الحطب" هذا إخبار من الله ﷻ عن هذه المرأة. ومعلوم أن القراءات وإن اختلفت إلا أنها تؤدي إلى معنى واحد، أو تنوع المعنى دون اختلاف، فمعلوم أن القراءات لا تتعارض، أي: لا تعارض بينها وإنما تخدم في المعنى الموجه إليه.

كذلك قول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ [التوبة: ٤٠] فقرأ: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ﴾ على الاستئناف، وقرأ: "وكلمة الله" على العطف، أي: جعل كلمة الذين كفروا السفلى وجعل كلمة الله هي العليا. وقد تحدت المفسرون في هذه الآية على كون: ﴿هِيَ﴾ ضمير فصل يرجح الرفع بأنها وقعت بين المبتدأ والخبر، فقال الطاهر بن عاشور: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ مستأنفة بمنزلة التذييل للكلام، بأنه أخبر عن "كلمة الذين كفروا" بأنها سارت سفلى، أفاد أن العلاء انحصر في دين الله وشأنه، فضمير الفصل مفيد للقصر، ولذلك لم تعطف كلمة:

﴿الله﴾ على كلمة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إذ ليس المقصور إفادة جعل "كلمة الله" عليا؛ لما يشعر به الجعل من إحداث الحالة، بل أفادت أن العلاء ثابت لها، ومقصور عليها.

وبالطبع هذا الكلام يُحمد من علامة كالطاهر بن عاشور، ولكننا نقول: إن القراءات لا تعارض بينها، فعلى قراءة النصب أيضاً ﴿هيك﴾ ضمير فصل، فمعلوم أن ضمير الفصل يقع بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله المبتدأ والخبر، ومفعولاً "جعل" أصلها المبتدأ والخبر. فهذا تذوق منه - رحمه الله - والمعنى قائم أيضاً مع قراءة النصب، وعطف على "جعل"؛ لأن "جعل" من الأفعال الناصبة لمفعولين أصلهما المبتدأ والخبر.

ذلك مثال و نموذج لتغاير القراءات بين الرفع والنصب.

ثانياً: تغاير القراءات أو تنوع القراءات بين الرفع والحذف، وذلك في كتاب الله ﷻ منها قول الله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] فقوله ﷻ: ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ قرئ تواتراً بالحذف والرفع: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ و"في لوح محفوظ". ومعلوم أنه في قراءة الحذف ينصرف الوصف إلى اللوح، فاللوح محفوظ، وفي قراءة الرفع ينصرف الوصف إلى القرآن، القرآن محفوظ، وكلا المعنيين مراد، فإن اللوح محفوظ وإن القرآن محفوظ، وذلك يؤكد حفظ الله ﷻ لكتابه المجيد في أصله وفي تنزيله وبعد تنزيله، والله ﷻ حافظ كتابه، وهذا مفاد من القراءتين، فاللوح محفوظ والقرآن محفوظ، وعلى كل إذا ثبت الحفظ للوح فهو ظرف للقرآن، ثبت للقرآن الحفظ، فالقراءتان مجتمعتان، والمعنيان متداخلان.

كذلك هناك تنوع القراءات بين النصب والخفض ، وهذه أحدثت إثراءً عظيماً في القواعد اللغوية والقواعد النحوية ، وعندنا القراءة المشهورة قراءة حمزة بن حبيب الزيات ، قراءة أول سورة "النساء" : "وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ" [النساء: ١] بالخفض ، فقراءة الجمهور وقراءة جمهور أهل الأداء بالنصب : "والأرحام" وقراءة حمزة بالخفض "والأرحام" هذه القراءة أدت إلى خلاف شديد بين النحاة وبين أهل اللغة ممن يتمسكون بقواعدهم على الغالب الأعم الأشهر ، وينكرون من القراءات ما يتعارض مع ما يذهبون إليه من قواعد ، فمعلوم أنهم يلزمون - مع إعادة الخافض - إعادة الخافض مع الخفض ، أي : إذا قلت : سلمت عليك ومحمداً ، فذلك لا يجوز ، فلا بد أن تقول : "سلمت عليك وعلى محمد" ، و"ذهبت إليك وإلى علي" فلا يصح ألا تعيد الجار ، فجاءت القراءة هنا حجة عليهم في عدم إعادة الجار ، فقال الله ﷻ : "وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ" ولم يقل : "وبالأرحام" فلم يعد الخافض ، وإن كان إعادة الخافض هو الشهير وهو لغة القرآن : ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ﴾ [هود: ٤٨] ﴿إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] ﴿لِي وَلِوَالِدَيْ﴾ [نوح: ٢٨] .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي أظهرت هذه المسألة.

تنوع القراءات في التصريف ، أي : علم الصرف ، وما يتعلق به من قواعد أفادت الصرفيين ، وانبني عليها إعجاز في قول الله ﷻ وفي القراءات المتواترة :

من النماذج التي تُصور الإعجاز في تنوع القراءات صرفياً قول الله ﷻ : ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١] فقرئت : ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ بفتح اللام والياء على أنها اتصلت بها ياء المتكلم ، وهذه قراءة الجمهور ، وقرئت : "هذا صراط علي" بكسر اللام ورفع الياء منوئاً. فمعلوم أن "علي" هي

جار ومجرور و"علي" صيغة من صيغ المبالغة على وزن "فعليل" فتتبع القراءتين هنا أوضح أمراً ظاهراً، وهو أن اللفظ الواحد أدى إلى معنيين مختلفين، لكنهما يتعاونان في إبراز علاقة متداخلة بين القراءتين، على معنى أن قراءة الجمهور استفيد منها وعد الله ﷻ بضمان استقامة المخلصين؛ لأنهم على صراطه، وهذه ومن كان على صراط الله فلا يضل ولا يشقى، وأما قراءة يعقوب فتفيد بأن هذا الصراط رفيع الشأن، عال القدر، وكيف لا يكون كذلك وهو طريق الله ضمن لأهله الاستقامة، ووعدهم بالسلامة، وأحلهم ﷻ دار المقامة من فضله لا يسمهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب؟

ذلك واضح من تنوع القراءتين بين صيغتين؛ صيغة المبالغة وصيغة الجار والمجرور. وهناك ظاهرة صرفية أيضاً في تنوع القراءات: أن يأتي اللفظ بالإنفراد وبالجمع، وكان من نماذج ذلك ما جاء في سورة يوسف # : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْسَائِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف: ٧] فقرأت: ﴿آيَاتٌ﴾ بالجمع، وقرأت: "آية" بالإنفراد. فبالنظر إلى معنى القراءتين يتضح وجه من وجوه الإعجاز، وهو أن قراءة الجمع ﴿آيَاتٌ﴾ تبين مدى العبر العظيمة التي وُجدت في قصة يوسف # أما قراءة الأفراد فتبين أن قصة يوسف # قصة عظيمة الشأن بها عبرة، وبها آية عظيمة من آيات الله ﷻ. فالتقت القراءتان على معنى يبين عظم شأن قصة يوسف # في ذاتها، أو بما فيها من عبر متنوعة، ودل على ذلك تنوع صيغتي الجمع والإنفراد: ﴿آيَاتٌ﴾ و"آية".

من النوادر أيضاً التي تأتي في مجال الصرف هذا النموذج في قوله تعالى حكايةً عن فرعون: ﴿سَنُقَلِّبُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧] ﴿سَنُقَلِّبُ﴾ بالتشديد، و"سنقلب" فالقراءتان متواترتان، وهذا

اختلاف في صيغة الفعل بين التشديد والتخفيف، وعلى كلتا القراءتين يأتي معنى يتضح فيه نفسية هذا الطاغية، ومدى حقه ومدى إرادته الانتقام من موسى # وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ قَوْمِهِ: ﴿سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، ﴿سَنُقْتِلُ﴾ تشعر بمدى الضغط النفسي الذي يصور حقد فرعون ورغبته الشديدة في الانتقام، و"سنقتل" أفادت عموم الإخبار بأنه سيفعل هذا الفعل ويقوم به، فاجتمعت القراءتان على إظهار معان ودلالات تؤدي إلى بيان المغزى من القصة ومن ذكرها، وهو مدى طغيان الطاغين، ومحاولتهم التخلص من أهل الإيمان، والفراغ من شأنهم، سواء كان بالفعل أو بإبراز المبالغة في إحداث الفعل.

القراءات وأثرها في: التوجيه البلاغي، وتنوع الأساليب

نأتي بعد ذلك للقراءات وأثرها في التوجيه البلاغي:

وهذه مسألة عظيمة في تنوع القراءات القرآنية؛ لأنها تظهر جانباً من أهم الجوانب في إعجاز القرآن، وهو الجانب البلاغي، فمعلوم أن بيان القرآن وبلاغة القرآن هي سير الإعجاز الذي اهتم به المهتمون، وأُفردت له المصنفات كما ذكرنا في بداية حديثنا على الإعجاز.

من ذلك: أن تأتي القراءة بين ذكر التذكير والتأنيث، من الأشياء التي اهتم بها البلاغيون إظهار قيمة الكلمة في استخدامها بين التذكير والتأنيث، وأنها تؤدي معنى للتذكير غير المعنى الذي يؤديه معنى التأنيث، وهذه دراسة بلاغية غير دراسة الصرفية. دراسة الصرف تهتم بالصيغة، ودراسة البلاغة تهتم بالأثر المعنوي للصيغة.

فهنأ نأخذ نمودجأ لها قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٢٨) ﴿الإسراء: ٢٨﴾ قرئ: ﴿سَيِّئُهُ﴾ وقرئ: "سيئة"، "كل ذلك كان سيئةً عند ربك مكروهاً" فـ ﴿سَيِّئُهُ﴾ واضح أنه بصيغة التذكير، و"سيئة" بصيغة التأنيث، والقراءتان يؤديان إلى معنى واضح في هذه الآية، أن قراءة التنوين "سيئة" تفيد أن قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ إحاطة بالمنهي عنه دون الحسن، يعني: كل ما نهى الله ﷻ عنه مما ذكر في الآيات السابقة لهذه الآية الكريمة من سورة الإسراء، فهو سيئة، وهو مما لا يرضى الله ﷻ عنه. أما قراءة التذكير بالإضافة إلى الهاء: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ﴾ يُشار بها بذلك إلى جميع ما تقدم، وفيه السيئ وفيه الحسن، هذا الذي ذكره المولى ﷻ في الآيات.

وكذلك عندنا وجه من وجوه البلاغة وهو تغاير حروف المعاني، أن يأتي حرف من حروف المعاني التي أفردنا لها كلاماً من الحديث السابق. ونكتفي بذكر نموذج واحد لهذه الظاهرة في قول الله ﷻ: ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٨) قرئ ﴿أَوْ أَمِنَ﴾ وقرئ: "أو أمن"، ف"أو" بفتح الواو والهمزة، و"أو" بإسكان الواو، "أو أمن" بسكون الواو فيها وفتح الهمزة.

فهنا يختلف المعنى أو يختلف التوجيه بين حرفي المعنى المستخدمين، فالهمزة جزء من العاطف، لا استفهام على قراءة "أو" بهذا تفيد الآية إنكار الأمن من أحد هذين الوجهين، أي: من إيتان العذاب ليلاً أو ضحًى، يقول المولى ﷻ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (١٧) ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (١٨) ﴿الأعراف: ٩٧، ٩٨﴾ فقراءة "أو" تدل على إنكار أمنهم من هذين الوجهين: البيات أو الضحى، أما قراءة: ﴿أَوْ أَمِنَ﴾

على الاستفهام، فأفادت أن استواء هذه الضروب من العذاب، وأن الله ﷻ منزل عليهم العذاب سواء كان بيّناً أو ضحّى، فلذلك هم لا يأمنون نزوله من المولى ﷻ عليهم، فكان يجب عليهم أن يطيعوا ربهم ﷻ وأن يستجيبوا لدعوته إليهم بتوحيده وبالإيمان به.

ولذلك نماذج أخرى في القراءات القرآنية كنموذج مشابه في قول الله ﷻ حكاية عن فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿٢٦﴾ [غافر: ٢٦] فقرأ: ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿٢٦﴾ وقرأ: "وأن يظهر في الأرض الفساد" يعني: بالواو العاطفة، و"أو" وهذا من تغاير حرف المعنى، وإن كان الحرفان ينتميان إلى حروف العطف، إلا أن هناك فرقاً بين "وا" وبين "أو" كما سبق أن بينا في حديثنا عن حروف المعاني.

بيان القراءات وأثرها في تنوع الأساليب:

الأساليب التي يستخدمها العرب في كلامهم أساليب تنتمي إلى أصليين، وهو أساليب الخبر والإنشاء. فالأسلوب إما أسلوب خبري أو أسلوب إنشائي، وبمنتهى الإيجاز: الخبري هو ما يحتمل الصدق أو الكذب، والإنشائي ما لا يحتمل الصدق أو الكذب، ومن صور: الاستفهام والنداء والأمر والدعاء، إلى غير ذلك من الأساليب.

فنأتي إلى بعض نماذج القراءات القرآنية التي تبين لنا التنوع في الأساليب تبعاً للقراءة، من ذلك: تغاير القراءات بين الخبر والاستفهام، أن الأسلوب خبري أم جاء على صورة الاستفهام؟ والاستفهام من صور الإنشاء، وكذلك: التنوع بين الخبر والنهي، والتنوع بين الخبر والأمر، وهذه كلها من الأساليب التي نعرفها،

ليست تنتمي إلى نوع واحد بل نوعين متغايرين ، نوع ينتمي تحت الخبر، والآخر ينتمي تحت الإنشاء.

من نماذج القراءات التي توضح الفرق بين الخبر والإنشاء هذا النموذج من سورة "الأعراف" قول الله ﷻ: ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٣] فقرئت: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ وقرئت: "إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا" فبالطبع قراءة: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ دون الهمزة، هذه على سبيل الخبر، وقراءة الهمز: "إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا" جاءت على سبيل الاستفهام، ويختلف الخبر عن الاستفهام؛ أما الإعجاز فهو واضح؛ لأن قراءة ترك الهمزة لم تؤثر على بقاء معنى الاستفهام، ولكنها أثرت على صورتها ومعنى الإخبار وإن لم يقصد، فإن مجيء التعبير على صورة الخبر يوحي بظلال معناه، فهو يعكس ثقة السحرة في الغلبة، وبالتالي في الأجر، حتى كأنهم قرروا وحكموا بأنفسهم بالأجر على سبيل التوكيد، فأدت القراءة إلى معنى جميل يدل على غرور هؤلاء، وعلى ثققتهم بأنهم غالبون، وبأنهم قاهرون، وبأنهم يستطيعون تحدي موسى # وذلك واضح من حكايات الله ﷻ عنهم في كتابه الكريم من قولهم لموسى # : ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٥]. وكذلك ما قالوه لفرعون وقولهم: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٤٤] إلى غير ذلك من ثققتهم في غلبة موسى، وفي انتصارهم عليه، ولكن الله ﷻ بين لهم بالآية الواضحة أن موسى مرسل من ربه، وكانت العاقبة إيمانهم به # ودخولهم في دين الله ﷻ.

فتنوعت القراءة بين: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ على الخبر، و"إِنَّا لَنَا لَأَجْرًا" على الاستفهام.

نموذج آخر يشابه هذا النموذج وله معنى جميل في ذكر القصة، وهو قول إخوة يوسف # ليوسف # عندما قال لهم: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [٨٩] قَالُوا أَيْنَ نَكْ لَأَنْتَ يُوسُفُ ط ﴿ ليوسف: ٨٩، ٩٠ فقرئت تواتراً: ﴿ أَيْنَ نَكْ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ وقرئت: "إنك لأنت يوسف" بهمزة واحدة على سبيل الإخبار، وذلك يوضح أنهم عرفوا أخاهم عندما قال # لهم وذكرهم بما فعلوه به وبأخيه، فقالوا له هذه العبارة: "إنك لأنت يوسف" وإن كانت على سبيل الاستفهام فهو استفهام على سبيل التقرير، فهم يريدون منه الإقرار على أنه يوسف # فلم تتعارض القراءتان، وإنما أكدت المعنى المراد بأنهم عرفوا أخاهم، وعرفوا أنه هو من آذوه، ومن رموه في غيابات الحب عندما ذكرهم # بنفسه.

فهذا من النَّصَفِ القرآني الجميل الذي جاء عن تنوع القراءات بين الخبر والإنشاء، ومعلوم أن التنوع بين الخبر والإنشاء ربما ينتج عن الفهم فقط أو عن التفسير فقط دون تنوع القراءة، ولكن تنوع القراءة يثري هذا المعنى البلاغي.

مثال الناشئ عن عدم تنوع القراءة قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ [المائدة: ٢٣] هل هو على سبيل الدعاء فيكون ذلك إنشأ؟ أم على سبيل الإخبار فيكون الأسلوب بذلك خبرياً؟

وإلى غير ذلك من النماذج الكثيرة الواردة في كتاب الله ﷻ ولكن تنوع القراءات يثري هذا المجال بصورة تتضح بمن يتذوق القراءة تذوقاً بلاغياً في هذا الأسلوب.

عندنا نموذج من تغير الأسلوب بين الخبر والأمر، منه قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١٢] ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ﴾ هذه صيغة خبر؛ لأنها جاءت بصورة الماضي، قرئت تواتراً: "قل ربي

احكم بالحق" بصيغة الأمر، فَمَنْ قرأ بصيغة الفعل الماضي جعل الفعل مسنداً إلى ضمير الرسول ﷺ المتقدم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فيكون ذلك إخباراً من الله - تعالى - عما قاله الرسول ﷺ في دعائه، أما صيغة الأمر فهي على أنه أمر إلى النبي ﷺ بأن يقول: ﴿ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ﴾ أي: احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين، وانصرنني عليهم.

فإن كل قراءة لها دلالة تدل عليها، فقراءة الجمهور: "قل" تدل على أنه ﷺ أمر أن يقول ذلك، وقراءة حفص: ﴿ قُلْ ﴾ تدل على أنه ﷺ امتثل الأمر بالفعل، وبذلك تلتقي القراءتان، ويتآخى المعنيان، ويظهر وجه الإعجاز في تنوع القراءات القرآنية.

عندنا كذلك من تنوع الأساليب بلاغياً الذي نتج عن القراءات هذه الآية من سورة المائدة في قول الله ﷻ: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۗ قَالَ أَتَقُولُونَ لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢] قرئت: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ وقرئت: "هل تستطيع ربك" بناء الخطاب، ونُصِبَ لفظ "رب" وهذه هي قراءة الكسائي، وقراءة الباقيين أو قراءة الجمهور: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ بياء الغائب ورفع "رب" على الفاعلية.

هاتان القراءتان توضح أن هناك علاقةً بينهما، فقراءة بضمير الغيبة: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ طلب لمعاينة المائدة، وذلك ليزداد هؤلاء الحواريون بصيرةً، ويتمكن الإيمان بالله في قلوبهم، وقراءة الخطاب: "هل تستطيع ربك" تعظيم بشأن المولى ﷻ جلت قدرته، وتنزهه ﷻ عن العجز، حيث أسند الحواريون السؤال عن الاستطاعة إلى عيسى # يعني: أنهم لا يتحدثون على استطاعة

المولى ، فهم يعلمون أنه ﷻ مستطيع ذلك ، وإنما يتوجهون بالخطاب لعيسى # بأنه يسأل ربه إنزال هذه المائة ، وفي ذلك إشارة إلى تكريم عيسى وتعظيمه حيث استجاب الله لدعائه.

وبذلك تكون كل قراءة قد أفادت معنى من المعاني.

هناك بعض الأساليب البلاغية التي وردت في القراءات ، من أشهر هذه الأساليب ما يتعلق بظاهرة الالتفات ، يعني : تنوع الضمير من الغيبة بالخطاب ، أو من التكلم إلى الغيبة ، وغير ذلك من ألوان الالتفات الستة المعروفة عند البلاغيين. فعندنا نماذج متنوعة في هذا اللون ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [النساء: ١٧٣] قرئت : ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ ﴾ وقرئت : "فئوفيهم". و"ئوفيهم" بضمير الغيبة و"ئوفيهم" بضمير المتكلم ، فقراءة النون جاءت موافقةً للسياق التعبيري ، فقبلها قوله ﷻ : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [آل عمران: ٥٦].

وقراءة : "﴿ فَيُوَفِّيهِمْ ﴾" جاءت على الالتفات من التكلم إلى الغيبة ؛ ليخالف بين العقاب والثواب ، ولم يكن العكس ، فإن الله ﷻ ذكر في الآية السابقة عذابه ، وذكر في هذه الآية ثوابه لأهل الإيمان والعمل الصالح ، فالحديث عن المؤمنين ب"النون" ؛ لأن السياق لما كان مشيراً إلى شدة تخويف وتهديد الكفار عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ، فإنه ناسب أن يكون التنوع بين الخطاب بأهل الإيمان ، وكلّ المعنيين من المعاني أو من اللطائف التي تظهر في تنوع أو في استخدام الالتفات في الضمير.

وكذلك في قول الله ﷻ : ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [٤٧] وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴿ [آل عمران: ٤٧ ، ٤٨] قرئ : " ونُعلمه الكتاب والحكمة".

إلى غير ذلك من النماذج، ومجال القراءات - كما نعلم - من المجالات الواضحة التي تثري الدراسة البلاغية واللغوية، والأحكام التشريعية، وذلك كله كان على سبيل التمثيل.

وبقي أن نشير لكم أن الاستفادة من دراسة الأستاذ الدكتور عبد الكريم إبراهيم صالح في كتابه (الإعجاز في تنوع وجوه القراءات) قام بدراسة معتبرة، والتفاصيل موجودة في كتب توجيه القراءات، وهي معلومة مشهورة.

مفردات القرآن ووجه الإعجاز فيها

عناصر الدرس

- العنصر الأول : غريب القرآن أو غرائب القرآن ٢٣٩
- العنصر الثاني : ظاهرة الألفاظ المعرضة ٢٤٤
- العنصر الثالث : ظاهرة الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ٢٤٨
- العنصر الرابع : قضية الترادف ٢٥١
- العنصر الخامس : حروف المعجم أو ما يتعلق بالحروف المقطعة ٢٥٤

غريب القرآن أو غرائب القرآن

نتحدث عن مفردات القرآن ووجه الإعجاز فيها.

ما يسمى بغريب القرآن أو غرائب القرآن :

الغرابة في اللغة :

هو قول الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال ، هذا التعريف الذي ذكره التفتازاني في تعريف الغريب.

أما موضوعنا أو حديثنا عن الغريب في القرآن الكريم يتصل بهذا التعريف السابق من جهة ، ويخالفه من جهة أخرى ؛ لماذا؟ لأننا لو ذكرنا أن كلمة وحشي التي هي أصلاً مأخوذة من الوحش الذي يسكن القفار ، فاستعير اللفظ لكل ما هو غير مأنوس ، فهذا حاشا لله أن يكون متواجداً في كتاب الله ﷻ. فإن الوحشية المذكورة في هذا التعريف يقسم إلى قسمين :

الأول: غريب حسن ، هو الذي لا يُعاب استعماله على العرب ، وهذا منه غريب القرآن والحديث

الثاني: غريب قبيح ، هو الذي يجمع مع غرابة الاستعمال ثقلاً على السمع وكراهةً على الذوق ، وهذا ليس في كلام الله ولا كلام رسوله ﷺ.

فهذه الغرابة المقصودة في اصطلاحهم بغريب القرآن ليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة ، فإن القرآن منزّه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغريبة ههنا هي

التي تكون حسنة مستغربة في التأويل ، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس ، أي : العرب الخالص هم الذين يعرفون هذه اللفظة ، ويعرفون المراد منها ، أما سائر الناس ممن هم دونهم في الفصاحة أو في العروبة ومعرفة كلام العرب ، لا تتساوى عندهم هذه اللفظة ، وهذا الذي عدوه من الغريب اجتهد العلماء في جمعه وفي حصره مما أُطلق عليه غريب القرآن. وهذا أمر يرجع فيه إلى الكتب المختصة بعلوم القرآن كما في (الإتقان) للسيوطي ، و(البرهان) للزركشي ، وغير ذلك من الكتب التي تهتم بهذا المجال.

فمنشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب ناتج عن اختلاف اللغات ، بأن تكون هناك لغات متفرقة أو يكون الاستعمال على وجه من وجه الوضع اللغوي يُخرجه مخرج الغريب ، كاستخدام الظلم والكفر والإيمان ونحوها مما نُقل عن مدلوله من لغة العرب إلى المعاني الإسلامية المحدثه ، أو يكون سياق الألفاظ قد دل بالقرينة على معنى غير الذي يُفهم من ذات الألفاظ ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ ۗ ﴾ [القيامة: ١٨] ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ هُنَا بِمَعْنَى بَيْنَاهُ ، ﴿ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ ۗ ﴾ [١٨] فاعمل به ، فهذا مما ذكره الرافعي في بيان منشأ الغرابة فيما عدى أو عرف بأنه من غريب القرآن.

اجتهد العلماء في بيان أسباب هذه الغرابة أو ما أُطلق عليه الغريب ، وحصرها الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة في بعض الأسباب ؛ منها :

السبب الأول : تعنت مشركي قريش وتجاهلهم في فهم الواضحات ؛ تلبساً على القرآن. يعني : أنهم يعلمون معنى الكلمة ، ولكنهم يسألون النبي ﷺ مع هذا العلم لغرض التعنت والتجاهل ، كقولهم : ما الرحمن؟ هم يعلمون لفظة الرحمن ومرادها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا

وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ [الفرقان: ٦٠] هم يعلمون أن الرحمن مشتق من الرحمة ،
 ويعلمون هذه الكلمة ، ولكنهم سألوها تعنتاً للنبي ﷺ كما سأل فرعون
 موسى #: ﴿وَمَارِبُ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ [الشعراء: ٢٣] مع أنه هو القائل: ﴿أَنَا
 رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ ﴿٢٤﴾ [النازعات: ٢٤] فهو يعرف كلمة الرب لكنه يتعنت في محاورته
 موسى #.

السبب الثاني: هو استهداف المشركين إظهار القرآن في مظهر المتهافت والعباس
 اللاهي ، فيتلقون ألفاظاً على سبيل التهكم والسخرية من الألفاظ القرآنية ،
 وقصتهم مع الزقوم مشهورة ، فإنهم يعلمون أن الزقوم هو التمر بالزبد ،
 فيتهكمون على ذلك بالقرآن الكريم ، أن النبي ﷺ يتوعدهم بالزقوم ، فجاء أبو
 جهل - كما روي - وجمع صنديد قريش ، وأمر الجارية فقال لها: زقمينا
 زقمينا!! فظلت تدور عليهم بالزبد والتمر ، ويقول: هذا ما توعدكم به محمد!
 وسخرية من خبر النبي ﷺ فيين الله أن الزقوم الذي ذُكر في كتاب الله ليس هو
 الذي تسخرون به ، أو تفهمونه من كلامكم هذا ، وإنما هي: ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي
 أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ [الصافات: ٦٤ ، ٦٥].

حتى إنهم من مدى استهدافهم معاداة النبي ﷺ والمجادلة بالباطل ، طرحوا
 سؤالهم الساذج أن النار تأكل الشجر ، فكيف تنبت الشجرة في النار؟ فبين
 المولى ﷺ أن ذلك الوعيد هو الذي سيعلمونه ، وهو الذي سيرونه.

كذلك أيضاً ما ذكر من سخريتهم في عدد الملائكة عليها تسعة عشر ، ومن قول
 قائلهم: أنا أكفيكم عشرة منهم ، وعلى الباقي أن يكفوا تسعة ... إلى غير ذلك مما
 ذكر في السيرة.

يرجع أيضاً الغرابة إلى الفهم الخاطئ لألفاظ القرآن الكريم، وذلك قد يكون عن حسن قصد، وذلك كما حدث مع بعض أصحاب النبي ﷺ كذلك الذي أنه ظن من قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] فأتى بعقالين ووضعهما تحت وسادته، والآخر في رواية: من ربط رجله بخيطين أبيض وأسود، وظل ينظر حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ذلك الثابت في الصحيح من الأحاديث، وعلق عليه النبي ﷺ بقوله: ((إن وسادك إذا لعريض)) لأن أين هذا الوساد الذي يشمل المشرق والمغرب حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر؟

كذلك ما فهمته عائشة > من قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٨] فهمت أن هناك حساباً واقعاً ولكنه حساب يسير، ففهمه النبي ﷺ أن الحساب هو العَرْض، وأنه لا يناقش أحد الحساب إلا عُدْب أو إلا هلك كما ذكر في الصحيح.

يرجع ذلك أيضاً إلى قضية العموم والخصوص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والمبهم والمبين، كل ذلك مذكور ومعروف في كلام الله ﷻ هذا الذي عده البعض من الأشياء الغريبة في الاستعمال، والتي أحدثت لأصحاب الرسول ﷺ نوعاً من اللبس، أو عاند بها من لم يؤمن برسول الله ﷺ.

الخلاصة: أننا نقصد بالغريب ما قل دورانته على الألسنة، فلم يستعمله الخطباء ولا الشعراء استعمال غيره من الألفاظ، ولم يكن ما نسميه - الآن - غريباً بغريب عند هؤلاء الذين تحداهم القرآن، فلم يكن استخدامه حينئذٍ معيياً ولا مستكرهاً.

نماذج من هذه الألفاظ التي شغلت أصحاب النبي ﷺ والتي اهتم العلماء بجمعها، وعدوها من الألفاظ الغريبة في الاستعمال على الصحابة، منها:

أولاً: القصة المشهورة حول كلمتي "قضباً وأباً" في قوله تعالى: ﴿أَنَا صَبِينَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (٢٥) ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ (٢٦) ﴿فَأَبْتْنَا فِيهَا جَبًّا﴾ (٢٧) ﴿وَعَبْنَا وَقَضَبًا﴾ (٢٨) ﴿وَزَيَوْنَا وَفَخَلَّا﴾ (٢٩) ﴿وَحَدَّيْقَ عُلْبًا﴾ (٣٠) ﴿وَفَكِكَةً وَأَبًّا﴾ (٣١) ﴿عبس: ٢٥ - ٣١﴾ فالقضب هو القث، والأب ما ترعاه الأنعام، ويقال: الأب للبهائم كالفاكهة للناس، وقد جاءت الكلمتان فاصلتين محافظتين أقوى محافظة على النغم الموسيقي، كما أن الكلمة الثانية استخدمت في معناها الدقيق.

ثانياً: قول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (٨٩) ﴿مريم: ٨٩﴾ فكلمة: ﴿إِذَا﴾ بمعنى الأمر العظيم، جاءت في سياقها لازمة لما انتهت إليها فواصل سورة مريم، وأدت المعنى المراد منها أم بيان.

ثالثاً: قول الله ﷻ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] فجاءت كلمة: ﴿إِلْحَافًا﴾ مكان كلمة "إلحاحاً" لما بين من تكرار الحاءان في الكلمة من أثر في الإعراب عنها، وليس ذلك بعزيز على الاستخدام القرآني الذي نزل؛ ليتحدى أبلغ البلغاء.

هناك بعض الألفاظ التي جاءت في القرآن وضَّحها المولى ﷻ وذكر بيانها؛ لأنهم تساءلوا عن معناها، وهناك ألفاظ أخرى بين معناها من خلال السياق، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩١] وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] وكقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ

عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ نَسِفَهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴿طه: ١٠٥ - ١٠٧﴾ والأمت: هو الارتفاع والهبوط، كذلك "ألتنا" بمعنى نقصنا أو أنقصنا: ﴿وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ شَيْءٌ﴾ [الطور: ٢١].

فهذه الألفاظ ليست بالغيرية؛ لأن سياق الآيات يوضحها ويوضح معناها لهؤلاء الذين يعرفون لغة العرب، وكما قلت: هناك ألفاظ وضحتها المولى ﷺ ككلمة "سجيل"، وكلمة "عليون" فقال المولى ﷺ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ [المطففين: ٧ - ٩] وكقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المطففين: ١٨ - ٢٠].

فهذا من وجوه البلاغة في الاستخدام، هذه الألفاظ التي لم تشع على الألسنة إلا قليلاً، إلا أنها وقعت في موقعها، هذا الموقع الحسن على الأذن، وجرت على اللسان مجرى سهلاً، ثم وضعت في موضع لا يغني غيرها من الألفاظ عنها غناءها، فناسبت الفواصل، وأدت المعنى على أكمل حال. وقد سبق أن بينت لكم ذلك الجمال في كلمة "ضيزى" بمعنى جائرة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢٢].

ظاهرة الألفاظ المعرصة

ظاهرة الألفاظ المعرصة التي جاءت في القرآن الكريم، والبعض ذكر أنها ألفاظ غير عربية، والبعض تمسك بأنها ألفاظ عربية. هذه المسألة لا بد أن نوضحها.

أولاً: القول بأن القرآن يشتمل على ألفاظ أعجمية، هذه مسألة - كما يقال - مصيبة، يعني: أن ننسب لكتاب الله ﷻ ألفاظاً أعجمية، والله ﷻ القائل: ﴿يَلِسَانَ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥] والمولى ﷺ أنكر عليهم قولهم: ﴿ءَأَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤] فهذا المعنى بالقول: بأن القرآن يشتمل على

ألفاظ أعجمية!! هذا المعنى يُرفض ولا يُقبل. هذه الألفاظ يقال: أنها في أصولها أعجمية، أما في استخدامها في القرآن فهي عربية، كيف؟

هذا ما ذكره أستاذنا الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة، عندما وضح هذه المسألة بقوله: "أما ما يدعيه البعض من وجود ألفاظ أعجمية في القرآن، فليس في القرآن لفظ أعجمي لا يعرفه العربي، أو لم يستعمله، وكيف يصح خلاف ذلك والقرآن يكذبه عندما يبين أنه نزل بلسان عربي" فوضح أن الخلاف بأنه من ينفي وجود الأعجمي في القرآن، إنما يقصد الذي لا تعرفه العرب ولا تستعمله، ومن قال بوجوده فهو يقصد الذي عرفه العرب واستعملوه، حتى لأن وانقاد للسانهم.

وهكذا يكون الخلاف بين الفريقين لفظياً؛ لأنه توارد على محلين مختلفين، وهذا هو الإنصاف في هذه المسألة، وهذا مشاهد عندنا في استخدامنا وفي كلامنا، فإن كثيراً من الكلام الذي نستخدمه يرجع إلى كلمات أجنبية معروفة بالنسبة لنا والناس يفهمونها، فإذا ما قلت لأحد: مليون أو ملايين أو دولار، أو هذه الألفاظ، هو يفهم "تليفون" وغير ذلك، يفهم هذه الكلمة، وليست تسبب له عناء في استخدامها.

ومن رحابة اللغة العربية أنها تستخدم الكلمات وتستوعب اللغات، فتدخل فيها وتسير معربةً بهذا الاستخدام، فهي في الأصل ليست عربية وفي الاستخدام عربية؛ لأن العرب يعرفونها ويستخدمونها في كلامهم، وأكبر دليل على ذلك أن هذه الألفاظ جرت على لغتهم وطريقتهم في الضبط والنطق، فنونت تنوين كلام العربي، وأخذت مواقع الرفع والنصب والخفض، وغير ذلك من تصاريح اللغة وكلامهم.

فلذلك نقول: "إن القرآن استخدم ألفاظاً تكلمت بها العرب وأدخلتها في لغتها، وإن كانت في أصلها ليست من اللغة العربية، وقد ثقلتها العرب بألستها، وشدبها، وربما تكون قد غيرت بعض حروفها، أو أسقطت بعضها، وإذا أدخلت العرب هذه الألفاظ استغنت بها غالباً عن أن تضع ألفاظاً في معناها".

من هذه الكلمات المعربة التي استخدمها القرآن وهي قليلة في جملتها كي يعلم ذلك، كلمة "إبريق" في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُؤِوسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] وكلمة "استبرق" و"زنجبيلًا" و"سندس" و"سلسبيلًا" قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنُونًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعٌ أَسْوَدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان: ١٧ - ٢١].

انظر - رحمك الله - إلى استخدام هذه الألفاظ وسط سياقها وتناسبها مع أخواتها، فهي من كلام العرب الذي يعرفونه تمام المعرفة. كذلك كلمة "كافور" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْتَرَارَ يُشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَتْ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان: ٥] وكلمة "الفردوس" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧] وكلمة "النور" في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠] وكذلك "دينار" في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

و"دراهم" في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] و"سجيل" في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [٢] تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ [الفيل: ٣، ٤] وكلمة "سرادق" في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] و"القسطاس" : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥] و"المجوس" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧].

وقد أحصى السيوطي في كتابه (الإتقان) هذه الألفاظ المعربة، وعدّها، فليس استخدام هذه الألفاظ المعربة بمخرج القرآن عن أن يكون بلسان عربي مبين، فقد ارتضى العرب هذه الألفاظ واستخدموها في لغتهم، وارتضوها بين كلماتهم، وقد نزل القرآن بما ألفت العرب استعماله؛ ليدركوا معناه، فليس غريباً أن يتخذ من تلك الأدوات المعربة أدوات له، يؤدي بها أغراضه ومعانيه، بل هذه الألفاظ في مواضعها هي غاية البلاغة، وهي وقمة البلاغة في إثارها؛ لأنها تؤدي معانيها الدقيقة في عبارة موجزة، فإن العرب لم تضع لفظاً تدل به على معنى ما عربته، فلم تعد ثمة وسيلة للتعبير عنه سوى اختيار اللفظ المعرب، أو الإتيان بأكثر من كلمة لأداء معناها.

مثلاً كلمة "استبرق" إذا احتيج إلى بديل لها فيقال: الديباج الثخين، فلم يستخدم العرب هذا اللفظ في استخدامهم، وآثروا استخدام "استبرق" ولنا الطرف المشهورة في وقتنا الحالي، بأنك إذا أردت أن تذهب إلى محل ما وتطلب منه سندوتشاً وتقول له: أعطني شاطراً ومشطوراً وبينهما طازج، فلك أن تتخيل ما الذي سيفعله معك صاحب هذا المطعم. وكذلك إذا أردت أن تقول عن الشوكولاتة شوكولات مثلاً، تقول له: أعطني طاموخباً محلاً، فماذا سيقول لك البائع؟!؟

ظاهرة الوجوه والنظائر في القرآن الكريم

ظاهرة الوجوه والنظائر في القرآن الكريم بمعنى بسيط أن هذه الوجوه والنظائر هي الألفاظ التي وردت فيه بمعان مختلفة، كلفظ "الهدى" مثلاً ورد في القرآن على سبعة عشرة وجهًا، بمعنى الثبات والدين والدعاء، وغير ذلك من ألفاظ: الصلاة، والرحمة، والسوء، والفتنة، والروح، وغيرها، وكل ذلك مرتبط بالسياق، وكلها مما يتبسط في استعماله بوجوه من القرائن، وسياسة القرينة العربية شريعة من شرائع الألفاظ.

فنقول: اعلم أن معنى الوجوه والنظائر أن تكون الكلمة واحدة، ذكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد وحركة واحدة، وأريد بكل مكان معنى غير الآخر، فلفظ كل كلمة ذكرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر، وتفسير كل كلمة بمعنى غير معنى الأخرى، فهذا هو الوجوه. أي: أن الوجوه تتعلق بالمعاني، والنظائر تتعلق بالألفاظ، فهو لفظ واحد له معان متنوعة. وأسباب هذه الظاهرة في الاستخدامات القرآنية ترجع لأشياء معلومة من لغات العرب؛ منها:

أولاً: اختلاف القبائل العربية في وضع الألفاظ بمعانيها،

ثانياً: أن اللفظ قد يوضع بمعنى ثم يستعمل في غيره مجازاً،

ثالثاً: أن اللفظ يكون موضوعاً بمعنى مشترك بين المعنيين، والمثال المشهور في كلمة "القرء": ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فهل القروء هي طهر أم حيض؟ وهذا اللفظ من الألفاظ المشتركة، وقضية المشترك اللفظي معروفة بين الأصوليين.

رابعاً: أن يكون اللفظ موضوعاً لمعنى في اللغة، ثم يوضع في الاصطلاح بمعنى آخر، ولذلك دائماً عندما تبدأ أي علم يقال لك: لغة واصطلاحاً، أي: استخدامه في أصل اللغة واستخدامه في الاصطلاح.

فإذن ظاهرة الوجوه والنظائر ناتجة عن تنوع المعاني حول اللفظ الواحد، وهذه الظاهرة من الظواهر التي ينبغي على المفسري أن يعلمها، وأن يعرفها تمام المعرفة قبل الخوض في كلام الله ﷻ وتفسيره، وقبل أن يتصدى ببيان معاني القرآن، فعليه أن يهتم بهذا العلم الذي صنفت فيه التصانيف، واهتم العلماء ببيانه، فمنذ العصور الأولى للتأليف في علوم القرآن وجاءنا كتاب بهذا العنوان (الوجوه والنظائر) للدماغاني وختاماً بالموسوعة العظيمة موسوعة الفيروزبادي (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز) ذلك من الكتب التي اهتمت اهتماماً بالغاً بمسألة الوجوه والنظائر.

نماذج لكلمات استخدمت في القرآن بأكثر من معنى:

مثلاً: كلمة "أمة" استخدمت في القرآن على تسعة أوجه، أشهرها خمسة، أمة بمعنى القوم، قال تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢] أي: أن يكون قوم أربى من قوم. وبمعنى الملة: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: ملة واحدة. وبمعنى المدة: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَجْحِسُّهُ﴾ [هود: ٨] إلى مدة معدودة. وبمعنى الإيمان: ﴿إِنَّ إِتْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠] أي: إماماً. وبمعنى الخلق من الجنسين يعني: من الجنس النوع، كقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وهذه كلمة "السبيل" تأتي في القرآن على أحد عشر وجهًا:

الأول: السبيل بمعنى الطريق: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨)

[النساء: ٩٨]

الثاني: السبيل بمعنى الطاعة: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

[البقرة: ١٩٥]

الثالث: السبيل بمعنى البلاغ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ

سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] أي: مبلغًا يتبلغ به إليه.

الرابع: السبيل بمعنى المخرج: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (١٥) [النساء: ١٥].

الخامس: السبيل بمعنى المسلك: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢)

[الإسراء: ٣٢]

السادس: السبيل بمعنى الدين: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

السابع: السبيل بمعنى الحجّة: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

سَبِيلًا﴾ (١٤١) [النساء: ١٤١].

الثامن: السبيل بمعنى العدوان: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي

الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

التاسع: السبيل بمعنى الإثم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّمَةِ سَبِيلٌ﴾

[آل عمران: ٧٥]

العاشر: وكقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

الحادي عشر: السبيل بمعنى الملة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا

وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وكذلك لفظ "الأمة" وغيره من الألفاظ.

قضية الترادف

هل هناك ترادف في القرآن؟ هل يجوز أن يكون هناك لفظ يؤدي معنى لفظ آخر؟ هذه القضية اهتم العلماء ببيانها وبالحديث عنها، الصحيح الراجح أن الترادف يجوز في غير السياق، بمعنى: إنني إذا قلت لك: ما معنى السبيل؟ تقول: الطريق، هذا المعنى أو هذا الترادف في بيان المعنى عام خارج السياق، أما داخل السياق لا بد أن تعي معنى الكلمة، فإنها تؤدي معنى لا يؤديه غيرها، لذلك اهتم العلماء اهتماماً بالغاً بهذه القضية، حتى أفرد الزركشي في (البرهان) باباً بعنوان: قاعدة هناك ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه، فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام الآخر وأدى إلى القول بالقطع بعدم الترادف ما أمكن، فإن للتركيب معنى غير معنى الأفراد، وهذا ما ذكرناه من أن أكثر الأصوليين على ذلك، أنه لا ترادف في التراكيب، وإنما خارج التراكيب يجوز أن يكون للكلمة مرادف يستخدم، أما في الاستخدام لا تستخدم إلا ما يؤدي المراد في سياقه.

وضرب أمثلة بالفرق بين الخوف والخشية؛ فالخشية أعلى من الخوف، وهي أشد الخوف، ولذلك خصت الخشية بالله ﷻ وكذلك الخشية تكون من عظم المغشي، أما الخوف يكون من ضعف الخائف، لذلك قال الله ﷻ: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١] فإن الخوف من الله ﷻ بعظمته يخشاه كل أحد كيف كانت حاله، أما سوء الحساب فقد لا يخاف منه من حاسب نفسه ومن عمل لماله، وذلك من اللطائف أن الله ﷻ لما عبر بالخوف عن الرب ﷻ قال ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ [النحل: ٥٠] كان الكلام على الملائكة وليس عن البشر، فإن الملائكة لما علم قوتهم وعلم عظم حالهم، بين المولى ﷻ أنهم بالنسبة لجلال ربهم ضعفاء، فاستخدم الخوف: يخافون ربهم من خوفهم ويفعلون ما يؤمرون.

ذلك أيضاً الفرق بين القعود والجلوس ؛ فالقعود لا يكون معه لبثة أي : مُكث ، وقت ، أما الجلوس لا يعتبر فيه ذلك ، ولذلك نقول : قواعد البيت ولا نقول : جوالس البيت ؛ لأن المقصود ما فيه ثبات ، ولهذا قالوا : قعد يقعد بالضم ، وجلس يجلس بالكسر ، فاختاروا الثقل ؛ لما هو أثبت ، ومن ثم نجد الاستخدام القرآني يبين هذا الفرق ، فيقول المولى ﷺ : ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المجادلة: ١١] فجاءت المجالس ولم تأت المقاعد ؛ لأن الجلوس يكون زماناً يسيراً ، أما مع القعود يكون الوقت والمكث الطويل ، فلذلك لا يقال في الكلام : قعيد الملوك ، وإنما يقال : جليس الملوك ؛ لأن مجالسة الملوك تكون خفيفة ، أو لا يكون فيها طول ولُبث ، بعكس قولنا : القعيدة ، بالنسبة للمرأة ؛ لأنها تلبث في مكانها .

كذلك أيضاً من جمائل هذه التفرقة ، الفرقة بين التمام والكمال ، وقد اجتمع ذلك في قوله ﷺ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فذكر المولى ﷺ : ﴿ أَكْمَلْتُ ﴾ وذكر : ﴿ وَأَتَمَمْتُ ﴾ فالعطف كما هو معلوم يقتضي المغايرة ، فقيل : الإتمام لإزالة نقصان الأصل ، والإكمال لإزالة نقصان العوارض بعد تمام الأصل ، ولهذا كانت هذه اللطيفة في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٦] ولو نظرت هذه الآية تجد قوله ﷺ : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٦] فرمما يتوهم متوهم لماذا ذكر كاملة مع أنها معروفة من العدد ثلاثة وسبعة فهم عشرة؟ يقال له : إن المولى ﷺ لم يقل : تلك عشرة تامة ؛ لأن كلمة تامة فهمت من العدد كما ذكرت ثلاثة وسبعة ، فهم عشرة ، أو فهي عشرة ، فإن التمام في العدد قد علم ، وإنما قد بقي الإشارة إلى كمالها وعدم نقصها ، فبذلك استخدمت : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ .

وهناك فرق أيضاً بين الإتيان والإعطاء، معنى آتاه: أعطاه، إنما الاستخدام يفرق بين المعنيين، فالإتيان أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله، لذلك قال المولى رحمته: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] ولم يقل: ولقد أعطيناك سبعا من المثاني، ولذلك لعظم شأن القرآن، أما في الإعطاء فكان قوله رحمته: ﴿إِنَّا آعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] لأن النبي رحمته وأمته يردون على الحوض ورود النازل على الماء، ويرتحلون إلى منازل العز والأنهار الجارية في الجنان، والحوض للنبي رحمته وأمته عند عطش الأكباد قبل الوصول إلى المقام الكريم، فقال فيه رحمته: ﴿إِنَّا آعْطَيْنَاكَ﴾ لأنه يترك ذلك عن كره، ويتنقل إلى ما هو أعظم منه.

وانظر إلى التعبير القرآني في الفرق بين قوله عن أهل الجزية: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾ [التوبة: ٢٩] ولم يقل: حتى يؤتوا الجزية عن يد، وعبر عن الزكاة بقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [التوبة: ٧١] ﴿وَإِيْتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ [الأنباء: ٧٣] فالزكاة لا بد للمؤمن بأن يكون محباً لها، وأن يُقبلَ عليها بقوة، أما إعطاء الجزية فهو عن كراهة، وهو عن شيء في نفوسهم من إخراجها، ولذلك حسَمَ شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - هذه المسألة، ونص عليها نصاً صريحاً بأنه ليس هناك ترادف في القرآن - أي: في السياق القرآني - ليس هناك ما يسمى بالترادف.

يقول شيخ الإسلام: "الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقل أن يعبر بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩] إن المور هو الحركة يعني: تقريباً؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة، وكذلك إذا

العجاز النوي في القرآن الكريم

قال: الوحي الإعلام، أو قيل: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٣] ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٨] أو قيل: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: ٤] أعلمناهم، وأمثال ذلك، فهذا كله تقريب لا تحقيق، فإن الوحي هو إعلام سريع خفي، والقضاء إليهم أخص من الإعلام، فإن فيه إنزالاً إليهم وإيحاءً إليهم. ومن قال: لا ريب بمعنى لا شك، فهذا تقريب، وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة، كما قال عليه السلام: ((دَعُ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ)). ولفظ الشك وإن قيل: إنه يستلزم هذا المعنى لكن لفظه لا يدل عليه.

هذا مما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة، أن الترادف أو المعاني على سبيل التقريب ليس على سبيل التحقيق، فهناك فرق بين اللفظ وبين مرادفه، فيتبين من كلامه - رحمه الله - أنه لا ترادف في القرآن الكريم، بل لكل لفظ خاصية، وإلى هذا يميل البحث، فإن الله تعالى لا يضع كلمة في مكان يجوز أن يوضع غيرها فيه، فالكلمة لها نسقها وسط أخواتها.

حروف المعجم أو ما يتعلق بالحروف المقطعة

من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم هو استخدام هذه الحروف المقطعة في فواتح السور، فهذه الحروف التي يستخدمها العرب في كلامهم، جاءت على مثال فريد لم يتكرر قبل كتاب الله عز وجل ولم يستخدموه في أساليبهم وشعرهم ونثرهم وسجعهم، وما ذهبوا إليه من فنون الكلام، فجاء القرآن الكريم بهذه الطريقة المعجزة في الاستخدام؛ ليعرف العرب ويتحداهم بهذه الحروف التي يتكون منها كلامهم.

يقول الباقلاني: "إن ما دُكرَ في الحروف المقطعة في أوائل السور التي ذُكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، ولهذا كل سورة أفتُتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه، وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع. فإنك إذا ما نظرت في هذه الحروف المقطعة تجد بعدها ما يتعلق بالقرآن الكريم: ﴿ الْم ١ ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ ٢ ﴾ ﴿ البقرة: ١، ٢ ﴾ ﴿ ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿ ١ ﴾ ﴿ القلم: ١ ﴾ ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿ ١ ﴾ ﴿ لق: ١ ﴾، ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿ ١ ﴾ ﴿ ص: ١ ﴾ فما جاء بعد هذه الأحرف المقطعة يتعلق بالانتصار للقرآن وبيان إعجازه".

ومن ذلك أيضاً أن هذه الحروف المذكورة في أوائل السور هي نصف الحروف الهجائية التي تتركب منها الكلمات، وهذا الوجه يتضح مما اهتم العلماء ببيانه، فإن الحروف التي بُنيَ عليها كلام العرب ثمانية وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهي أربعة عشر حرفاً، ويدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم.

شيء جميل أن تتأمل ذلك، في أن هذه الحروف المقطعة لم تتجاوز أربعة عشرة حرفاً اهتم العلماء بجمعها، فجمعها بعضهم في قوله: "صنه سُحيراً مَنْ قطعك". وجمعها بعضهم في قولهم: "نص حكيم قاطع له سير". كأن هذه الأحرف المقطعة تحتوي أسراراً من علم الله ﷻ لذا نجد عادةً المفسرين لا يقفون على معنى صريح واضح في دلالات هذه الفواتح، وإنما يتركون أو يفوضون علمها إلى المولى ﷻ في كثير من المواقع، فهي مظهرٌ من مظاهر الإعجاز.

بدأ بعد ذلك العلماء يفسرون هذا التقسيم أن هذه الحروف مكونة من مخارج حروف العرب، وما أخذت من الحروف إلا أعلاها وإلا أذكاها، فأخذت من المجهور، وأخذت من المهموس، وأخذت من حروف الحلق، وأخذت من حروف الرخاوة والشدّة، إلى غير ذلك، وفصلوا ذلك في تصنيفهم بأن هذه الحروف أُخذت من أنواع المخارج.

من اللطائف في فوائد هذا التقسيم ما ذكره الباقلاني أيضاً من قوله: "إذا كان القوم الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام لأغراض لهم في ترتيب العربية، وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي ﷺ رأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر على حد التصنيف الذي بيناه. أي: أن الله ﷻ يشير بما ذكر لِمَا لَمْ يذكر من هذه الحروف التي يتكون منها كلام العرب".

والثانية أنهم لما تنبهوا على ما بُنيَ عليه اللسان في أصله، ولم يكن لهم في التقسيم شيء، وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان، فلذلك أيضاً من البديع الذي يدل على أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقتصر عنها اللسان، وكذلك أن هذه الحروف يمكن أن تُعاد فاتحة كلِّ سورة لفائدة تخصها في النظم إذا كانت حروفاً، كنحو: ﴿الْم﴾ كأن الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلقاً، واللام متوسطة، والميم متطرفة؛ لأنها تؤخذ في الشفه، فنبه بذكرها على غيرها من الحروف، وبين أنه أتاهم بكلام منظوم مما يتعارفون من الحروف التي تتردد بين هذين الطرفين.

فذلك اهتمام العلماء ببيان أثر هذه الحروف كوجه من وجوه الإعجاز، وهذا ما صرح به شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً من قوله: "أما حرف مجرد فلا يوجد لا في

القرآن ولا في غيره، ولا يُنطق بالحرف إلا في ضمن ما يأتلف من الأسماء والأفعال وحروف المعاني، أما الحروف التي ينطق بها مفردةً مثل: ﴿الَمْ﴾ ونحو ذلك، فهذه في الحقيقة أسماء الحروف، وإنما سميت حروفاً باسم مسماها، كما يسمى "ضرب" فعل ماض باعتبار مسماه".

ويذكر أيضاً ما ذكره الباقلائي من أن هذه الحروف هي أربعة عشرة حرفاً، وهي نصف أجناس الحروف؛ نصف المجهورة، والمهموس، والمستعلية، والمطبقة، والشديدة، والرخوة، وغير ذلك من أجناس الحروف، وهو أشرف النصفين. أي: أن المولى ﷺ في هذه الفواتح اختار من كل صفة من هذه المخارج أشرفها من الحروف؛ للاستخدام في الفواتح، والنصف الآخر لا يوجد في القرآن إلا في ظل الأسماء أو الأفعال أو حروف المعاني، التي ليست باسم ولا فعل، فلا يجوز أن نعتقد أن حروف المعجم بأسمائه جميعها موجودة في القرآن، لكن نفس حروف المعجم التي هي أبعاض الكلام موجودة في القرآن.

يعني: هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، يبين أن هناك فرقاً بين الحرف وبين مسماه، أما استخدام هذه الحروف الثمانية والعشرين هذا ورد في كتاب الله، بل إن شيخ الإسلام أشار إلى الآيتين اللتين جمعت كل واحدة منها الحروف الثمانية والعشرين جميعها، وهي آية آل عمران قوله ﷺ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ آل عمران: ١٥٤.

هذه الآية الكريمة جمعت الحروف الثمانية والعشرين.

وكذا آخر آية في سورة الفتح: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهاتان الآيتان جمعت كل واحدة حروف الهجاء الثمانية والعشرين، وكان الإعجاز في استخدام الحروف المقطعة في أوائل السور كوجه من استخدام المفردات على صورة لم يعهدها العرب في استخداماتهم، فكان وجهًا من وجوه الإعجاز القرآني الكريم.

قضية النظم

عناصر الدرس

- العنصر الأول : التطور الدلالي لمصطلح "النظم" وكيف تطور هذا اللفظ؟ ٢٦١
- العنصر الثاني : معنى النظم عند عبد القاهر الجرجاني - رحمه الله- ٢٦٧
- العنصر الثالث : مادة النظم هي العلاقة بين اللفظ والمعنى ٢٦٩
- العنصر الرابع : مزايا النظم وفساده ٢٧٣

التطور الدلالي لمصطلح "النظم" وكيف تطور هذا اللفظ؟

قضية النظم أو مسألة النظم.

هذه المسألة سبق وأن تعرضنا لها في إيجاز على أنها وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم صرفه إليه بعض العلماء ، وصرح بأن سر الإعجاز في القرآن هو نظمُه .
التطور الدلالي لهذا المصطلح ، وكيف تتطور هذا اللفظ ، وهذا المصطلح البلاغي على يد شيخ البلاغيين وإمامهم عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري .
فقضية النظم كانت متداولة شائعة عند العلماء الذين تحدثوا عن إعجاز القرآن ، وتناولوا هذا الجانب ، وخاصةً بين علماء المعتزلة وعلماء الأشاعرة الذين تناولوا هذا الموضوع حول إعجاز القرآن الكريم . أما عبد القاهر الجرجاني قد صاغ هذه النظرية وجعلها نظريةً مستقلةً في كتابه (دلائل الإعجاز) وبينها تمام البيان ، وكان كتابه تطبيقاً عملياً لهذه النظرية .

ونستطيع أن نقول : إن هذا المصطلح الذي أُلّف استعماله في كتب المتقدمين لم يتحول إلى مصطلح بلاغي أسلوبى ذي دلالة خاصة إلا على يد عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري ، ومصطلح النظم عنده يعادل مصطلح الأسلوب ، وهذا ما سنبينه إن شاء الله .

أما تعرض هذا المصطلح في تطوره فكان يُستخدم بالمعنى العام ، وهو الإطار الذي خرج فيه القرآن الكريم وألفاظ القرآن الكريم وما يتميز به نظم القرآن الكريم جملةً ، ومما اهتم بهذا الموضوع وأسهبَ في بيانه في كتابه قبل عبد القاهر

القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) القاضي أبو بكر الباقلاني نص على أن القرآن الكريم بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، وأرجع ذلك إلى عشرة أسباب نذكرها بإيجاز:

أولاً: ما يرجع إلى جملة القرآن الكريم، وهو أن نظمه على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابه، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتادة، فهو ليس بشعر، ولا نثر، ولا سجع، ولا غيره مما ألفه العرب في كلامهم.

ثانياً: أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر.

ثالثاً: أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص، ومواعظ، واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها كتاب الله ﷻ.

رابعاً: أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتباعد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الظن والجمع. أما القرآن فعلى اختلاف فنونه ووجوهه الكثيرة وطرقه المختلفة، فلا تباين فيه ولا تنافر في أي جزئية من جزئياته.

خامساً: أن نظم القرآن وقع موقعاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن، كما يخرج عن عادة كلام الإنس، فهو متحد به للصنفين: الإنس والجن.

سادساً: أن الذي ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح والتجوز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم، موجودة في القرآن، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم.

سابعاً: أن المعاني التي تضمنها القرآن في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحددين على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويُمتنع.

ثامناً: أن الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن تُذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام أو تقذف ما بين شعر، فتأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها بادياً غامراً سائراً ما تقرن به، كالدرة التي تُرى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد.

تاسعاً: أن الحروف التي بُني عليها كلام العرب ثمانية وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتحت بها ذكر الحروف ثمانية وعشرون سورة. هذه المسألة التي تحدثنا عنها - في الدرس السابق - حول فواتح السور ومقاطع الحروف.

عاشراً: أن القرآن سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكبر، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وهو قريب إلى الأفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس.

هذه الوجوه التي تكلم عنها الباقلائي في بيان إعجاز القرآن في نظمه بصفة عامة.

واهتم الباقلائي كذلك في كتابه ببيان الشواهد التي تؤكد هذا الكلام، وبأن نظم القرآن خارج عن طاقة البشر، وعن أن أحداً يستطيع أن ينظم على هذا المنوال، وأسهب - رحمه الله - في تأمل آيات القرآن سورةً سورةً، وآيةً آيةً، على أن

العبار النوي في القرآن الكريم

من يتأمل ذلك سيجد بونًا شاسعًا وفرقًا كبيرًا بين نظم القرآن وبين غيره من الكلام.

واستشهد - رحمه الله - بآيات عديدة كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ لَيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] فيقول: انظر إلى هذه الكلمات الأربع التي ألف بينها واحتج بها على ظهور قدرته ونفاذ أمره، أليس كل كلمة منها في نفسها غرة وبمفردها ذرة؟!!

واعتمد الباقلاني على أسلوب التشويق في العرض حتى أنه تعرّض إلى بعض السور والارتباط بين أجزائها ونظمها، وبين العبارات التي ذكرت في القرآن، ويعتمد دائماً على عنصر الإثارة والتشويق، كقوله: متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان # بعد ذكر العنوان والتسمية: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] هذه الكلمة الشريفة العالية: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُوفِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١].

وأسهب بعد ذلك في بيان الكلام، وكقوله: ما رأيك في قوله تعالى: ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنثَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٤]؟ [القصاص: ٤] وعرضاً جميلاً لسورة "غافر"، وما فيها من جمال وعرض يأخذ بالقلوب والأسماع، ويجعل المرء يستشعر عظمة هذا الكلام المنزل من المولى ﷺ فيقول: تأمل من الكلام المؤتلف قوله: ﴿حَمَّ ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٣﴾ [غافر: ١ - ٣] فيقول: أنت قد تدرت الآن بحفظ أسماء الله - تعالى - وصفاته، فانظر متى وجدت في كلام

البشر وخطبهم مثل هذا النظم في هذا القدر، وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعاني، وحسن الفاتحة والخاتمة؟! ثم اتلوا ما بعدها من الآي، واعرف وجه الخلوص من شيء إلى شيء، من احتجاج إلى وعيد، ومن إعدار إلى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى مختلفة تأتلف بشريف النظم، ومتباعدة تتقارب بعلي الضم.

ثم جاء إلى قوله: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۗ﴾ [٥] وكذلك حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ ﴿[غافر: ٥، ٦] يقول: انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ وهل تقع في الحسن موقعَ قوله: ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكتة؟ لو وضع موضع ذلك "ليقتلوه" أو "ليرجموه" أو "لينفوه" أو "ليطردوه" أو "ليهلكوه" أو "ليذلوهم" ونحو هذا، ما كان ذلك بديعاً ولا بارعاً ولا عجبياً ولا بالغاً، فانقض موضع ذلك الكلمة، وتعلم به ما تذهب إليه من تحخير الكلام، وانتقاء الألفاظ، والابتداء بالمعاني.

ويربط بين هذا ويقول: إن فطنت فانظر إلى ما قال من رد عجز الخطاب إلى صدره بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۗ﴾ [٥] ثم ذكر عقبيها العذاب في الآخرة، وأتلاها تلو العذاب في الدنيا على الأحكام الذي رأيت.

إلى غير ذلك مما ذكره، بل إنه تعدى ذلك إلى أن القرآن حتى في آيات الأحكام، فهو غاية في النظم على صورة لا يستطيع أحد أن ينظم مثلها، وضرب أمثلة بآيات ذكرت في الأحكام كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ

الطِّيَّاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا
أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٤﴾

[المائدة: ١٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ
مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۗ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ
الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وكذلك آيات الاحتجاج: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يُفَعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٢، ٢٣] وآيات
التوحيد: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر: ٦٥].

إلى غير ذلك من الآيات، حتى الآيات التي تشتمل على أسماء، وتكون العادة
على أن لا يظهر فيها جانب الإبداع في النظم جاءت في القرآن على غير مثال في
الكلام، فإذا ما نظرت إلى آية المحرمات: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعُمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخر الآية، تجد
فيها من البراعة ما يوقفك ويدهشك من براعة في الترتيب، وفي الذكر وبيان
الأحكام، كل ذلك سير عظيم ظاهر في كتاب الله ﷻ.

هكذا كان المفهوم السائد بين العلماء حول النظم إلى أن جاء الجرجاني في كتابه
(دلائل الإعجاز) وصاغ نظريته المعروفة بـ"نظرية النظم".

معنى النظم عند عبد القاهر الجرجاني - رحمه الله

يقول الجرجاني: "اعلم أن ليس النظم إلّا أن تضع كلامك على الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرفَ مناهجه التي نُهجت، فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها".

وبإيجاز شديد معنى النظم: هو توخي معاني النحو.

بيّن الجرجاني هذه المسألة؛ لأن توخي معاني النحو بإيجاز وببساطة، هو ما يجعلك أن تعدل عن أسلوب إلى آخرَ مفضلاً عمّن عدلتَ عنه، أي: تختار، يقصد بذلك أنه لماذا اختار الشاعر أو الأديب أو الكاتب أسلوباً معيناً من الأساليب النحوية، ولم يختَرُ الأسلوب الآخر المساوي له أو الذي يمكن أن يستخدمه، فمن توخَّ معاني النحو واختار ما يخرج نظمه على صورة بديعة.

هذا هو المقصود بالنظم عند عبد القاهر الجرجاني.

ووضّح ذلك - رحمه الله - بأمثلة يبين منها مراده، قال: وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، زيد ينطلق، ينطلق زيد، منطلق زيد، زيد منطلق، والمنطلق زيد، زيد هو المنطلق، زيد هو منطلق. ضرب أمثلةً متنوعة للعبارات ومقصده من ذلك أنك إذا أردت الإخبار - الخبر الذي هو مقابل الإنشاء - فإنك إما أن تأتي بجملة اسمية أو بجملة فعلية، وإذا ما أتيت بجملة فعلية فإنك تختار الفاعل إما أن يكون معرفاً أو منكرًا، وإذا ما أتيت بجملة اسمية فإما أن تخبر عنها بجملة فعلية، أو تخبر عنها باسم المفرد، وإذا ما أردت

بالإخبار بالمفرد، فإما أن تضع ضمير فصل أو لا تضع ضمير فصل، وإذا ما وضعت ضمير فصل، فرّق بين أن يكون ما بعده معرفاً أو منكرًا.

ذلك مقصده من الأمثلة التي ضربها، فاخترتك لأسلوب معين في الإخبار، يفرق من أسلوب أو من صياغة إلى أخرى.

وكذلك في الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، أي: التعبير بالمضارع، وإن خرجتَ خرجتُ، أي: التعبير بالماضي، بأن يكون فعلا الشرط والجزاء ماضيين، وقولك: إن تخرج فأنا خارج، بأن تقرن الجوابَ بالفاء، وبأن تقول: أنا خارج إن خرجتَ، أن تقدم وتؤخر في أسلوب الشرط، وأن تقول: أنا إن خرجتَ خارج، فذلك أيضاً فرّق في الاستخدام النحوي.

يضرب مثلاً آخرَ فيقول: وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعاً، أي: التعبير بالحال المفردة، وجاءني يسرع، أي: مجيء الحال جملة فعلية، أو جاءني وهو مسرع أو وهو يسرع، فمجيء الحال جملة اسمية خبرها مفرد أو جملة فعلية، وجاءني قد أسرع، لاقتزان الحال بـ"قد" وجاءني وقد أسرع، وقوع "قد" مع التعبير بالماضي في مجيء الحال.

فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له.

وكذلك ينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بـ"ما" في نفي الحال، و"لا" إذا أراد نفي الاستقبال، و"إن" فيما يترجح في أن يكون أو لا يكون التي تفيد الشك كما تعلمون، وبـ"إذا" فيما علم أنه كائن، وينظر في الجمل التي تُسرد فيعرف موضع الفصل من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل

موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أو من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل، ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، وفي الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانةً، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

وهكذا الجرجاني يوضح القضية بأسرها، أنها هذا النظم وهذه الفصاحة وهذه البلاغة التي تفرق بين كاتب وآخر، وشاعر وغيره، وبين ناظم وسواه، هي التصرف في الوجوه النحوية كما ذكر، ومما ذكرت لك يتبين لك أنه شمل جميع أوجه البلاغة والفصاحة.

هذا هو معنى النظم الذي أشار إليه الجرجاني.

مادة النظم هي العلاقة بين اللفظ والمعنى

مادة النظم:

النظم عند عبد القاهر الجرجاني - وكما بينه العلماء الثقات - أنه يعادل لفظ الأسلوب الذي يخرج به الكلام، وهذا الكلام يدور بين شيئين أساسيين؛ لفظ ومعنى، معنى داخلك تريد أن تعبر عنه، ولفظ تعبر به عن المعنى الذي تريده، فهي قضية العلاقة بين اللفظ والمعنى.

بإيجاز: العلاقة بين مادة النظم أي: العلاقة بين اللفظ والمعنى، وهذه قضية - كما يقول أهل العلم - قديمة جديدة، فهي تتجدد بتجدد الأيام، وهي مسألة شغلت العلماء وتناولها تفصيلاً وتكلموا فيها كثيراً قضية اللفظ والمعنى، وعبد

القاهر الجرجاني أسهب في كتابه في بيان هذه القضية على مدار الكتاب ؛ لأن مسألة تتعلق بنظريته في الإعجاز، أن إعجاز القرآن راجع إلى نظمه.

محمل هذه القضية بإيجاز: أن للعلماء فيها ثلاثة أقوال:

- **القول الأول:** أن اللفظ أعلى من المعنى، وأعظم قيمةً، وأعز مطلباً، وكان الجاحظ أول من نادى به في نقد الأدب العربي، وذكر بيتين استشهد بهما على أهمية المعنى، وأن المعنى لا بد أن يكون شريفاً، وأن يتناول معنى أخلاقياً، وما إلى ذلك، من استحسان أبي عمر الشيباني لهذين البيتين:

لا تحسبن الموت موت اللبلى ❖ وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موتٌ ولكن ذا ❖ أشد من ذلك على كل حال

فعقب الجاحظ بقوله: "وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء، وجودة السبك، وإنما الشعر صناعة، وضربٌ من التصوير". فهذا الفريق الذي يذهب صراحةً إلى أن اللفظ أعلى من المعنى في قضية النظم.

وكذلك أبو هلال العسكري فليس الشأن في إيراد المعاني ؛ لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقاؤه، وكثرة طلاوته ومائه، وليس يُطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك، ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة، والخطيب في الخطبة، والشاعر في القصيدة، يبالغون في تجويدها، ويغنون في ترتيبيها؛ ليدلوا على براعتهم، وحذقهم بصناعتهم، ولو كان الأمر في المعاني لطحوا أكثر ذلك، فربحوا كدّاً كثيراً، وأسقطوا عن أنفسهم تعباً طويلاً.

هذا فريق يذهب إلى أن اللفظ أعلى من المعنى.

القول الثاني: يذهب إلى العكس، فيقول: المعنى أفضل من اللفظ، ويؤيد هذا الفريق الأمدي الذي يقول عمَّن سماهم أهل النَّصْفَة من أصحاب البحري، يقول: من أن اهتمام أبي تمام بمعانيه أكثر باهتمامه بتقويم ألفاظه، على شدة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة، وأنه إذا لاح له أخرج به بأي لفظ استوى من ضعيف أو قوي. ويعقب الأمدي على هذا بقوله: هذا أعدل ما سمعت من القول فيه، وإذا كان هذا هو هكذا فقد سلموا له الشيء الذي هو ضالة الشعراء وطلبتهم، وهو لطيف المعاني، وبهذه الخلة دون سواها فُضِّلَ امرؤ القيس؛ لأن الذي في شعره من دقيق المعاني وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة، فوق ما في أشعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام.

فهذا فريق يرى أن المعاني هي أعلى قدرًا من الألفاظ.

القول الثالث: الذي ناقش قضية اللفظ والمعنى، فذهب إلى أن تلك الثنائية حرف في بحر، أي: لا داع لها بأن يفرق لها بين اللفظ والمعنى، فكلاهما مدار الصورة الأدبية، فهذا الفريق سوَّى بين اللفظ والمعنى في القيمة وفي التقدير، فالصورة الأدبية كالكائن الحي، فكما لا يصح فصل الجسم عن الروح، فكذلك لا يصح فصل اللفظ عن المعنى، فكلاهما مكمل للآخر. يقول ابن طباطبا: "والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه" كما قال بعض الحكماء: "للكلام جسد وروح، فجسده النطق وروحه معناه".

فكان ذلك هو الاختلاف بين العلماء في قضية اللفظ والمعنى، والعلاقة بينهما إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني، فوجد - كما يقول الدكتور لاشين - البحوث

ممهدة، ولكل فريق حجته الناهضة، ورأيه السديد، فلم يكن رأيه صريحاً في الاتجاه إلى واحد منهم، فقد أثر عنه في كتابيه (إشارة إلى أسرار البلاغة)، و(دلائل الإعجاز) كلامٌ يؤكد أفضلية المعنى، وآخرُ يؤيد أفضلية اللفظ، وتارةً يكون الكلام مغشّى بالغموض والإبهام بين تأييد اللفظ والمعنى، مما يصعب على الفاحص والدارس أن يستخلص حقيقة رأيه، أو يهتدي إلى صريح مذهبه.

هذا وإن كان يراه أستاذنا الدكتور عبد الفتاح لاشين، إلا أن أستاذنا الدكتور شفيق السيد يرى رأياً آخرَ في هذه القضية مما يتعلق بعبد القاهر الجرجاني، وهو أن مَنْ فهمَ من كلام عبد القاهر في بعض نصوصه أنه يؤيد اللفظ، لم ينظر جيداً إلى مراد عبد القاهر باللفظ.

فالحاصل الذي ينتهي إليه أن عبد القاهر الجرجاني موقفه محسوم قاطع واضح، لا ريبَ فيه، فالرجل نص على أن اللفظ بمعزل عن السياق لا قيمة له، وأن اللفظ غاية ما يقال فيه إذا ما كان منفرداً: هو أنه مألوف، أو مستوحش، غريب أو سائر، مستخدم، ولا قيمة له خارج النص. أما تعبيره باللفظ في بعض المواضع فيتضح في سياق الكلام أنه يريد به الصورة التي خرج بها الكلام، ويشير في معنى آخر وفي نصوص أخرى في كتابه إلى أن اللفظ هو المعنى المراد الذي يقال، فتعبيره باللفظ لا يراد به الكلمة المفردة؛ لأن الرجل نص نصاً صريحاً بأن الكلمة في مفردتها لا قيمة لها دون النظم الذي خرجت فيه.

هذه القضية التي شغلت الباحثين حول كلام الجرجاني في مسألة العلاقة بين اللفظ والمعنى، أسهب في بيانها أستاذنا شفيق السيد في كتابه (النظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية) فليرجع إليه.

مزايا النظم وفساده

ابتداءً ينص عبد القاهر الجرجاني - رحمه الله - على أن مزايا النظم ترجع إلى اختيار المعاني، يقول عبد القاهر الجرجاني: فَصْلٌ: في أن هذه المزايا في النظم بحسب المعاني والأغراض التي تؤم. يعني: أن عبد القاهر نصَّ نصًّا صريحاً أن فساد النظم أو القول بحسنه وارتقائه مرتبطٌ بالمعاني التي تؤم، والأغراض التي يعبر عنها. هذا ابتداءً.

وقام عبد القاهر - رحمه الله - بسرد شواهد على فساد النظم، وبذكر أشياء يعرف بها مزايا النظم، فذلك يدفعنا إلى أن نتساءل أولاً قبل الحديث على المزايا والفساد: هل القضية في النظم هي قضية النحو؟ بمعنى: هل النظم هو معرفة قواعد اللغة العربية؟ سؤال آخر: هل يتطلب النظم معرفة سابقة بقواعد النحو؟ الواقع أن عبد القاهر الجرجاني لا يقصد بكلامه هذا أن النظم هو أن تكون عالماً أو عارفاً باللغة العربية، فذلك ما وضَّحه عبد القاهر بأنه شُبْهة، وأراد أن يرد عليها وأن يبينها في كتابه، ونص عليها نصًّا صريحاً، فيقول في (دلائل الإعجاز): "واعلم أننا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه، فنستند إلى اللغة، ولكن أوجبنها للعلم بمواضعها، وما ينبغي أن يُصنع فيها، فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع، والفاء للتعقيب بغير تراخ، وثم له بشرط التراخي، وإن لكذا، وإذا لكذا، ولكن لأن يتأتى لك إذا نظمت شعراً وألفت رسالةً، أن تحسن التخيير، وأن تعرف لكل من ذلك موضعاً".

ويقول أيضاً: "وأمر آخر إذا تأمله الإنسان أنف من حكاية هذا القول، فضلاً عن اعتقاده" - يعني: فضلاً عن أن يعتقد أن قضية النظم هي معرفة النحو-

يقول: "هو أن المزية لو كانت تجب من أجل اللغة والعلم بأوضاعها وما أراه الواضع فيها، لكان ينبغي ألا تجب إلا بمثل الفرق بين الفاء وثم وإن وإذا، وما أشبه ذلك، مما يعبر عنه وضع لغوي، فكانت لا تجب في الفصل، وتترك العطف، وبالحذف، والتكرار، والتقديم والتأخير، وسائر ما هو هيئة يحدثها لك التأليف، ويقتضيها الغرض الذي تؤم، والمعنى الذي تقصد، وكان ينبغي أن لا تجد المزية بما يبتدئ الشاعر والخطيب في كلامه من استعارة اللفظ بالشيء لم يُستعَرَّ له، وأن لا تكون الفضيلة إلا في استعارة قد تُعارِفت في كلام العرب، وكفى بذلك جهلاً".

فهذا نص صريح من الجرجاني على أنه لا يقصد بكلامه أن تكون عارفاً فقط بقواعد اللغة العربية، وبالفروق التي نص عليها علماء النحو، ولكن القضية في توظيف هذه الأشياء في كلامك.

وأما السؤال الآخر: وهو هل يتطلب النظم معرفة سابقة بقواعد النحو؟

هذا أيضاً يُجاب عنه ببساطة: بأن شعراء الجاهلية - مثلاً - صاغوا شعرهم ولم يكن عندهم المصطلحات النحوية التي ذكرها علماء اللغة وعلماء النحو، وهذا مثال جليل واضح من فعل الأعرابي عندما سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، بنصب لفظ "رسول" صنعَ ماذا؟ أي: أنه بحاسته اللغوية أدرك أن النظم على هذا النحو لا يستقيم؛ لأن الكلام لم يفد، دون أن يعرف التعليل الاصطلاحي الذي يقوله النحويون في هذا الشأن، وهو أن رسولاً بالنصب تكون عطف بيان أو بدلاً من محمد، والبيان والبدل هما المبين والمبدل منه، وذلك يعني أن المعنى لم يكتمل، فأما في حالة رفع كلمة رسول فإنها تكون خبراً، ويتم المعنى. الأعرابي لا يعرف ذلك التعليل، ولكنه علمه بحاسته. وكذلك من صاغوا

شعرهم قبل أن تقعد قواعد اللغة ، وتكون علماً يعرف بهذه الصورة ، صاغوا أشعارهم وأخذت عنهم اللغة ، وكان ذلك دون معرفة بالمصطلحات النحوية.

فإذاً القضية التي يجب أن ننبه عليها بأن مقصدنا بالمزايا والفساد في الاستخدام النحوي ، هو التخير ، وهو تفضيل معنى نحوي عن آخر في استخدامه لا مجرد العلم بقواعد اللغة ، فإنه من البديهي أنه لن يخرج لنا أحد تراثاً أدبياً وهو لا يعرف لغة العرب ، ويعتد بكلامه ، فنأخذ عنه لغته ، ذلك أمر معروف أنه من أراد أن يكتب شعراً أو نثراً أو إلى ذلك ، لا بد أن يتخطى أولاً مرحلة تعلم اللغة العربية.

بيان هذه المزايا التي أشار إليها الجرجاني في النظم ، وضرب نماذج لها :

يبين عبد القاهر أن فساد النظم له شواهد اتفق الجميع على بيانها ؛ بسبب الخلل في قواعد اللغة في التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، إلى غير ذلك ، وضرب أمثلة بأنهم لم يخالفوا على نقد قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا ❖ أبو أمه حي أبوه يقاربه
وقول المتنبي :

الطيب أنت إذا أصابك طيبه ❖ والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل
وقوله أيضاً :

وفاؤكما كالربيع أشجاء طاسمه ❖ بأن تُسعدا والدّمعُ أشغاه ساجمه
فنتظائر ذلك مما وصفوه بالفساد ، وعابوه من جهة سوء التأليف ، أن الفساد والخلل كان من تعاطي الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير صواب ، وصنع من تقديم وتأخير أو حذف وإضمام ، أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه ، وما لا

يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم. وإذا ثبت ذلك، فإن سبب فساد النظم واختلاله ألا يعمل بقوانين هذا الشأن، ثبت أن سبب صحته أن يعمل عليها. بيان نماذج رائعة عددها الجرجاني على مزايا النظم، وكلها في كتاب الله ﷻ: من النماذج التي تعرّض لها الجرجاني ببيان روعة النظم، نضرب مثلاً بالتقديم والتأخير، وآخر للتكثير، لأن المسائل الأخرى ستحدث عنها تفصيلاً، وكل في موضعه.

من مثال التقديم والتأخير عرض بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٠] فيقول هنا بتقديم المفعول الثاني وتأخير المفعول الأول في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ على أن: ﴿ شُرَكَاءَ ﴾ مفعول أول للفعل جَعَلَ، وشبه الجملة هو المفعول الثاني لهذا الفعل. فيبين الجرجاني في هذه الآية الكريمة كيف كان للتقديم والتأخير أثرٌ عظيم، غير أن يقال: وجعلوا الجن شركاءَ لله، فإنه لو قُدِّم: ﴿ الْجِنَّ ﴾ على المفعول الأول، لربما توهم متوهم أن الإنكار على جعل: ﴿ الْجِنَّ ﴾ شركاءَ دون غيرهم، فإذا ما كان غيرهم جاز أن يكون هناك شريك - حاشا لله، والعياذ بالله من فهم مثل هذا المعنى - فأفاد التقديم والتأخيرُ صرف هذا المعنى كليةً، فإن الإنكار على جعلهم لله شركاء، سواء كان الجن أو غيرهم، فالجن منفصلة عن المفعولين.

ويؤكد أو يؤيد ما ذهب إليه الجرجاني في بيان هذه الآية أنه قرئ في الشواذ "الجن" بالرفع، أي: هم الجن.

هذا مثال ضربه الجرجاني، وعندك في (دلائل الإعجاز) آيات عديدة بين فيها الجرجاني قضية النظم.

ومثال التنكير ذكره في قوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ آلَ لَبِيبٍ** ﴾ [البقرة: ١٧٩] فما أروع التنكير في استخدام كلمة ﴿ **حَيَوةٌ** ﴾ ولم يقل "الحياة" فإنها لا تشمل الجميع، وإنما تشمل من تعلق بأمر القصاص بأنه يخرج من الحذر الذي يظهر في سياق الآية.

وكذلك هناك نماذج كثيرة ضربها الجرجاني في النظم لاختيار لفظ دون الآخر، كاختيار الموصول في قوله تعالى: ﴿ **وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ** **الْأُتُوبَ** ﴾ [يوسف: ٢٣] وبدلاً من: "وروادته امرأة العزيز" أو: "وروادته امرأة الذي اشتراه من مصر" أو غير ذلك. وإنما عبر هنا بالذي: ﴿ **هُوَ فِي بَيْتِهَا** ﴾ تعبير بالموصول وصلته له فائدة لا يعطيها التعبير بالاسم الصريح.

قضية الذِّكر والحذف

عناصر الدرس

٢٨١	العنصر الأول : المَسند إليه، ودواعي وأغراض ذكره
٢٨٧	العنصر الثاني : المَسند، ودواعي وأغراض ذكره
٢٩١	العنصر الثالث : مسألة الحذف، ومزاياه، وأنواعه

المسند إليه، ودواعي وأغراض ذكره

قضية الذكر والحذف، وهما ظاهرهما من ظواهر اللغة العربية، وظهرتان من الظواهر التي اهتم العلماء ببيانها في مسألة النظم - التي سبق وأن تحدثنا عنها. قضية الذكر والحذف قضية بلاغية نحوية، اهتم بها علماء البلاغة واهتم بها علماء النحو، فهي قضية لغوية هامة. الحذف على سبيل المثال أعده سيويه ضرباً من ضروب الاتساع في اللغة، وعده ابن جني باباً من شجاعة العربية كما أطلق عليه. وكذلك اهتم أهل البلاغة بهاتين الظاهرتين، فتحدث عنهما الجرجاني وكذا طبقَ الزمخشري في كتابه (الكشاف) على هاتين الظاهرتين تطبيقاً عملياً، وكذلك المتأخرون من النحاة والبلاغيين كابن هشام والسكاكي، أسهبوا في بيان هذه الظواهر التي تناولها وتحدث عنها.

ومما يجدر أن ننبه عليه ابتداءً أن حَصَرَ أغراض الذكر أو الحذف ضرباً من المستحيل؛ لماذا؟ لأن هذه الأغراض تتجدد بتجدد الخطاب، فغاية ما ننتهي إليه في موضوعنا هذا هو ذكر أغراض تَنَبَّه لها مَنْ تنبه من أهل العلم، فذكروها في مصنفاتهم، وبعضها يؤخَد في الاعتبار وبعضها يمكننا أن نرد عليه، فمعلوم ألا عصمة إلا لكتاب الله ﷻ.

وكذلك ننبه على أن الأغراض التي ذُكرت بعضها يعد ضرباً من التنظير والإعمال الذهني؛ لأنه لم يجد له العلماء مثلاً إلا أمثلةً مصطنعةً ذكروها - كما سأبين لك - وهي بعيدة عن روح النص وطبيعة الخطاب اللغوي الذي يتحدث به العرب في نظمهم؛ نثرًا كان أو شعرًا، فغاية ما ذكروه أمثلةً مصطنعةً كما ذكرت.

أيضاً ننبهك أن الأصل هو الذكر، ولا يعدل عن الذكر إلى الحذف إلا بقريضة، وأحياناً يتعين الحذف.

كذلك نشير إلى أن هذا الدرس يدور حول ركيزتين أساسيتين؛ هما ركنا الإسناد والمتعلقات، وركنا الإسناد هما المسند والمسند إليه، ولكي أبسط هذه المعلومة نذكر أن المسند هو الفعل أو الخبر، الفعل في الجملة الفعلية والخبر في الجملة الاسمية، والمسند إليه هو المبتدأ في الجملة الاسمية، والفاعل في الجملة الفعلية.

أما المتعلقات فهو ما يُطلق عليه مكملات الجمل من مفعول، أو حال، أو أنواع المفاعيل على اختلاف ضروبها، أو تمييز أو صفة أو مضاف إليه، إلى غير ذلك مما ليس ركناً من أركان الجملة.

وننبه إلى أن هذا الدرس ينفرد فيه نوعٌ من أنواع المتعلقات باهتمام البلاغيين دون غيره، وهو المفعول به، فأفردوا أبواباً؛ لبيان حذف المفعول به وما يتعلق به من أغراض، وهذا ما سننبه عليه أيضاً ونفرده على عاداتهم. ومصدر ذلك ما فعله الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) عندما اهتم ببيان المفعول به، وصار على نهجه من صنّف في هذا العلم.

بيان مسألة الذكر:

الذكر: هو ذكُرُ المسند إليه أو ذكر المسند، أو ذكر المتعلق - كما ذكرت - فنبداً ببيان اهتمامهم بهذه المسألة، وحديثهم عن الدواعي التي تؤدي إلى ضرورة ذكر المسند إليه، والمسند إليه - كما تعلم - هو المبتدأ والفاعل.

ابتداءً الأصل هو ذكر المسند إليه، ولا يُعدل عنه إلى الحذف إلا لغرض بلاغي يرجحه على الذكر، ولذلك يقولون: إن الحذف يكون ممكناً كالذكر، ولكن الذكر يرجحه لأغراض. أي: يكون مرجحاً على الحذف لأغراض.

أغراض ذكر المسند إليه :

أولاً: الاحتياط بضعف التعويل على القرينة. بمعنى: أن هناك قرينة تدل على المسند إليه لو حذف، ولكن هذه القرينة إما أن تكون خفية وإما أن تكون مشتبهاً فيها.

فالأولى أن يذكر المسند إليه في حديثك، ثم تمضي فترة حتى يطول عهد السامع به، فيذكر ثانياً؛ لاحتمال غفلة السامع عنه بطول عهده به.

أما الثاني فهو أن يذكر المسند إليه في حديث، ثم يحول مجرى الحديث في شأن غيره، فيذكر ثانياً؛ لئلا يشتبه السامع في المحدث عنه أهو الأول أم الثاني؟ فقد ضعف التأويل على القرينة في الموضوعين، فلذلك لا بد لك من أن تذكر المسند إليه.

مثال الأول: كأن تقول: "شوقي نعم الشاعر" فتذكر المبتدأ - الذي هو شوقي - إذا سبق ذكر شوقي في حديث وطال به عهد السامع، أو ذكر معه حديث في شأن غيره واشتبه الأمر على السامع.

ثانياً: التنبيه على غباوة السامع، بمعنى: أن الذي تخاطبه لا يفهم إلا بالتصريح، فلذلك أنت تذكر المسند إليه كأن ترى امرأ غافلاً عن سماع القرآن، أو لاهياً عنه، فتقول له: "القرآن شفاء القلوب" تنبهه بذلك على أن ينتبه، وأن يستمع، وأن القرآن فيه فائدة، فذكرته.

ومن لطيف ذلك ما ذكر في كتاب الله ﷻ في نبأ فرعون مع موسى # فعندما خاطبه فرعون، وقال: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٤٩] قال له

العبار النوي في القرآن الكريم

موسى # : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٥٠] فعندما سأله في الثانية: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ﴾ [طه: ٥١، ٥٢] فنراه # ذكر في الأولى: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ﴾ أي: ذكر المسند إليه، وأما في الثانية حَذَفَ المسند إليه، فقال: ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ﴾ لم يقل: القرون الأولى علمها عند ربي في كتاب؛ لأن هذه المسألة ربما تُجهل على فرعون، فأراد المبادرة ببيانها.

أما الأولى فهو سؤال أحمق من رجل متكبر عاتٍ يقول: ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوِسَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ فذكر موسى # المولى ﷺ المسند إليه فقال: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ ذكره؛ تبييناً له على أن هذا السؤال ينبغي أن لا يسأل؛ لأن الرب ﷻ هو خالق جميع المخلوقات التي أنت منها أيها المتكبر العاتي.

ثالثاً: هي زيادة الإيضاح والتقرير، كما في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [البقرة: ٥٠] فقد جاءت هذه الآية بيانياً لمنزلة المتقين عند الله عقب وصف خصالهم الحميدة التي تميزوا بها في الآيتين السابقتين: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [البقرة: ٣، ٤] فكان تكرير اسم الإشارة: ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الواقع مسنداً إليه لتقرير هذه المنزلة، وإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم.

رابعاً: هو تقرير الخبر والفعل في صورة بيّنة واضحة، كما في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

النَّارُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٥﴾ [الرعد: ٥٥] فتجد المسند إليه يتكرر مع كل حكم، وكان من الممكن أن يرد الكلام على طريق الحذف، ولكنه قصد إلى تقرير هذه الأخبار وإذاعتها عنهم، فهم كفروا بربهم، وهم الذين وُضعت الأغلال في أعناقهم، وهم أصحاب النار، وكأن هذه الإعادة جعلت كل جملة كأنها مستقلة بنوع من العقوبة الصارمة، وهي ضروب من العذاب يستقل بعضها عن بعض، وفي ذلك نهاية الغضب والوعيد.

خامساً: تفادياً من ذكر الضمير الذي يربط الجملة بالكلام السابق؛ لأن القصد إلى استقلالها لتصير كأنها مثل، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ [الحج: ٦١، ٦٢] انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٦١﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٦٢﴾ تجد المسند إليه قد ذكر مع أنه يمكن إقامة الضمير مقامه للغرض الذي قلناه، وهذا الأسلوب يكثر في فواصل الآيات كما يكثر في الجمل المستأنفة، سواء كان استثناءً بلاغياً أم استثناءً نحوياً.

سادساً: إرادة بسط الكلام وإطالته حتى يكون إصغاء السامع مطلوباً للمتكلم لخطر مقامه. هذا من الأمثلة التي نبها عليها اللغويون وذكروها، واستشهدوا لها بقصة موسى # مع المولى ﷺ في هذا الحوار الذي دار بينهما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى﴾ ﴿١٧﴾ [طه: ١٧] فقال موسى # : ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ ﴿١٨﴾ [طه: ١٨] كان يمكنه # أن يقول: عصا أو عصاي، بدون ذكر الضمير؛ لأنه مفهوم من

السؤال ، إلا أن موسى أراد بسط الحديث ؛ حباً في إطالة الكلام في حضرة الذات العلية ، وأي مقام ادعى إلى بسط الكلام فيه كهذا المقام !! ولهذا لم يكتفِ موسى # بذكر المسند إليه ، بل أعقب ذلك بذكر أوصاف لم يُسأل عنها ، فقال : ﴿ **أَتَوَكَّؤُا عَلَیْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَی غَنَمِی وَلِی فِیْهَا مَثَارِبُ أُخْرَى** ﴾ .

وبعض الباحثين نظر في هذا الكلام ، وزاد عليه لطيفة أخرى ، فقال : نرى أن ثمة دلالة أخرى من وراء ذكر المسند إليه في الآية ، ولعلها تكون أهم وأولى بالالتفات إليها ؛ لائتلافها مع السياق ، فالسياق يدل على سيطرة الرهبة والخوف على موسى # من مواجهة سحرة فرعون البارعين في فنهم ، فأراد الله ﷻ أن يطمئنه ، وأن ينزع الخوف من قلبه ، وأن يثبتته على اليقين ببرهان مادي ، فسأله سؤالاً مباشراً عن ماهية ما بيده ، فأجاب مؤكداً طبيعتها : ﴿ **هِيَ عَصَاي** ﴾ ثم أضاف وظائف لها من شأنها أن تزيد هذه الطبيعة جلاءً ، فلما أمره بإلقائه تحولت في طرفة عين إلى حية تسعى ، فكان ذلك أظهر دليل على بطلان القانون السائد ؛ إذ أحالها إلى مخلوق حي من جنس مختلف كل الاختلاف عن ماهيتها الأولى .

وتلك آية الألوهية ومعجزة النبوة ، فليهدأ بالاً ، وليثق في تأييد الله له ، ووقوفه إلى جانبه ، ولذلك حين راعه هذا التحول المذهل في العصا ، جاء الخطاب الإلهي : ﴿ **قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى** ﴾ [طه : ٢١] .

هذه الأغراض التي ذكرت في ذكر المسند إليه ، وأهمها بيئاً مع ورودها في القرآن ، قلنا : زيادة الإيضاح والتقرير ، وكذلك بسط الكلام وإطالته ، والتعريض بغباوة السامع ، وهناك أغراض أخرى ذكرت كقولهم : إظهار تعظيم المخاطب وتفخيمه ، أو إظهار التحقير والتهوين من الشأن ، أو التبرك والتميم بذكر المسند إليه ، أو التلذذ به ، وكذلك التعجب منه ، وكذلك التسجيل على السامع بين يدي القاضي ؛ حتى لا يكون أمامه سبيل إلى الإنكار .

وهذه الأغراض - كما ذكرنا - يمثلون لها بأمثلة ومجمل من الكلام، وأشياء يحتاجون بها بذكر المسند إليه، وأعجبها - كما أشار أستاذنا الدكتور شفيق - قولهم التسجيل على السامع بين يدي القاضي؛ حتى لا يكون أمامه سبيل إلى الإنكار، ومثلوا بذلك بأن يقول للقاضي مثلاً عند التسجيل عليه كتابةً: إنما فهم الشاهد أنك أشرت إلى غيره، فأجاب بما أجاب به، يعني: هذه مسألة غريبة، يعني: يقول الشاهد: نعم، فلان هذا أقرّ أمامي بكذا، من الأشياء التي ذكروها، ومن الأشياء التي عدت في ذكر المسند إليه.

المسند، ودواعي وأغراض ذكره

معلوم أن الأصل هو الذكر، فإذا ما ذكر كان ذلك هو الأصل في الكلام، فذكروا من الأغراض التي ذكروها في ذلك أيضاً:

أولاً: الاحتياط لضعف التعويل على القرينة، أي: أن في الكلام قرينة تدل على المحذوف لو حذف، إلا أنه ليس لها من القوة والإيضاح ما يلهم السامع المعنى، وذلك كقولك لمن سألك: مَنْ أكرم العرب وأشجعهم في الجاهلية؟ تقول في جوابك: عنتره أشجع العرب، وحاتم أجودهم، فتذكر أشجع وأجود؛ خشية أن يلتبس على السامع إذا قلت: عنتره وحاتم، من غير أن تعين صفة كل واحد منهما، فلا يدرى أيهما الأشجع والأجود.

ومن الأمثلة التي ذكروها قولهم: عقل في التراب وحظ في السحاب، ومن العجيب أنهم ذكروا هذا المثال مع أنه نحوي لا يستقيم ذكره، فإن في التراب وفي السحاب، لا يصح فيهما أن يكون مسند؛ لأنها تدخل في المتعلقات؛ لأن كلمة

عقل وحظ نكرة، والنكرة إذا ما وقع بعدها الجار والمجرور كان صفة لها، وليس خبراً، وإلا صار المبتدأ هنا لا مسوغ للابتداء به مع كونه نكرةً.

كذلك أيضاً ذكروا من الأغراض بذكر المسند: التعريض بغباوة السامع، واستدلوا لذلك بقوله تعالى حكايةً عن إبراهيم # عندما سئل: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [٦٢] فقال # : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [٦٣] الأنبياء: ٦٣ كان يمكنه في الجواب أن يقول: بل كبيرهم هذا، لكن المسند الفعل ذكره # ليبين لهم أنهم أغبياء، حيث يظنون أن هذه الآلهة تستطيع أن تفعل شيئاً، وكذلك يظهر من خطابه # أنه يسخر منهم، ويتهكم على أصنامهم، وكأنه يقول لهم: إن مقتضى عبادتكم لهؤلاء الأصنام أن تكون فيها حياة، ولها قدرة وإرادة تمارس بها سائر شؤون الحياة، وإذا سلمتم بذلك فلا مجال بإنكار أن يقوم كبيرهم بتحطيم الآخرين، فإن كانت مجرد حجارة صماء لا حياة فيها فلم تعبدونها!!؟

وكذلك ذكروا من أهم الأغراض لذكر المسند: زيادة تقرير المعنى وتوضيحه، واستدلوا بذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [٩] الزخرف: ٩ فإن المسند لو حُذِفَ لدل عليه السؤال، وقد جاء محذوفاً في آيات أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [٦١] العنكبوت: ٦١ ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢٥] لقمان: ٢٥ إلا أن المقصد من ذكره في آية الزخرف زيادة تقرير خلق الله السماوات والأرض، وكذلك قوله تعالى في أواخر سورة "يس": ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [٧٨] قل يُحْيِيهَا الَّذِي

﴿أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) ﴿إِس: ٧٨، ٧٩﴾ فذكر المسند في قوله :
﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا﴾ .

وفي السؤال ما يدل عليه - كما ترى - والمقصود من الذكر أن يتقرر أن الله أحياها، وفيه إشارة أخرى هي أنه لا يُسأل عن الإحياء بعد الموت، أعني: عن إمكانه، وإنما أنه ﷻ لا يسأل عن إحياء بعد الموت، وأن الذي يسأل عن هذا لا يعول في خطابه على ذكاء، وهو بادر أو ظاهر عليه أنه لا يفقه كثيراً ما يسأل عنه وما يقوله.

وفي ختام حديثنا عن أغراض ذكر المسند إليه والمسند نشير إلى شيئين:

أولاً: إلى أن هذه اجتهادات من أهل العلم يستدلون لها بأمثلة من كتاب الله ﷻ هذه الاجتهادات قد يضيف بعضهم إليها أغراضاً أخرى، كاجتهاد منه لرؤية ذلك، أو قد يكون ناقلاً عنه في هذا المجال؛ لذلك نجد الأغراض تتفاوت في الذكر كما حدث مع أستاذنا الدكتور بدوي، فذكر - رحمه الله - من أغراض ذكر المسند إليه:

أولاً: تأكيد وقوع المسند إذا كان ذكر اسمه مما يطمئن السامع إليه، واستدل بقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥).

فقال: "أولاً ترى في ذكر اسم الله بعد الوعد ضمناً لتنفيذه كما يذكر أيضاً للتصوير الباعث على الرهبة كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (١)

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ [الزلزلة: ١ ، ٢] فذكر الأرض إلى جانب إخراج الأثقال يصور هذا الجرم الهائل ، وقد انشق عن فجوات تقذف بما ضمت الأرض من أثقال ، وهي المكان المستقر الثابت الذي نجد على سطحه الاستقرار ، يصورها مائلة مضطربة تحت أقدامنا ، فأى فزع يلم بنا عند هذا التصور .

ثانياً: وهو الذكر لتأكيد نعمة أداها ، فيكون هذا الذكر مثيراً للشكر كما في قوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ [الأحزاب: ٢٥] وقال: ألا ترى هذه النعمة الكبرى نعمة حقن دماء المسلمين جديدة بذكر المنعم ؛ ليشكر؟

ثالثاً: في ذكر المسند تثبيت معنى الجملة في النفس ، وقد يثير حذفه ما قد يدل عليه معنى لا يراد ، واستدل بذلك بقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٤١] ففي تكرير: ﴿ لَهُمْ ﴾ ما يشعر بكمال قوة الجزاءين ، ويؤكد على أن العذاب العظيم قد أعد لهم في الآخرة.

ثانياً: أن بعض الباحثين أنكروا على هذه الأمثلة المصنوعة التي ذكرت في أغراض ذكر المسند إليه ، وأنكر كذلك على طريقة الاستشهاد لبعضها بشواهد شعرية ، هذه الشواهد تدخل في باب التكرار أكثر ما تدخل في باب الذكر ؛ لأنها تشمل كلا الاثنين: المسند والمسند إليه ، مع تكرار ذكرهما ، وهذه مسألة نبه إليها بعض الباحثين.

مسألة الحذف، ومزاياه، وأنواعه

نتقل إلى نقطة ثانية، وهي لب هذا الموضوع، وهي التي يكون فيها الحديث طويلاً؛ لأنها هي سير البلاغة؛ لأنها خلاف الأصل وهي **مسألة الحذف**:

مسألة الحذف من المسائل التي توقف عندها العلماء، وبينوا أسرارها وجمالها، واهتموا ببيانها، وما يدور حولها؛ لأنها - كما ذكرت لكم - من شجاعة العربية؛ ولأنها هي مجال التفاوت بين شاعر وغيره في نظمه وبين صاحب نص أدبي وغيره.

ولذلك هذا الباب صدر له الجرجاني بعبارة تدل على أهميته قائلاً: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد بالإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبَيِّن".

فبين بذلك أنك إذا وقفت أمام الحذف تبين لك هذا السر الجميل في الحذف، فتقف على موطن الجمال في النص الذي تقرأه؛ وأيضاً لأن الحذف عموماً ضرب من الإيجاز، وكما قيل: البلاغة الإيجاز.

وهنا يجدر بنا في بداية حديثنا عن الحذف أن نذكر المزايا التي يحدثها الحذف في النص.

أرجع الدكتور أبو موسى - حفظه الله - صور الحذف لمزايا ثلاث:

الأولى: هي الاختصار أو الإيجاز حتى لا يرد علينا اعتراض ابن السبكي؛ لأن الاختصار هو الحذف، فكيف يكون مزية له.

الثانية: هي صيانة الجملة من الثقل والترهل اللذين يحدثان من ذكر ما تدل عليه القرينة.

الثالثة: هي إثارة الفكر والحس بالتعويد على النفس في إدراك المعنى.

فبين بذلك مزايا الحذف الثلاثة.

وفي النقطة الأولى هي مسألة نقاشية أو حوارية بالفرقة بين لفظ الاختصار أو الإيجاز.

أنواع الحذف:

انتهى العلماء إلى ذكر بعض ضروب الحذف، وهي ثلاثة:

الضرب الأول: حذف الكلمة.

الضرب الثاني: حذف الجملة.

الضرب الثالث: حذف أكثر من جملة.

وهنا يجدر أن ننبه أيضاً إلى بحث دقيق أجراه الدكتور أبو موسى في كتابه (خصائص التراكيب) ذكر فيه أن البلاغيين تغافلوا عن حذف جزء الكلمة، أي: أنهم اهتموا ببيان الحذف في الكلمة أو الجمل، وتغافلوا عن الحديث عن حذف جزء الكلمة. وهناك فرق بين حذف الحرف وبين حذف جزء الكلمة؛ لماذا؟ لأن

حذف الحرف يدخل في باب حذف الكلمة ؛ لأن الكلمة اسم وفعل وحرف ، فإذا ما تحدثنا عن حذف الحروف فذلك يدخل فيما ذكروه من حذف الكلمة .

أما الذي يقصد الحديث عنه الدكتور أبو موسى ، فهو حذف جزء من الكلمة ، وناقش هذه القضية ، وعرض لها نماذج فيها بيان علو قدره في هذا الباب - حفظه الله - واستدل لها بأشياء .

وفي نهاية حديثه ذكر عبارة جميلة ، ينبغي على طالب العلم أن يضعها في ذهنه ؛ لكي يعلم تواضع أهل العلم بعلمهم ، وهي قوله : " وليس ثمة كلام يجب قبوله والإذعان له إلا ما تجده بين دفتي المصحف وما صح عن رسول الله ﷺ وما عداهما فهو اجتهادات بشر غير معصومين ، تأخذ منه ما تأخذ ، وتدع منه ما تدع ، في حدود الفهم ، ولهذا خفت التبعة على الباحثين ؛ لأنهم يقولون ما يعالجون في نفوسهم ، وللقارئ أن يلقي به جملة في ساحة الإهمال ، وهي جد فسيحة ، ولولا هذا لأطبقت الأفواه على الألسنة حتى تيبس ؛ لأنه ليس هناك ضمير حي يتحمل إشاعة الخطأ ، وبث الضلالة في أرض الله ، إلا من أذن بحرب من الله ، وإني به سبحانه لمن العائدين " .

ونحن نكرر كلام شيخنا الذي قاله ، فهذه مسألة ينبغي أن نتنبه إليها قبل الخوض في أي مسائل تتعلق بالعلم .

أولاً: نذكر ما ذكره في مسألة حذف جزء من الكلمة :

يذكر أن هذه المسألة لها أصول في مصنفات السابقين ، وأنهم نهوا عليها كما قال ابن رشيقي في قوله ﷺ : " كفى بالسيف شا " أراد شاهداً ، فحذف ، وقالوا في تعليل ذلك : أن رسول الله ﷺ لم يرد أن يسير هذا الخبر حكماً شرعياً ، فقطع

الكلام وأمسك عن تمامه ، وكذلك أشار إلى ما ذكره الأخفش عندما سئل عن قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ۖ ﴾ [الفجر: ٤] فسئل عن حذف حرف العلة من غير وجود أداة جزم ، فقال الأخفش : عادة العرب أنها إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه ، والليل لما كان لا يسري وإنما يُسرى فيه ، نقص منه حرف ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بِغِيًّا ۖ ﴾ [مريم: ٢٢٨] فالأصل "بغية" فلما حول عن فاعل نقص منه حرف .

وبعد ذلك بدأ يستدل الشيخ ببعض الأشياء التي وردت في أشعار العرب وفصيح كلامهم ، واستدل بآيات من القرآن الكريم اجتهد في بيان سر الحذف فيها ، وذلك - كما هو معلوم - فيه اعتماد على ما ذكره المفسرون ، بأنه نستطيع أن نقول - موافقةً للشيخ - أن المفسرين يوجد في كلامهم أكثر مما في كتب البلاغة في هذا الشأن ؛ لاتصالهم بكتاب الله ، ولتطبيقهم العملي على آيات الذكر الحكيم .

مما ذكره من شواهدهم قول النجاشي :

فلست بآتيه ولا أستطيعه ولاك ❖ اسقني إن كان ماؤك ذا فضل
ففي قوله : "ولاك اسقني" يعني بحذف النون ، ولم يقل : ولكن اسقيني ، قال :
إن هذا الحذف في هذا البيت يوضح شيئاً جميلاً ، وهو أن الذئب الذي على لسانه
هذه العبارة ، كان في حالة من التعب والإعياء ، أنه لا يستطيع أن يكمل كلامه .
وكذلك ذكر مثلاً من قولهم ، قول لبيد < :

دَرَسَ الْمَنَا بِمُتَالَعِ فَأَبَانَ ❖
فقال : الأصل أنه يريد : درس المنازل ، فحذف الزاي واللام من الكلمة ، فعندما يذكر النحاة والبلاغيون هذا البيت يذكرونه أنه من الحذف الشاذ والضرورة ؛

لأنه ظلمَ الكلمة بحذف أكثر من حرف، ويمكننا أن نقول: إن الحذف في كلمة "المنازل" التي يتحدث عن دروسها، وتغيير معالمها، مناسب؛ لأنها بقيت آثاراً، وكان الحذف فيه إشارة إلى المضمون الذي يريد ببيانه، وهو أن المنازل بقايا لا يُستدل عليها إلا بالقرائن والشواهد.

وننتقل إلى استشهاده بآية كريمة في كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ

تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿١٨٥﴾

[يوسف: ١٨٥] هنا في هذه الآية يستدل الشيخ على ما نص عليه النحاة، من أن هناك حرف نفي محذوف لإعمال: ﴿تَفْتَوُا﴾، فهي من أخوات كان التي تعمل بشرط أن تسبق بنفي أو شبه نفي، فالتقدير: تالله لا تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حَرَضًا، والحرض ما لا يُعتد به، فذكر الشيخ كلام ابن أبي الإصبع أنه ﷺ أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها، فإن "والله" و"بالله" أكثر استعمالاً وأعرف عند الكافة من "تالله" فلما كان الفعل الذي جاور القسم أغرب الصيغ التي في بابه، فإن كان وأخواتها أكثر استعمالاً من "تفتأ" وأعرف عند الكافة، ولذلك أتى بعدها بأغرب ألفاظ الهلاك، وهي لفظة الحَرَضِ.

فهنا مهد بكلامه بذكر هذه المقالة عن أبي الأصبع، بأنه ذكر أن هذه الآية توافقت سياقياً بذكر الأشياء الغريبة، فذكرت "تالله" و"تفتأ" من أخوات كان، وذكرت كلمة: ﴿حَرَضًا﴾ الدالة على الهلاك والفناء، وهذا السياق تراحمت فيه كلمات غريبة تشيع جو الغرابة والوحشة لمناسبة مقصودهم الذي يريدون حمل أبيهم عليه، فهم يريدون أن ينسى يعقوب # ولده، وليس في الغرائب أغرب من هذا، وحذف حرف النفي وهو خلاف الأصل يأتي متلائماً مع هذا

السياق الغريب، ويرمز في خفاء إلى حاجتهم، وهو نسيان يوسف، وإبعاده عن قلب أبيهم الذي ضاق بهم، وتولى عنهم من أجل يوسف #.

هذا اجتهاد من الشيخ ذكره، وذكر نظيره في حذف حرف النداء في السورة نفسها في قول العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢٩) ﴿يوسف: ٢٩﴾ فأراد بقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ اكنتم هذا الأمر ولا تتحدث به؛ صيانة لعرضنا وشرفنا في قومنا، ثم قال لامرأته: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ وكان رجلاً حليماً، وقيل: كان قليل الغيرة.

والشاهد في حذف حرف النداء أنه يرمز برمز لطيف، فكأنه يهمس بهذا الخبر في أذن يوسف # محاذراً أن يسمعه أحد، ثم فيه تقريب وملاطفة ليوسف # وإيماء خفي بأن الخبر كله يجب أن يضمّر في السرائر، وأن لا يجري به لسان.

هذا الاجتهاد الذي ذكره الشيخ في حذف جزء من الكلمة واستدل له من القرآن بحذف الحرف، هذا لأنه ليس في القرآن مثل ما ذكر من أمثلة من كلمة "المنّا" بدل "المنزل"، وما ورد في الحديث: "شا" بدلاً من "شاهداً"؛ لأن هذا بهذه الصورة لم يرد في القرآن، ولكنني أرى أن الشيخ كان يستطيع أن يستدل في هذا المقام بحذف نون "كان": "لم أك، ولم أكن" مع استخدامها في كتاب الله ﷻ.

وقد تنبه بعض الباحثين لذلك، فذكر الفرق بين إثبات النون وحذفها ذكراً بلاغياً على خلاف ما يذكره النحاة من جواز ذلك إذا ما كان الفعل مجزوماً، ووليه متحرك ولم يله ساكن، فإنه يجوز حذف النون وإثباتها، فهذا مقام النحاة. أما مقام البلاغيين فهو بيان الفروق في استخدامها في موضع وحذفها في موضع آخر.

ثانياً: الحديث عن حذف الكلمة:

وحذفت الكلمة هو باب عظيم في أبواب الحذف، اهتم البلاغيون به، واهتموا اهتماماً بالغاً بذكر حذف المسند إليه، وبذكر حذف المسند، وبذكر حذف المتعلقات، وأفردوا حديثاً عن حذف المفعول به.

حذف المسند إليه :

قالوا: من أغراض حذف المسند إليه :

أولاً: الاحتراز عن السأم والعبث، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢] فذكر المسند إليه لو قلنا: هو: ﴿هُدًى﴾ يثير قلقاً؛ لشدة قرب الكتاب المائل أمام النفس، ويبعث فيه السأم؛ لوضوحه وقرب الحديث عنه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ١٠، ١١] ونذكر هذا إذا تأملنا الفرق بين هذا الأسلوب الموجز وبين أن يقال: وما أدراك ما هي، هي نار حامية. من الإسراع إلى ذكر النار بعد أن أشار الشوق بالسؤال عنها.

ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لِيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْفُودَةُ ﴿٦﴾﴾ [الهمزة: ٤ - ٦] وقوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨] فما دام ذلك في معرض الحديث عنهم، فليس في حاجة إلى إعادة ذكرهم.

ثانياً: ومن الأغراض التي ذكرت أيضاً لحذف المسند إليه: هو قوة ظهوره وتعيينه بما لا يتوهم معه أحد إسناد الخبر إلى غيره، وعبر عنها بعضهم بقوله: كون المسند لا يصلح إلا له. واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾

العبار النوي في القرآن الكريم

﴿الرعد: ٩﴾ فإن قوله سبحانه: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو، ولكن لما كان الخبر لا يكون إلا له سبحانه، جاء الكلام على الحذف، وفي هذا الحذف إشارة إلى الوجدانية والجلال.

وكذلك قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [آل عمران: ٢٧] فالمراد به الله ﷻ.

كذلك في قول أتباع فرعون: ﴿فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤] هذا الذي ذكره معلوم أن الكلام عن موسى # فلا حاجة لذكر المسند إليه.

كذلك في قوله ﷻ: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ لَهَا لَبِئْسَ مَا كَانَتْ تَفْعَلُ﴾ [القيامة: ٢٦، ٢٧] فإن الحديث عن ذكر الموت، ولا يبلغ التراقي عند الموت إلا النفس أو الروح، فلذلك التقدير: إذا بلغت الروح التراقي.

وكذلك في قوله سبحانه: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] فالكلام فيها عن الشمس من سياق الآيات.

ثالثاً: ضيق الصدر عن إطالة الكلام، واستدلوا له بقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَخَةٍ فَصَكَتَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩] فالتقدير: أنا عجوز عقيم، فحذف المسند إليه؛ لأنها لما سمعت بشارة الملائكة لها بغلام، عجبت من أمرهم واستبعدت أن تلد بعد بلوغها حد الكبر والعمر.

واستدلوا له ببيت من الشعر لطيف في قوله:

سهر دائم وحزن طويل ❖ قال لي: كيف أنت؟ قلت عليل
أي: أنا عليل، وحالي سهر دائم وحزن طويل.

رابعاً: من الأغراض التي ذُكرت في حذف المسند إليه: الإيحاء بالسرعة الفائقة للحدث؛ لصدوره عن صاحب القدرة المطلقة في هذا الوجود، واستدلوا لذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤] فحذف المسند إليهم من قولهم: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ﴾ للإشارة إلى قوة ظهوره، وأن ذلك الفعل الهائل - أعني: مخاطبته للأرض - وتوجيه الأمر إليها، لا يكون إلا من الذي خلقها فسواها، وكذلك السماء، وحذف الفاعل في قوله: ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾ للإشارة إلى الإجابة السريعة، فما إن أُمرت الأرض بأن تبتلع والسماء بأن تقلع، إلا وقد غيض الماء، وكان قوة هائلة مجهولة اختطفته وابتلعته، فذهب معها في المجهول.

ومن لطيف ما استدل به في هذا المجال قوله سبحانه: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨] ﴿ فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴾ [١١٩] ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ [١٢٠] ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٠] فحذف المسند إليه في قوله: ﴿ فَغَلِبُوا هُنَالِكَ ﴾ لأن الغرض منصب في بيان أن السحرة غلبوا، وأن سحرهم أبطل على الرغم مما كان لهم من شهرة، وفيه إشارة إلى أن الغالب في الحقيقة ليس هو موسى # وإنما قوة خفية أيَّدت موسى، وجعلت عصاه حيةً تسعى، ألقاها: ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٧] ولو أنه ﷺ قال: فغلبهم موسى، لكان نصاً على غلبة موسى # وأن له في ذلك فعلاً غلب به، وليس كذلك، فإن سيدنا موسى أوجس في نفسه خيفةً لما رأى جبالهم وعصبيهم، وخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

تابع: قضية الذِّكْر والحذف

عناصر الدرس

- العنصر الأول : استكمال أغراض حذف المسند إليه ٣٠٣
- العنصر الثاني : أغراض حذف المسند ٣٠٥
- العنصر الثالث : ما يتعلق بحذف المتعلقات، وحذف المفعول به ٣١٣

استكمال أغراض حذف المسند إليه

خامساً: الحذر من فوات الفرصة، كقولنا عند الحرب: غارة أي: هذه غارة، وقاسوا عليها أمثلة مصطنعة أيضاً، كقولنا: قطار أي: احذر القطار أو هذا قطار، وغير ذلك مما مثلوا به.

سادساً: من أغراض حذف المسند إليه: الخوف على المسند إليه كقول النابغة يعتمر للنعمان:

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ❖ ولا قرارَ على زارٍ من الأسد

سابعاً: من أغراض حذف المسند إليه: احتقاره، كقول النابغة أيضاً:

لئن كنتَ قد بُلغت عني وشاية ❖ مبلغك الواشي أعش وأكذبُ
ففي قوله في البيتين السابقين: نُبئت وبلغت هنا، بني الفعل للمجهول وحذف معه الفاعل، وهذه من المواضع القياسية التي اتفق عليها النحاة، يحذف فيها الفاعل، أما حذف الفاعل في غير ذلك فهو موطنٌ خلافٍ - سنقف عنده بإذن الله ونبينه.

يعني: هذا مما استدل به الدكتور لاشين - حفظه الله - على مسألة احتقار المسند إليه، واستدل لها بآية في كتاب الله وهي قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠] فذكر هنا في بناء الفعل

للمجهول في قوله تعالى: ﴿ظَلَمُوا﴾ و ﴿أَخْرَجُوا﴾ بأنه لم يذكر المشركون أي: ظلمهم المشركون أو أخرجهم المشركون؛ احتقاراً لشأن هؤلاء، فلم يذكرهم المولى ﷻ.

وكما ذكرنا أن هذا من الاجتهادات في ذكر أسباب حذف المسند إليه، والاستدلال لها.

من الأشياء التي ذكرها كدواعي الحذف واعترض الباحثون على إقرارها قولهم: اختبار تنبه السامع، واختبار مقدار تنبه السامع، والإنكار وتيسيره عند الحاجة إليه. يعني: كما ذكر أحد الباحثين تعليقاً على قولهم: تأتي الإنكار وتيسره عند الحاجة إليه، وذكروا مثلاً لذلك: أن المتكلم يحذف المسند إليه بتحقيق هذا الغرض، بأنه يحضر إليك جماعة من بينهم خصم لك، فتقول لآخر: فاجر أو غادر، تعني هذا الخصم، فتترك ذكر اسمه؛ ليتأتى لك الإنكار، فتقول تخلصاً من آذاه: ما عنيتُهُ وإنما أردت غيره. وليس من تعليق على هذا إلا أنهم يعلمون الناس كيف يتحايلون، أو أن يخرجوا عن طائلة العقاب أو الحساب. هذا من الأمثلة المصنوعة التي ذكرها لحذف المسند إليه.

وبقي بعض الأسباب التي تقرر في حذف المسند إليه، وذلك إذا ما كان الحذف جاء في أسلوب موروث كالأمثال مثلاً، كقولهم: رميت من غير رام، فلا يجوز لأحد أن يذكر المسند إليه فيقول: هذه رمية من غير رام، أو هي رمية من غير رام؛ لأنه ملزم بأن يذكر المثل كما ذكر.

ويضاف إلى ما ذكره البلاغيون في أغراض الحذف الدرر النحوي، فإن هذه المسألة بحذف المسند إليه، أي: حذف المبتدأ - مثلاً - وجوباً، فإنهم يذكرون أشياء في القرآن في مادة النحو أو في قواعد اللغة يجب فيها حذف المبتدأ، ويعددون لذلك مواضع، من هذه المواضع، مثلاً: المصدر الذي يؤتى به بدلاً من الرد بالفعل، فيؤتى

به مرفوعاً في قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] فهنا حذف، فالتقدير: صبري صبر جميل، أو أمري صبر جميل. ولذلك عُذِلَ عن النصب إلى الرفع؛ لإرادة الثبوت والدوام كما ذكر النحاة في ذلك.

ومن قبيل الحذف أيضاً لتطبيق القاعدة النحوية: اتفاهم على جواز حذف المبتدأ عند قطع النعت عن المنعوت، ففي قراءة: "الحمد لله رب العالمين" (الفاتحة: ٢) برفع كلمة "رب" يكون التقدير: هو رب العالمين، وحذف هنا المبتدأ. وفي قولنا: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" إذا ما قيل: الرجيم، يكون المبتدأ محذوفاً؛ لقطع النعت عن المنعوت لغرض الذم، كما كان قطع النعت عن المنعوت لغرض المدح في قولنا: "الحمد لله رب العالمين" أو لغرض الترحم: "اللهم ارحم عبدك المسكين" أي: هو المسكين.

أغراض حذف المسند

حذف المسند أيضاً له أغراض تتعلق به، وإنما الذي نستطيع أن نقوله ابتداءً: هو أنهم قاسوا أغراض حذف المسند إليه على حذف المسند، فإذا وجدوا شاهداً ذكروه، وإن لم يجدوا شاهداً قاسوا على غيره بمثال كما صنعوا من أمثلة فيما ذكر.

أغراض حذف المسند:

أولاً: أغراض الحذف لدى البلاغيين:

أولاً: الاحتراز عن العبث، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ [الإسراء: ١٠٠] فأصل الكلام: لو تملكون خزائن رحمة ربي، فحذف الفعل الأول؛ احترازاً على العبث عن

العبار النوي في القرآن الكري

ذكره لدلالة "لو" عليه ؛ لأن "لو" لا تدخل إلا على الأفعال ، ولوجود المفسر ، ثم أبدل من الضمير الذي كان متصلًا بالفعل المحذوف ضميرٌ منفصل هو: ﴿ أَنْتُمْ ﴾ فهذا الضمير فاعل للفعل المحذوف.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١] أي: خلقهن الله.

وكذلك قول حاتم الطائي عندما لطمته أمةٌ قال: لو ذاتُ سوارٍ لطمتني. أي: لو أن امرأةً حرةً هي التي لطمتني. لكان الأمرُ أهونَ عليّ. وذكروا لذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢] فالخبر محذوف بدلالة ما بعده عليه وهو: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فالتقدير: أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه كمن قسا قلبه.

هذا ؛ وهناك شواهد عديدة على هذا المجال أسهب الدكتور شفيح السيد في بيانها في مسألة الحذف بعد "لو".

ثانيًا: من الأغراض التي ذكروها لحذف المسند: ضيق الصدر، ويستشهدون له بقول الشاعر:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله ❖ فإني وقيار بها لغريب
أي: فإني وقيار لغريب بها، فحذف ؛ لدلالة غيره عليه، فهنا الشاعر عندما اشتد ألمه لبعده عن أهله ووطنه، تنفس بهذا البيت، وقد حذف المسند إلى "قيار" بسبب ضيق صدره، والتقدير: وقيار غريب. وكما يستشهدون له بقول القائل:
نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض، والرأي مختلف، أي: نحن بما عندنا

راضون، وأنت بما عندك راضٍ، كأنه يريد أن يبين للذي يحدثه أنه لا ينفع معه النصح ولا يتقبل النصح، فضيقاً قال هكذا: نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض، والرأي مختلف.

ثانياً: أغراض الحذف لدى النحاة:

أما نظرة النحاة في هذه المسألة فهي واضحة معلومة: أن الحذف لوجود ما يدل عليه، فإذا ما كان هناك دليل جاز الحذف بلا خلافٍ عندهم. في البيتين هناك دليل على الحذف في ذكر المسند مع غير ما حذف منه المسند.

من الشواهد على حذف المسند لأسباب نحوية - كما هو معلوم - عند النحاة: حذف الخبر في جواب القسم بقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢) [الحجر: ٧٢] وكذلك: الحذف لوجود دليل كقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] أي: وظلها دائم. كذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّتِي بَيَّسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤] فهنا الإيجاز أدى إلى التعبير من أقصر طريق، أي: واللائي لم يحضن مثلهن في هذا الحكم عدتهن كذلك.

مما يوقف معه في حذف المسند من الأمثلة الجميلة قوله تعالى: ﴿يَحْفَتُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢) [التوبة: ٦٢] ففي قوله تعالى: ﴿أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ هو خبر عن لفظ الجلالة أي: الله أحق أن يرضوه، أما خبر قوله: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فهو محذوف دل عليه الخبر السابق الذي ذكر مؤخراً. فيقول أحد الباحثين: "سر ذلك الحذف - والله أعلم براده - جعل إرضاء الرسول بمنزلة إرضاء الله ^{عجل} لا فرق بينهما، وتأكيدها لهذه

التسوية الدالة على المنزلة العالية لرسول الله ﷺ كان عطف كلمة "الرسول" على لفظ الجلالة، فهذا الذي يُتوقف معه في هذه الآية الكريمة، ويتواءم مع الروح العام للعقيدة الإسلامية، ويتفق مع مبادئها في كون الرسول ﷺ صاحب المنزلة العالية والمكانة العظيمة".

أما من ناحية النحاة فهم يتناولون المسألة بأيسر من ذلك بكثير، فيقولون في قوله تعالى: ﴿أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ أن الضمير هنا عبر به بالمفرد وأريد به التثنية، أي: الكلام عن الله وعن رسوله، وبذلك يكو لفظ "الرسول" معطوفاً ولا يحتاج إلى خبر.

من المواضع التي تحدثوا فيها عن حذف المسند إذا كان المبتدأ واقعاً بعد "إذا" الفجائية، كقولنا: خرجت فإذا المطر، أو خرجت فإذا صديقي، فالتقدير: خرجت فإذا المطر نازل، وخرجت فإذا صديقي حاضر، وكذلك وقوع المبتدأ بعد "لولا" كما قال ابن مالك:

وَبَعْدَ لَوْلَا غَالِبًا حَذْفُ الْخَبَرِ ❖

منه قول الصحابة في غزوة الخندق: "الله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا" أي: لولا الله أنعم علينا، لولا أن الله موجود، كما يقدر النحاة بأن الخبر تقديره: كائن أو موجود.

هذه كلها تناولوها في الحذف وحذف المسند، وكلها تدور حول غرض أساسي، وهو وجازة التعبير وتصفيته مما يمكن الاستغناء عنه بقيام قرينة تدل عليه.

وهنا نقف مع بعض الآيات الكريمة؛ لنرى فيها أسرار هذا الحذف، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبَهُمْ أَمْ يَتَّبِعُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ٢٣] فمقابل المستفهم عنه في صدر الآية لم

يذكر، ومعنى الآية: ﴿ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ** ﴾ : أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها وبما عملت من خير وشر، ويجازيها بما كسبت فيثيبها إن أحسنت ويعاقبها إن أساءت، وجوابه محذوف تقديره: كمن ليس بقائم بل هو عاجز عن نفسه، ومَن كان عاجزاً عن نفسه فهو عن غيره أعجز، وهي الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، فَمَنْ هنا موصولة وصلتها: ﴿ **هُوَ قَائِمٌ** ﴾ والموصول مبتدأ خبره محذوف تقديره: كمن ليس كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع.

فهنا سر بلاغي وراء هذا الحذف، مع الإيجاز والإشعار بازدراء المسند المحذوف والضم عليه بالذكر في مقابل المسند إليه.

وعكس ذلك ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿ **أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** ﴾ [الزمر: ٢٤] فأيضاً مَنْ يتقي اسم موصول وقع مبتدأ، خبره محذوف تقديره: كمن أمِنَ العذاب أو كمن ينعم في الجنة، وسوء العذاب هو شدته، الومعنى - كما يقول الزمخشري: أن الإنسان إذا لقي شيئاً يخيفه استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه؛ لأنه أعز أعضائه عليه، والذي يلقى في النار يلقى مغلولاً يداه إلى عنقه، فلا يتهيأ له إلا أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره؛ وقايةً له، ومحاماةً عليه. فالداعي البلاغي هنا هو الإشعار بتعظيم المحذوف، وأنه أكرم على الله من أن يُذكر في مقابل هذا الشقي.

وهذا الحذف - كما نعلم - قد يؤدي إلى بقاء الجملة على كلمة واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْتَمُونَ** ۚ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٩، ٥٠] فبعد هذا الوعيد الشديد أجابوه بقولهم: ﴿ **لَا ضَيْرَ** ﴾

أي: لا ضير علينا في قتلك، وحذفوا؛ لبقى الجواب كلمة واحدة نافذة كالسهم تقضي على غروره وحُمقه، وتبين أنهم لا يخافون ولا يرهبون ما يقول. هذا وغيره من الأشياء التي تلمسها أهلُ البلاغة في أغراض حذف المسند وعدم ذكره.

يبقى هنا مع حذف المسند والمسند إليه نقطتان:

النقطة الأولى: تتعلق بالتردد بين الحذفين، بمعنى: أن من البلاغيين من يأتوا على مواضع معينة ويقولون: هنا يجوز أن يكون الحذف للمسند أو للمسند إليه. فمثلاً: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] يقولون: حالي وأمري صبر جميل، أو صبر جميل عليّ، أو عليّ صبر جميل، على أساس أن المحذوف هنا هو الخبر وليس المبتدأ، فيتردد الحذف بين المبتدأ وبين الخبر. هذا ما يميزه البلاغيون في هذا الباب، وكذلك النحاة. وبعضهم يدقق في هذه المسألة فيقول: "إن التمحيص بين أي شيء هو المحذوف؟ وعلى الحقيقة يرجح محذوفاً على غيره، فلا نسلم بمسألة الجواز في هذه المسألة".

وهذه المسألة صراحةً أبدع الجرجاني في ذكر مثال لها في كتابه (دلائل الإعجاز) عندما ذكر قول الله ﷻ: ﴿يَتَأَهَّلَ أَلَكِتَبِ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ الكلام عن موقع: ﴿ثَلَاثَةً﴾ من الناحية الإعرابية، فهل: ﴿ثَلَاثَةً﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة؟ فهنا يكون المحذوف هو المسند إليه. وهل

التقدير: لا تقولوا لنا آلهة ثلاثة؟ فيكون المحذوف هو المسند، شبه الجملة: لنا. فهنا ذكر العربون والمفسرون هذه الأوجه في إعراب لفظ: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ إنه مبتدأ محذوف الخبر، أو إنه خبر لمبتدأ محذوف، على أساس أنه صفة لكلمة "آلهة" فلما حُذِفَ الموصوف حل محله، وَصَفَ المحذوف هو في الأصل مبتدأ: لنا آلهة ثلاثة. فيقول: أما إذا جعلنا التقدير: ولا تقولوا لنا أو في الوجود آلهة ثلاثة، أو ثلاثة آلهة، بحذف المسند، كنا قد نفينا الوجودَ عن الآلهة كما نفيناها في: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١١٩] ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [ص: ١٦٥] ثم يأتي تأكيد وحدانية الله في الآية بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١] فإن زعموا أن التقدير: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، على أن المحذوف هو المسند إليه و﴿ثَلَاثَةٌ﴾ خبر، كانوا قد نفوا أن تكون عدة الآلهة ثلاثة، ولم ينفوا وجود الآلهة.

هذا ما تنبه له الجرجاني، فرجح بذلك أن يكون الحذف للخبر وليس الحذف للمبتدأ؛ للفرق بين المعنيين.

طبعاً هو عرض في هذه المسألة استطراداً ورد عليه، يقول: فإن قيل: فإنه يلزم على تقديرك أي: لا تقولوا لنا أو في الوجود آلهة ثلاثة، يلزم على هذا التقدير الفساد أيضاً من وجه آخر، وذلك أنه يجوز إذا قلت: ليس لنا أمراء ثلاثة، أن يكون المعنى: ليس لنا أمراء ثلاثة ولكن لنا أميران اثنان، وإذا كان كذلك كان تقديرك وتقديرهم جميعاً خطأ. فيرد على ذلك بقوله: أن الأمر ههنا يختلف، وهو أن قولهم: آلهتنا أي: آلهتنا ثلاثة، يوجب ثبوت آلهة - جل الله تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقولنا: ليس لنا آلهة ثلاثة، لا يوجب ثبوت اثنين البتة، فإن قلت: إن كان لا يوجب فإنه لا ينفيه، قيل: ينفيه ما بعده من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. هكذا نرى الجرجاني عرض المسألة؛ ليرجح وجهاً على آخر، ويستدل له باتصال المسألة بالعقيدة، وهذه مسألة تهمة البلاغيين وتهمة من يتصدى لبيان القرآن، أن يكون ما يذهب إليه ليس عليه شيء، أو ليس عليه ما يؤدي إلى فساد المعنى، أو إلى معنى خطأ، فيستعاذ منه ولا يرضى العلماء أن ينسب إليهم هذا القول، أو أن يقولوا به.

النقطة الثاني في مسألة حذف المسند والمسند إليه: هو اختلافهم فيما إذا كان المسند إليه فاعلاً هل يجوز حذفه؟ فارتضى بعض البلاغيين أن يعتبر من باب حذف المسند إليه حذف الفاعل وإن كان الفعل مبنياً للمعلوم؛ لأنهم اتفقوا مع النحاة في جواز حذفه إذا كان الفعل مبنياً للمجهول كما سبق أن مثلنا. أما اختلافهم ففي نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَافِيَ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿القيامة: ٢٦﴾ ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿ص: ٣٢﴾ ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ ﴿الأنعام: ٩٤﴾ ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لَيْسَ جُنْدَهُ حَتَّى حِينٍ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿يوسف: ٣٥﴾ في هذه المواضع كان الاختلاف في جواز حذف الفاعل مع بناء الفعل للمجهول، وهي مسألة نحوية أكثر منها بلاغية؛ لأننا في البلاغة نرى أن المسألة واضحة كأن الفاعل غير مذكور في هذه الآيات الكريمة.

أما قضية حذفه وعدمه فهي قضية خلاف مشهورة بين الكوفيين والبصريين؛ والكوفيون يجيزون حذف الفاعل بلا تحرز، والبصريون يعددون المواضع القياسية التي يجوز فيها حذف الفاعل، ويمنعون حذفه فيما عدا ذلك. وهذا فقط أردت أن أشير إليه في باب حذف المسند والمسند إليه.

ما يتعلق بحذف المتعلقات، وحذف المفعول به

حذف المتعلقات :

أولاً: حذف المضاف، وهو كثير في القرآن الكريم، واهتم العلماء بعده والتمثيل له، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [الحج: ٧٨] أي: جاهدوا في سبيل الله. وقوله ﷺ: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] فالأصل: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينطق بما لا يسمع، ثم حذف المضاف وهو داع؛ رفعا لشأنه في اللفظ عن أن يقرب بهذا الذي ينطق بما لا يسمع. كذلك من حذف المتعلقات حذف المضاف إليه كقوله تعالى: ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ تَلَكُّيَنَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ ﴾ [الأعراف: ١٤٢] أي: بعشر ليال. وقوله ﷺ: ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم: ٤] أي: من قبل ذلك ومن بعده.

وهذا الحذف مشهور معلوم، يقره النحاة كما يقره أهل البلاغة، ويبحثون عن سر الجمال في هذا الحذف والغرض منه؛ أما دلالاته فهي واضحة مثال قول الله ﷻ: ﴿ وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف: ٨٢] يقدرون: واسأل أهل القرية. ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ [البقرة: ٩٣] أي: وأشربوا في قلوبهم حب العجل.

العبار اللغوي في القرآن الكريم

ثانياً: حذف الموصوف، كقوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطَّرْفِ أُنْرَابٌ ۝٥٢ ﴾ ﴿ص: ٥٢﴾ أي: حور قاصرات الطرف. وكقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ۝٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٦٠﴾ ﴿مريم: ٥٩، ٦٠﴾ أي: عمل عملاً صالحاً، فالعرف العربي في السياق اللغوي يقبل مثل هذا الحذف؛ لأن الصفة بشيوعها يكتفى بها عن الموصوف. و﴿ أَعْمَلُ سَدِغَتٍ ﴾ ﴿سبأ: ١١﴾ أي: دُرُوعًا سابغات.

ثالثاً: حذف الصفة: مثل قوله تعالى: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾ ﴿الكهف: ٧٩﴾ أي: يأخذ كل سفينة سليمة، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وإلا لو كان يأخذ كل سفينة غصباً لَأَخَذَ السَّفِينَةَ، فهي سفينة ولكنه لم يأخذها؛ لأنها معيبة، فهنا يلزم تقدير الصفة التي يتأتى معها صحة المعنى. وكذلك في قول بني إسرائيل لموسى #: ﴿ قَالُوا الْكَيْفَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ ﴿أى: بالحق الواضح أو البين، وإلا لو كانوا يقولون له #: ﴿ الْكَيْفَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ أي: أنهم كانوا مكذبين له، لم يكونوا أصلاً ممن آمن به وممن يتوجه لهم خطاب موسى #: وكذلك في قوله تعالى: ﴿ بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١﴾ ﴿ص: ٥١﴾ أي: شراب كثير، وهنا الحذف بدليل ذكره قبل ذلك، فهو مفهوم من السياق.

رابعاً: حذف القسم: مثل قوله تعالى: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنْهَ الْمُنتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠﴾ ﴿الأحزاب: ٦٠﴾ أي: والله لئن لم ينته. وكذلك حذف جواب القسم، وهو كثير في القرآن: ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا

بَسْرًا ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ [الفجر: ١ - ٥] وتقدير الجواب: لتبعثن يا كفار مكة. وكذلك حذف الشرط: كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] أي: إن تتبعوني يحببكم الله، وكقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣] أي: فإن تتبعني أهدك صراطاً سويًا. كذلك حذف جواب الشرط، وحذفه قد يكون لمجرد الاختصار، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٥ ، ٤٦].

كما يكون حذفه للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف؛ قصدًا للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] كأنه قيل: قد حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنقيص والتكدير، وإنما سار هذا الحذف هنا في مثل هذا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب في كل مذهب، ولو ذُكرَ الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنته العبارة.

خامسًا: حذف المعطوف، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا﴾ [الحديد: ١٠] والتقدير: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل، بدليل قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

هذه وغيرها مما ذكر من حذف المتعلقات أشياء نبه عليها البلاغيون وعدوهم في مصنفاتهم، وهي من أبواب الإعجاز في القرآن الكريم؛ بسبب أنها تُفهم من السياق، وأنها على طريقة العرب في كلامهم، فيتبينها من ينظر في كتاب الله ﷻ

وكثير منها يُقر عند أهل العلوم الثلاثة الذين يتضافرون على خدمة كتاب الله : علم النحو، وعلم البيان والمعاني، وعلم التفسير، فهذه العلوم الثلاثة تتضافر على بيان ما في كتاب الله ﷻ.

وقبل الحديث عن حذف المفعول به نفرغ من الكلام عن الحذف ببيان: أن من أنماط الحذف حذف الجملة، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۗ ﴾ [البقرة: ٦٠] والتقدير: فضرب فانفجرت، فهنا حذف السبب وذكر المسبب. وكقوله تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ۗ ﴾ [الأنفال: ٤٨]. والتقدير: فعل الله ما فعل من كثرة قوة أهل الشرك؛ ليحق الحق ويبطل الباطل. فحذف المسبب وذكر السبب.

ومن نماذج حذف أكثر من جملة في القرآن، وذلك أكثر ما يكون في القصص القرآني: قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۗ ﴾ [يوسف: ٤٥ - ٤٦] عندما قص الملك رؤياه على نزيل السجن مع يوسف # الذي كان ساقياً للملك، فقال لهم: ﴿ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۗ ﴾ [يوسف: ٤٥] فبعدها جاء الخطاب القرآني ﴿ يُوَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ۗ ﴾ فهنا حذف جمل، وهناك تفصيلات جزئية تعرف من السياق وتوصل بها إلى الكلام المباشر مع يوسف # وهذا الحذف يفهمه من ينظر في سياق الآيات ﴿ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۗ ﴾ فأرسلوه إلى يوسف، فقابل يوسف فقال له: ﴿ يُوَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ۗ ﴾.

وكذلك في قوله تعالى ﴿ فَقُلْنَا أَذْهَبْنَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايُنِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ۗ ﴾ [الفرقان: ٣٦] أي: فأتيهم، فأبلغاهم الرسالة، فكذبوهما؛ فدمرناهم تدميراً.

وكما قلت : هذا الحذف يكثر في القصص القرآني الكريم ، وكل ما ذكر من هذه الأنماط في الحذف يدرك في البلاغة فيما يسمى "إيجاز الحذف".
يبقى في حذف المتعلقات ما أُفرد له حديث ، وهو الكلام عن حذف المفعول به.

أولاً: نقول : لماذا يفرد المفعول به بحديث دون غيره من المتعلقات؟

بينَّ الجرجاني أن حذف المفعول ينماز عن سائر المتعلقات بأنه تكثر لطائفه ، وتدق أسراره ، وكأن المزايا فيه أخلب ، وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب ؛
بذا أفرد البلاغيون بعد ذلك جرياً على ما فعله الجرجاني في (دلائل الإعجاز)
أفردوا الحديث عن حذف المفعول به ، وما به من أسرار بلاغية.

ثانياً: أنهم أيضاً عندما يتحدثون عن حذف المفعول به لا بد أن يقدموا مسلمات يذكرونها أولاً ، وهو أن حذف المفعول به يتعلق بالفعل المتعدي ؛ لأن الفعل اللازم لا يحتاج إلى مفعول به ، وكذلك أنهم يقدمون إلى بيان أن هناك من الأفعال المتعدية ما ينزل منزلة اللازم ؛ فلا يحتاج أيضاً إلى مفعول به ، فهذا لأنه ربما المتحدث لا يقصد أن يخبر بشيء أكثر من أنه يخبر بوقوع الفعل ، فإذا أراد أن يخبر بوقوع الفعل اكتفى بذكره ، وإذا أراد أن يذكر وقوع الفعل ومن فعله اكتفى بذكر الفعل والفاعل.

والخلاصة : أن تعرف الفرق بين قولك : وقع ضرب ، وبين قولك : أعطى محمد ، وبين قولك : أعطى محمد الذهب ، ولكل جملة من هذه الجمل معنى محدد وغرض معين ومقام مختص بها ، لا تفيد واحدة منها معنى الأخرى ، ولا تصلح مكانها ، فهنا إيراد فعل المتعدي من غير مفعول يقع في الكلام على طريقين :

أولاً: أن يكون الغرض إثبات المعنى في نفسه للفاعل من غير نظر إلى شيء وراء ذلك ، وهذا موجود في كتاب الله ﷻ وأمثله كثيرة. يعني : أمثله من كلامهم أن تقول : فلان يأمر وينهى ، ويعطي ويمنع ، فأنت تريد الإخبار عن فلان أنه هو الذي يفعل كذا ، ولا تريد الإخبار عما يأمر به أو عما ينهى عنه أو ما يعطيه ، أو ما يمنعه ، ولذلك أنت تثبت المعنى للفاعل ، واستدلوا لذلك بآيات عديدة في كتاب الله ﷻ كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقوله تعالى : ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﷻ فإثبات الإحياء والإماتة والقبض والبسط لله ﷻ.

ومما جاء على ذلك واستدلوا به قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ [٤٣] وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [السنجم: ٤٣ ، ٤٤] ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَعْتَى وَأَقْنَى ﴾ [السنجم: ٤٨] فالمعنى : هو الذي منه الإحياء والإماتة والإغناء والإقناء ، وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى في نفسه فعلاً للشيء ، أو أن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه أو لا يكون إلا منه ، أو لا يكون منه ، فإن الفعل لا يعدى هناك ؛ لأن تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى ، كقول الله ﷻ : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أي : يكون منه الإحياء وتكون منه الإماتة من غير النظر إلى من أحياه الله وإلى من أماته. وكقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] أي : هل يستوي من يكون منه العلم ومن لم يكن منه العلم من غير النظر إلى معلوم؟

ويقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧] والمفعول الساقط من : ﴿ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ من قبيل المتروك المطروح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال ، لا من قبيل المقدر المنوي ، كأن الفعل غير متعد أصلاً ، نحو : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأأنعام: ١١٠].

هذا ما ذهبوا إليه أولاً من حذف المفعول ليس لغرض بلاغي واضح أكثر من هذا الغرض، هو أننا نريد أن نثبت الفعل للفاعل دون النظر إلى المفعول الذي وقع عليه الفعل.

ومن بديع ما ذكره البلاغيون في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤] فالآيتان تصور موقفَ موسى # من ابنتي شعيب حين حضرنا إلى بئر مدين؛ لتسقي ما معهما من دواب، وقد اشتمل أسلوب الآيتين على أربعة أفعال متعدية، حُذفت مفعولاتها جميعاً؛ إذ المعنى: وجد عليه أمةٌ من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنهما، قالتا: لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنهما، ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يُترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقاً، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يُعلم أنه كان من الناس في تلك الحالة سقي، ومن المرأتين ذوداً، وأنهما قالتا: لا يكون مئاً سقي حتى يصدر الرعاء، بمعنى: أن يفرغ الرعاء من سقي ما معهم من المواشي والدواب، وأنه كان لموسى # من بعد ذلك سقي، فأما ما كان المسقي غنماً أم إبلًا أم غير ذلك، فخارجٌ عن الغرض، وموهمٌ خلافه.

وذاك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنهما، جاز أن يكون: لم يذكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبلًا، لم يذكر الذود، كما أنك إذا قلت: ما لك تمنع أخاك، كنت منكراً المنع، لا من حيث هو منع بل من حيث هو منع أخ.

وهذا الذي ذكره عبد القاهر في تحليل الآية الكريمة.

وقد أسهبوا أيضاً في بيان هذه النقطة بأن من الحذف ما يخفى ، ومنه ما هو ظاهر ، بمعنى : أنك إذا ما قلت مثلاً : أصغيتُ إليك ، فواضح أن المفعول هنا هو كلمة أُذني ، أصغيتُ أُذني إليك ، أما هناك من الحذف للمفعول ما يكون متبادراً - واضحاً - إلى المتحدث ، إلا أن حذفه كان وراءه سير بلاغي أكثر من مجرد أن يكون حذفاً ، وهذا ما نبه عليه الجرجاني وذكر له أمثلةً من أشعارهم ومن كلامهم ، تدل على أن الحذف أتى بوظيفة بلاغية أجمل وأقوى من مجرد أنه يكون حذفاً لمفعول هو معلوم.

من ذلك قول البحتري في مدحه المعتز بالله ، وتعريضه بأخيه المستعين بالله . يعني : هو يمدح الخليفة ويعرض بأخيه الذي كان يزعم أنه له حق في الخلافة .

فيقول البحتري :

شجُو حساده وغيظ عداه ❖ أن يرى مبصر ويسمع واع
فأنت تفهم ابتداءً : أن المفعول المحذوف : أن يرى مبصر آثاره ومحاسنه ، وأن يسمع واع أخباره وأوصافه ، لكن الشاعر هنا تناسى هذين المفعولين تماماً ، وأغضى طرفه عنهما ، وكأنه لا وجود لهما ، وكأنما يقول : إن محاسن المعتز وفضاءه يكفي فيها أن يقع عليها بصره ، ويعيها سمع ، حتى يعلم أنه مستحق للخلافة ؛ لأن عين من يبصر لا تقع أينما اتجهت إلا على محاسنه ومناقبه ، ولم ينته إلى سمعه إلا كل طيب وعظيم من أخباره ، ولذلك ترى حساده وليس شيء أشجى لهم وأغیظ من علمهم بأن ههنا مبصراً يرى ، وسامعاً يعي ، حتى ليتمنون أن لا يكون في الدنيا من له عين يبصر بها ، وأذن يعي معها ؛ كي يخفى مكان استحقاقه بشرف الإمامة ، فيجد بذلك سبيلاً إلى منازعته إياها .

استدل أيضاً بقول عمرو بن معدي كرب:

فلو أن قومي أنطقني رماحهم ❖ نطقت ولكن الرماح أجرت
فهنا واضح أن الرماح أجرتني، وأن المحذوف هو ياء المتكلم، فالحذف هنا أدى
وظيفة أكبر من مجرد حذف مفعول معلوم لدى المخاطب، فالشاعر هنا يبين أن
قومه لم يبلوا بلاءً حسناً ولم يستعملوا رماحهم ولا يظهروا قوتهم، ولو أنهم
كانوا عملوا ذلك لكان ذلك مدعاةً بأن ينطق بمدحهم، وأن يذكر مفاخرهم، إلا
أنهم عندما تقاعسوا عن ذلك أخرسوه، فلم يستطع أن يتحدث، فلو قال: "ولو
أن قومي أنطقني رماحهم ولكن الرماح أجرت غيري". فذلك غير متصور، فلا
هو لا يتحدث إلا عن نفسه؛ وذلك لأنه لا يريد إثبات أنه أخرس عن مدح
قومه، وإنما يريد أن يثبت أنه كان للرماح إجرار وحبس للألسن عن النطق، وأن
يصح وجود ذلك، فلو قال: أجرتني، جاز أن يتوهم أنه لم يعن بأن يثبت
للرماح إجراراً، بل الذي عناه أن يبين أنها أجرت، أي: أخرسته وقطعت لسانه
عن مدح قومه، فقد يُذكر الفعل كثيراً والغرض منه ذكر المفعول، ومثاله الواضح
في كلامنا عندما نقول لأحد: أضربتَ محمداً؟ مثلاً، فإنك لا تنكر عليه الضرب،
وإنما تنكر عليه ضربَ محمدٍ دون غيره.

من الأغراض التي ذكروها لحذف المفعول: البيان بعد الإبهام، أو ما أطلق عليه
الجرجاني "الإضمار على شريطة التفسير". ومن لطيف ذلك قول البحراني:

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم ❖ كرماً ولم تهدم مائراً خالد
فالأصل في الكلام: لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، ثم حلف
ذلك من الأول؛ استغناءً بدلالته في الثاني عليه، ولا يخفى عليك أنك لو قلت:
لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، سرت إلى كلام غث، وإلى شيء

يجه السمع، وتعافه النفس، وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له لطفًا ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك النفس إلى بيانه وسماعه.

واستدلوا لذلك بأن هذا الأمر - أي: البيان بعد الإبهام - يكثر مع فعل المشيئة، وهو كثير في كتاب الله ﷻ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ١٣٥] أي: لو شاء الله جمعهم لجمعهم. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] أي: لو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين.

ومثل فعل المشيئة في حذف المفعول ما في قوة المشيئة كفعل الاستطاعة، كقول القائل: ولو أني استطعت غضت طرفي فلم أبصر به حتى أراك، أي: لو أني استطعت غض طرفي غضته، وحكم المشيئة لا يختص بحرف "لو" وإنما يأتي على سائر أدوات الجزاء - حروف الجزاء - وأسماء الجزاء، حروف مثل "إن" فقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] وأسماء نحو "من" كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩] فمعروف التقدير: فإن يشأ الله الختم على قلبه ختم، وإن يشأ الله أضلاله أضله. فهنا من حذف المفعول.

وتطرق الجرجاني إلى المواضع التي يُذكر فيها المفعول مع فعل المشيئة، فهو يقصر حذف المفعول مع فعل المشيئة، وإنما هناك مواضع يحسن فيها ويفضل فيها أن يذكر المفعول ولا يحذف، وذلك إذا كان الأمر الذي يتعلق بالمشيئة أمراً عظيماً أو غريباً، فإنه يحصل هنا أن يصرح به، ويمثلون له بقول الشاعر:

قضى وطراً منك الحبيب المودع ❖ وحل الذي لا يُستطاع فيُدفع
ولو شئتُ أن أبكي دماً لبكئته عليه ❖ ولكن ساحة الصبر أوسع

فبكاء الدم شيء عجيب ، ولو حذفه الشاعر فقال : " ولو شئتُ بكيت دماً " لَمَا اطمئن إليه السامع ولا تلقاه بالقبول ، لذا كان الأولى أن يصرح الشاعر بذكره ؛ ليقرره في نفس السامع ، ويؤنسه به .

وخير ما يمثل له في هذا المجال ما ورد في القرآن الكريم من التصريح بفعل المشيئة في قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الزمر: ٤] فذكر مفعول المشيئة أي : لو أراد الله اتخاذ الولد لاصطفى مما يخلق ما يشاء ؛ لأن من الغرابة أن يتخذ رب العالمين ولداً . وكذلك : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًا لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ [الأنبياء: ١٧] فذكر المفعول وهو المصدر المؤول المكون من "أل" وما دخلت عليها في هذا المقام أبدع وأحسن من عدم ذكره ؛ لأن الأمر المتعلق بالإرادة أو المشيئة هو أمر عجيب غريب على السامع ، فلا بد أن يُذكر .

ومن الأغراض التي ذكروها لحذف المفعول : إرادة ذكره مرة ثانية ، بحيث يعمل الفعل في صريح لفظه لا في ضميره العائد عليه ؛ إظهاراً لكمال العناية بوقوع الفعل عليه . ويمثلون له بقول البحثري :

قد طلبنا فلم نجد لك في ❖ السؤدد والمجد والمكارم مثلاً
فالتقدير : قد طلبنا مثلاً فلم نجد لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلاً ، فلم يذكر المفعول أولاً ويعمل فيه الضمير ثانياً فلو قال : قد طلبنا مثلاً فلم نجده ، لم يكن مثل هذا القول الذي قاله في بيان المعنى ؛ وهذا لأنه لو قال : قد طلبنا مثلاً ، ربما يشعر بجواز أن يكون له مثل ؛ لأن العاقل لا يطلب إلا ما هو موجود ، أما حذف المفعول ههنا يبين أنه لا يوجد أصلاً "مثلاً" لهذا الممدوح الذي يذكره ، ولذلك بعضهم أطلق على هذا الغرض أنه من التحرز عن مواجهة الممدوح بما لا يليق ، فلو قال له : "مثلاً" ، ابتداءً ، ربما ظن الممدوح أنه يقلل من شأنه ، وأن هناك مَنْ يضاهيه .

من الأشياء التي ذكروها أيضاً لحذف المفعول: دفع توهم السامع في أول الأمر إرادة غير المراد، وذكروا له قول الشاعر:

وكم ذُدت عني من تحامل حادث ❖ وسورة أيام حزنَ إلى العظم
فالتقدير: حزن اللحم إلى العظم، فحذف المفعول وتوصل إلى المتعلق بالفعل مباشرة؛ لكي يؤكد مراده الذي يريد.
ولا نريد أن نقف كثيراً عند الأبيات الشعرية.

ما ذكره في القرآن الكريم من أغراض أضافوها لحذف المفعول:

فقالوا: من هذه الأغراض: قصد التعميم مع الاختصار، واستدلوا له بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ لِيونس: ١٢٥ أي: يدعو جميع المكلفين، فحذف المفعول في الآية الكريمة شمل جميع مَنْ كَلَّفَهُمُ اللَّهُ ﷻ ودعاهم إلى جنته وإلى باب كرامته، فكان الحذف هنا لقصد التعميم.

ومن الأغراض التي ذكروها في حذف المفعول: الحذف لمراعاة الوزن في الشعر ورعاية الفاصلة في القرآن الكريم، ويمثلون للشعر بقول المتنبي:

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ❖ ومَوْجُ المُنَايا حَوْلَهَا متلاطمٌ
أي: بناها فأعلاها. أقر البلاغيون ذلك وذكره في الشعر، ويُقبل منهم ذلك.

أما ما يتعلق بالقرآن الكريم؛ لأن حذف المفعول كان لأجل الفاصلة، فهذا ما يستحق أن يوقف عنده. هم يستدلون بقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ الضحى: ١ - ٣ أي: وما قلاك، فحذف ضمير المخاطب الواقع مفعولاً به؛ رعايةً للفاصلة في الآية التي قبلها والآية التي بعدها. وقال بعضهم: إن حذف المفعول هنا لأجل الاختصار اللفظي؛ لظهور

المحذوف كما في قوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾^١
[الأحزاب: ٣٥] أي: والذاكرات الله.

والواقع أن الاختصار علة متحققة في كل مواقع الحذف، لكنه لا يعول عليه وحده في الأعم الأغلب منها، وإنما تكمنُ أغراض أخرى أهمُّ، كذلك فإن رعاية الفاصلة في القرآن الكريم لا ينبغي أن تكون غرضاً مستقلاً وراء حذف المفعول أو حذف سواه، صحيح أن تناسق الإيقاع أداة بارزة في مجال النظم القرآني، لكن الاختصار عليه لا يعدو أن يكون اقتصاراً على علة لفظية، والإعجاز البلاغي للقرآن لا يقف عند حدود اللفظ، وإنما تتأزر فيه الألفاظ والمعاني تأزراً كاملاً. ولهذا نجد أحياناً فاصلةً مختلفةً تقطع نسقاً موحداً من فواصل متعددة؛ لاقتضاء الدلالة عليه.

وقد علقَت الدكتورَة عائشة عبد الرحمن - رحمها الله - على هذا الكلام بكلام بديع، تقول فيه: "إن البيان الأعلى لا يتعلق في فواصله بمجرد دعاية شكلية للرونق اللفظي، وإنما تأتي الفواصل لمقتضيات معنوية مع نسق الإيقاع بها، واثتلاف الجرس بألفاظها التي اقتضته المعاني على نحو تتقاصر دونه بلاغة البلغاء، وفي مقدمة الأمثلة القرآنية التي يُستشهد بها طرح كاف الخطاب من الفعل: ﴿قَلْبِي﴾ في الآية السابقة، فليس إسقاطها كما تقول: اكتفاء بالكاف الأولى في: ﴿وَدَعَكَ﴾، ولمشكلة رءوس الآي كما ذهب الفراء، وليس رعاية للفاصلة كما ذهب الفخر الرازي وبعضُ المفسرين".

وأيدت رأيها بأن البيان القرآني عدلٌ عن رعاية الفاصلة في الآيات بعدها، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ٩ - ١١] فجاءت الفاصلة الأخيرة بحرف الشاء، وهو ليس

موجوداً في الفواصل السابقة، بل ليس موجوداً في الصورة كلها، وكان من الممكن أن تكون الفاصلة: "فخبر"؛ اتساقاً مع الفاصلتين السابقتين.

وهذا الذي ذكرته الدكتورة عائشة ينمُّ عن إحساسٍ مرهفٍ بالقرآن الكريم وبالآية، وبيان سر الحذف فيها أنه لا يتعلق بالفاصلة فحسب، وإن كان يعطي درساً موسيقياً، ويعطي جمالاً في اللفظ، إلا أنه لا بد من غرض أسمى لهذا الحذف لا يقتصر فيه على اللفظ فقط. فمثلاً مما يُستأنث به في الآية الكريمة أن نقول: إن حذف المفعول كان لتجنب مواجهة الرسول ﷺ بما لا يحب، فلو قال ﷺ: "فلاك" بمعنى كرهك، لا يناسب المقام الذي يُساق فيه الآيات من مقام إناس، وإشاعة الطمأنينة في نفسه، وتبديد شعوره بالوحشة الذي أحسَّ بها بعد فتور الوحي وانقطاعه عنه فترةً من الزمن.

وبعد؛ فهذه هي أهم الأغراض التي ذكروها في حذف المفعول به، وكان الذكر والحذف من مظاهر النظم التي بينها الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز).

التوكيد في النظم القرآني

عناصر الدرس

- العنصر الأول : تعريف التوكيد، وأغراضه ٣٢٩
- العنصر الثاني : صور وأساليب التوكيد ٣٢٢

تعريف التوكيد، وأغراضه

نتناول صورة من صور النظم القرآني التي بدأ فيها الإعجاز واضحاً جلياً لكل ذي عينين يبصر ويفهم كلام الله ﷻ هذه الصورة هي صورة التأكيد أو التوكيد. فإننا سنتناول ثلاث صور كل منها في درس مستقل تترابط في مسألة النظم؛ وهي: التوكيد، والتكرير، والزيادة.

التوكيد:

التأكيد لغة في التوكيد، ويقال: أكد الشيء ووكده، والواو أفصح؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، ولذا يقولون: وكَّد العقد والعهد أي: أوثقه، والهمزة فيه لغة، ويقال: أوكدته وأكدته وأكدته إيكاداً، وبالواو أفصح أي: شددته، وتوكد أمره، وتأكد بمعنى أي: توكد وتأكد بمعنى واحد. ويقال: وكدت اليمين، والهمز في العقد أجود، تقول: إذا عقَّدت فأكَّد، وإذا حلفت فوكد. إذن أكد ليست أصلاً؛ لأن الهمزة مبدلة من واو، والتوكيد لا يؤتى به إلا الحاجة.

التوكيد أسبابه ومراتبه:

ومن هنا كانت للتوكيد دواعيه وأسبابه ومراتبه التي قال بعضهم فيها: إنما يؤتى به للحاجة للتحرز عن ذكر ما لا فائدة له، فإن كان المخاطب خالي الذهن ألقى إليه الكلام بدون توكيد، وإن كان متردداً فيه حسن تقويته بمؤكد، وإن كان منكراً وجب تأكيده. واستخدم القرآن التوكيد وسيلةً لتثبيت المعنى في نفوس قارئيه، وإقراره في أفئدتهم؛ حتى يصبح عقيدةً من عقائدهم، فهذا التأكيد يقرر المعاني التي يريد المولى ﷻ في كتابه.

الأغراض التي من أجلها استخدم القرآن الكريم أسلوب التوكيد:

أول هذه المعاني:

أولاً: هو تأكيد القرآن لصفات الله ﷻ حتى يستقر الإيمان بها في النفوس؛ لأن ذلك هو الأساس الذي ينبني عليه الدين، فلذا نجد القرآن كثيراً ما يقرر هذه الصفات التي تدل على الوحدانية والقدرة، والتصرف المطلق في الكون: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ [الأَنْفَال: ٧٥]، ﴿أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، ﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ٣٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

هذه المعاني التي يؤكد بها المولى ﷻ وتكرر في كتابه في النفس ينشق منها العمل الصالح المبني على أساس من الإيمان المكين.

ثانياً: نجد القرآن الكريم يؤكد مسألة الوعد والوعيد، فيكرر المولى ﷺ مؤكداً في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤) ﴿التوبة: ٤٤﴾، ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣) ﴿التوبة: ٣٦﴾، في مواضع شتى، وكذا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ (٣٢) ﴿آل عمران: ٣٢﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰفِرِينَ﴾ (١٧) ﴿المائدة: ٦٧﴾، وهكذا يكون تكرار هذا المعنى في كتاب الله ﷻ.

ثالثاً: هو تأكيد كل خبر هو مجال للشك أو الإنكار، يقول المولى ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿آل عمران: ١١﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) ﴿البقرة: ١١ - ١٤﴾، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٤) ﴿البقرة: ١١ - ١٤﴾، أولاً تراهم عندما أنكروا الإفساد في الأرض والسفاهة، أكد المولى ﷻ اتصافهم بها بـ"ألا" و"إن" وتعريف ركني الإسناد، وذلك يؤذن بتأكيد المعنى الذي أنكروه، والذي يريدون إثبات خلافه. ولما كان إقرارهم للمؤمنين بالإيمان بألسنتهم مبعثاً للشك في نفوس شياطينهم، دفعهم ذلك إلى تأكيدهم لهم الثبات على مبادئهم، وأنهم لا ييغون عنها حولاً.

وانظر أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) ﴿الأنعام: ١٣﴾، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ (١٤) ﴿الأنعام: ١٤﴾، ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِن أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (١٥) ﴿الأنعام: ١٥﴾، ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا إِيَّاكُمُ لِمَرْسَلُونَ﴾ (١٦) ﴿الأنعام: ١٦﴾، ﴿إيس: ١٣ - ١٦﴾، ألا ترى المرسلين قد أكدوا رسالتهم بـ"إن" عندما كذبهم أصحاب القرية، فلما لج هؤلاء في التكذيب، زاد المرسلون في تأكيد رسالتهم مؤكداً جديداً هو اللام، وأشهدوا ربهم على صدق دعواهم.

رابعاً: هو تقرير أن الكتاب الذي جاء به رسول الله ﷺ هو منزل من عند الله:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]،

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الحجر: ٩]،

إلى غيرها من الآيات. وكذلك تأكيد أن كتاب الله كتاب هداية ينير البصائر، ويجعلها تهتدي إلى أقوم طريق، يقول المولى ﷺ: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ٩].

هذا مقدار مما أكد القرآن الكريم معانيه في كتابه على مدار السور والآيات، بالإضافة إلى الرد على منكري البعث، والأمور التي كثر فيها الجدل، فإن القرآن استخدم التأكيد؛ لبيان معانٍ هي من أسس الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ رحمةً للعالمين.

صـور وأساليب التوكيد

التوكيد له صور عديدة، وابتداءً نوضح أن هناك فرقاً بين حديثنا عن التوكيد، وبين حديث النحاة عن التوكيد. **النحاة يقسمون التوكيد إلى نوعين:**

توكيد لفظي: وهو ما كان بإعادة اللفظ المراد توكيده، ويعرب توكيداً، ويتبعه في الإعراب: رفعاً ونصباً وجرّاً.

توكيد معنوي: وهو ما كان بألفاظ معينة تُستخدم لغرض التوكيد: كـ كل، وجميع، وكلا، وكلتا، ونفس وعين. هذا التقسيم النحوي.

أما صور التوكيد عند البلاغيين تقسم إلى أساليب وصور عديدة:

أولاً: ما يسمونه أيضاً بالتوكيد اللفظي، ولكن ليس بمعنى الإعراب كما يذهب إليه النحاة، وإنما هو بإعادة اللفظ المراد توكيده، سواء كان مفرداً اسماً أو فعلاً أو

حرفاً، وسواء كان جملة أو فصلَ بينهما وجاءت بعدها الجملة على سبيل تأكيد المعنى بلفظٍ واحدٍ.

فمثال توكيد الاسم: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، ومثال تأكيد الفعل: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤِيًّا﴾ [الطارق: ١٧]، ومثال توكيد اسم الفعل: ﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوَعَّدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]، ومثال توكيد الجملة: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥]، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [شرح: ٥، ٦] وكثيراً مع ما تقترب الجملة الثانية بـ"ثم" كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا آدْرَبْنَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [١٧] ثُمَّ مَا آدْرَبْنَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ [الانفطار: ١٧، ١٨] هذا يطلق عليه البلاغيون توكيداً لفظياً، أو يدرجوه تحت التوكيد اللفظي، وإن كان من النحاة من ينكر على مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [١١] وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢]، أن هذا ليس من قبيل التوكيد؛ لأن المعنى فيه: دكاً بعد دك، و صفًّا بعد صف. هذا خلاف يتحدث فيه النحاة وفي توجيههم وفي إعرابهم، وخلافهم أيضاً بين ما يفرقون به بين التوكيد اللفظي وبين التكرار عند النحاة، كما أشار إلى ذلك ابن هشام في مسألة الأذان: "الله أكبر الله أكبر، حي على الصلاة حي على الفلاح".

تأكيد الضمير المنفصل بمثله، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣]، "هم هم".

وتأكيد الضمير المتصل بالمنفصل كقوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، وفي تأكيدهم ما يشعر بثقتهم بأنفسهم: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [١١٥] وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ

﴿ أَنْتَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ [طه: ٦٨] وفي ذلك تثبيت قلب موسى # وبعث
الطمأنينة إليه: ﴿ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ .

ومنه أيضاً تأكيد الفعل بمصدره، ويكون ذلك في الأمور التي يتوهم فيها المجاز،
فيأتي الفعل لرفع هذا التوهم، تأمل قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، فقد يطلق الكلام على الإيحاء وينصرف الذهن
إليه، فجاء المصدر؛ لإزالة هذا التوهم. وقوله ﷺ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ قَعُ مَا
لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ [يوم تمور السماء موراً] ﴿ ١ ﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿ ١٠ ﴾ [الطور: ٧ - ١٠]
أولاً ترى أن اضطراب السماء وسير الجبال مما قد تتردد النفس في قبوله، فجيء
بالمصدر؛ تأكيداً لوقوعه. ومن البديع أن يأتي توكيد المصدر بمصدر آخر غير
المصدر المؤكد للفعل المذكور، فينوب عنه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ
وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨] وفي ذلك دلالة على ما للتبتيل من أثر في
استجلاب رضوان الله، فأمر به مؤكداً. ولعل السر في العدول إلى هذا المصدر هو
المحافظة على النغمة الموسيقية للآية.

التوكيد اللفظي يندرج تحته أيضاً: ما يسمى بالتركرار. فقد يكرر القرآن الجملة
المؤكددة عدة مرات بألفاظها نفسها، علماً منه بما لذلك من أثر في النفس،
فتراه ﷺ مثلاً في سورة "الشعراء" يكرر الجملتين الآتيتين خمس مرات من غير أن
يغير من ألفاظهما حرفاً، فقال سبحانه على لسان بعض رسله: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٠٧، ١٠٨]، وهي وإن كانت مقولة
على السنة عدة رسل توحى لتكرارها بعبارة واحدة بصدق هؤلاء الرسل،
وتثبيت التصديق بهم.

ثانياً: هو التوكيد المعنوي ؛ قلنا بألفاظ معينة كما في قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص: ٧٣] وفائدة هذا اللون من التوكيد رفع ما يتوهم من عدم الشمول، فإن كلمة: ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ أفادت ذلك أن الملائكة جميعاً قد سجدوا، وكلمة: ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ أفادت اجتماعهم على السجود وأنهم لم يسجدوا متفرقين. فهذا مما استخدم في القرآن وأطلق عليه توكيد، وهو يتفق مع النحاة في توجيهه.

ثالثاً: أهم صورة من صور التوكيد، أو مقصد البلاغيين الأساسي في مسألة التوكيد: وهو التوكيد باستخدام أداة من أدوات التوكيد، أو وسيلة من وسائله؛ لأن هذه النقطة هي المحور الأساسي الذي يدور حوله درسنا، والذي يهمننا في هذا الباب عندما نتأمل النظم القرآني في استخدام أساليب أدوات معينة، هذه الأدوات تؤدي معنى التأكيد الذي يريده المولى ﷺ. فمن ذلك: **إِنَّ** و**أَنَّ**، وإِنَّمَا، ولام الابتداء، والقسم، وألا الاستفتاحية، وهاء التنبية، وكأنَّ لتأكيد التشبيه، وضمير الشأن، وضمير الفصل، وقد، والسين، وسوف، ونونا التوكيد الثقيلة والخفيفة، ودخول الأحرف الزائدة. كل ذلك من الأدوات ومن الأساليب التي تؤدي إلى معنى التأكيد، وبأنَّ فيها الإعجاز القرآني.

من أهم الصور التي اهتم البلاغيون ببيانها هو التأكيد بـ **"إِنَّ"** و **"أَنَّ"**، وهما يؤكدان الجملة الاسمية، والفرق بينهما بإيجاز بسيط: أن **إِنَّ** تكون في بداية الكلام، أو فيما يصلح الابتداء به، وأنَّ تكون وسط الكلام حيث يصح إحلال مصدر محلها، أو إحلال مفرد محلها.

فـ **"إِنَّ"** و **"أَنَّ"** اهتم عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) ببيان دورها في التأكيد، فتدخل **"إِنَّ"** في الكلام، فضلاً عن تأكيدها معنى الجملة تربط ما بعدها

بما قبلها. يقول عبد القاهر: "هل شيء أبين في الفائدة وأدل على أن ليس سواء دخولها وألا تدخل، من أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها، وتألف معه، وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغاً إفراغاً واحداً، وكأن أحدهم قد سُبِك في الآخر. هذه هي الصورة حتى إذا جئت إلى إن فأسقطتها، رأيت الثاني مبهماً قد نَبأ عن الأول، وتجاوى معناه عن معناه، ورأيت لا يتصل به ولا يكون منه بسبيل، حتى تجيء بالفاء، ثم لا ترى الفاء تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة. وترد عليك الذي كنت تجد بأن من المعنى".

يوضح عبد القاهر الفرق بين استخدام إن بدلاً من فإن، مع أن سياق الكلام يستدعي جلب الفاء، فهي تربط إن محل الفاء في الكلام، وتؤدي معنى أزيد من التوكيد، وهو الربط بين الجملتين. وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١﴾ [الحج: ١١]، فهذه الزلزلة سبب في الأمر بالتقوى، فسياق: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [الحج: ١١] فزلزلة الساعة شيء عظيم، فعدل عن استخدام الفاء إلى إن، وأفادت معنى التوكيد والربط بين الجملتين.

وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَبْنِي أَقْرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ١٧﴾ [القمسان: ١٧] ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] ومن أبين ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْطِبْنِي فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَفُونَ ٣٧﴾ [هود: ٣٧] وقد يتكرر في الآية الواحدة كقوله ﷻ: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمْتُ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥٣﴾ [يوسف: ٥٣]، ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ وهي على الجملة من الكثرة بحيث لا يدركها الإحصاء. فأمثلتها عديدة في كتاب الله ﷻ.

وإنما تقع إن في موضع الفاء إذا كانت جملتها توضح ما قبلها، وتبين وجه الفائدة كما ذكر عبد القاهر من الآيات، فكما ذكرنا في قوله ﷺ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ ﴿١﴾ تبين سبب أمرهم بالتقوى، وكذلك: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ۝١﴾ إذ تبين السبب في طلب الصلاة لهم من النبي ﷺ. ولكن ذلك لا يطرد في كل موضع، بل هناك ما لا يحصى من الجمل التي لا تقتضي الفاء. يعني: أن كون إن تحل محل الفاء في الربط، هذا لا يطرد في جميع المواضع، فمثال عدم الاطراد أو عدم صحة إحلال الفاء قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١﴾ في ﴿جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢﴾ [الدخان: ٥١، ٥٢]، فقبله: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾ [الدخان: ٥٠] ولو أنك قلت: إن هذا ما كنتم به تمترون فالمتقون في جنات وعيون، لم يكن كلاماً.

وقوله ﷺ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠٠، ١٠١]، فلو أتينا مكان إن بالفاء، لم تجد لها وجهاً، كما أنه لا يجوز المجيء بالفاء مكان إن في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالصَّرِيغِينَ وَالْمَجْسُورَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝١١٧﴾ [الحج: ١١٧]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف: ٣٠]، لأن جملة إن الثانية خبر عن الأولى في الآيتين والخبر لا يجوز عطفه على المبتدأ.

أشار الجرجاني أيضاً إلى بعض خصائص إن في التوكيد يقول: "ومن خصائصها: أنك ترى لضمير الأمر أو الشأن معها من الحسن واللفظ ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث يصلح إلا بها".

العبار النوي في القرآن الكريم

هذه مسألة جميلة أشار إليها الجرجاني في استخدام ضمير الأمر، أو ما يسمى بضمير الشأن، وهو الذي تستطيع أن تحل محله كلمة الشأن أو الأمر، مثال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، أي: قُلْ الشَّأْنُ أَوْ الْأَمْرُ اللَّهُ أَحَدٌ. يذكر الجرجاني المواضع التي تأتي إنَّ مؤكدةً لضمير الشأن، أن يكون اسمها هو ضمير الشأن، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ، مَنْ يُكَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَأَنْتَ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٦٣]، ﴿أَنَّهُ، مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿إِنَّهُ، لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ [الحج: ٤٦].

فإذا رأيت اسم إنَّ في هذه المواضع تجده هو ضمير الشأن أو الأمر، أي: إنَّ الشَّأْنُ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، إنَّ الشَّأْنُ: ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [١٧]، إنَّ الشَّأْنُ مَنْ يَعْمَلُ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي ذَكَرْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ. فإن قلت: هنا يعترض الجرجاني ويبيِّن معنَى لطيفاً، يقول: "فإن قلت: أو ليس قد جاء ضمير الأمر مبتدأ به معرّى من العوامل في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟ قيل: ﴿هُوَ﴾ وإن جاء هنا فإنه لا يكاد يوجد مع الجملة مع الشرط والجزاء، بل تراه لا يجيء إلا بياناً، على أنهم قد أجازوا في: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أن لا يكون الضمير للأمر". هذه المسألة من الجرجاني - رحمه الله - ليؤكد المعنى بأن استخدام ضمير الشأن يحسن مع إنَّ، وهذا لا ينفي منه - رحمه الله - أن: ﴿هُوَ﴾ في هذه الآية ضمير الشأن، وإن كان البعض ذهب إلى أنها ليست ضمير الشأن.

وكذلك تستخدم إن في التأكيد في مسائل الحوار والجدل، بأن يطلق سؤال ويراد إجابته، فتأتي الإجابة بالتأكيد بإن؛ لإقراره في نفس السائل والمجادل، وتشبيته في قلبهما، فتقع الجملة جواباً في المواضع التي تجيء فيها إن، كقوله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ إِنَّا مَكِنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٣، ٨٤]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٦٦]، فإن كان الكلام جواباً منكر حُشِدَ له أكثر من أداة واحدة للتوكيد.

وكذلك إن تستخدم للدلالة على أن المتكلم كان يظن أمراً فحدث خلافه، فيأتي بهذا التوكيد؛ ليرد على نفسه ظنه، وكأنه يريد لهذه النفس أن يستقر فيها هذا النبأ الجديد الذي لم تكن تتوقعه، بل تتوقع سواء، وكأنها تريد أن تخلي مكاناً من القلب قد شغل بخاطر لتحل فيه خاطراً جديداً.

وتأمل قوله تعالى حكايةً عن أم مريم: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٢٣٦]، فأم مريم - عليها السلام - كان الأمل يملأ قلبها في أن تلد ذكراً نذرته لله، ولطول ما شغلها هذا الأمل تجسم في خيالها، حتى صار كأنه حقيقة واقعة، فلما وضعت مريم، فوجئت، فأرادت أن تقر هذا الأمر الجديد في قلبها؛ حتى تروض نفسها عليه، وتستسلم لما كان. وانظر أيضاً قوله سبحانه في حكاية نوح #: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء: ١١٧]، فلم يكن نوح يتوقع أن يكذبه قومه وقد جاءهم من ربهم بالنور والهدى، فكان تكذيبهم صدمة له يريد أن يوطن عليها نفسه. وختاماً يذكر أن من خواص التوكيد بإن أنه أقوى من التوكيد باللام.

العبار النوي في القرآن الكريم

من أدوات التوكيد أيضاً التي تلحق بإن هي: إنما، وأما. أي: بزيادة ما على إن المؤكدة، والفرق ابتداءً بين الأسلوبين: أن دخول "ما" على "إن" يزيل اختصاصها بالجملة الاسمية، بمعنى: أنه إذا صارت "إن" "إنما"، أو صارت "أن" "أئنا"، لا يشترط أن تكون مؤكدة للجملة الاسمية، فيجوز توكيدها للجملة الفعلية كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٢٨]. يفرد الجرجاني أيضاً حديثاً عن إنما كأداة من أدوات التوكيد في النظم القرآني، فالأصل فيها أن تأتي في الأمور التي يدعى أنها من الوضوح بمكان كقوله ﷺ: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ١١ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لِيَتَحِمَلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ١٢ ﴾ ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٣] ألا ترى أنه من الوضوح بمكان مؤاخذه هؤلاء الأغنياء القادرين على المساهمة في الجهاد، ثم يستأذنون راضين بأن يكونوا مع الخوالم؟

واقراً أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ٢ ﴾ [الأنفال: ٢٢]، فواضح بين أن المؤمنين ليسوا سوى هؤلاء الذين تخاف قلوبهم إذا ذكروا الله ويزدادون إيماناً إذا تليت عليهم آياته، ويتوكلون على ربهم؟ ولأنها تستخدم في الأمور الواضحة جاء قوله تعالى حكايةً عن اليهود: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ١١ ﴾ [البقرة: ١١]. فقد ادَّعوا أن إصلاحهم أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، ولذا احتوى الرد عليهم فنوناً من التوكيد؛ إذ قال سبحانه: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ١٢ ﴾ [البقرة: ١٢] فكان التوكيد بـ"ألا" وبـ"إن" وبضمير الفصل. وكذلك حكى القرآن عنهم في موضع آخر فقال:

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤] فهم يدعون لشياطينهم أن استهزاءهم بالمؤمنين من الأمور التي لا مجال للريب فيها، ولا تكون مبعثاً لسوء ظن شياطينهم فيهم.

قد تستخدم إنما في موضع هو مجال للشك أو الإنكار كما قال ﷺ: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٣] فهم يخاطبون الرسول الذي ينكر، ولا ريب هذا الحكم، ولكنهم أتوا بتلك الصيغة كأنهم يدعون وضوح أنه مسحور، لا ينطق عن عقل واع مفكر. يقول الجرجاني: "ثم اعلم أنك إذا استقرت وجدتها أقوى ما تكون، وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يُراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، نحو أننا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٩] أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذم الكفار، أن يقال: إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذئ عقل، وإنكم إذا طمعتهم منهم في أن ينظروا ويتذكروا، كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الأبواب. كذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّحْشَهَا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النازعات: ٤٥]، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَّحْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ [فاطر: ١٨] المعنى على أن من لم تكن له هذه الحشية فهو كأنه ليس له أذن تسمع، وقلب يعقل، فالإنذار معه كلاً إنذار.

ويغلب على إنما في القرآن أن تكون بمثابة الجواب عن سؤال يقتضيه السياق قبلها صريحاً أو ضمناً، فيكثر في الصريح سبقتها بمادة القول كما في قوله ﷺ: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٧] هذا مثال للسؤال الصريح.

ومن السؤال الضمني قوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ مِّنْ يَّمْرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [٥٨] وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ [التوبة: ٥٨ - ٦٠].

ويقل في القرآن استخدام "أما" مفتوحة وسيلةً، ومن مثال اقتصار الوحي على وحدانية الله ﷻ باستخدام "أما" مفتوحة قوله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

رابعاً: من أساليب التوكيد في النظم القرآني استخدام النفي والاستثناء، وكما تعلمون أن إنما وأما والنفي والاستثناء يُدرس في باب البلاغة في باب القصر، والقصر صورة من صور تأكيد الكلام، فلذا عد العلماء إنما والنفي والاستثناء من أساليب التوكيد بالأداة في كلام العرب.

فالنفي والاستثناء هو أن يسبق الاستثناء بأداة نفي نحو: ما، أو لا، أو إن المخففه بالكسر، فمثال استخدام النفي والاستثناء لإثبات أن الله ﷻ وحده هو الذي يتصف بالوحدانية قوله ﷻ: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] وأحياناً تُستخدم لإثبات الحكم لموصوفات يُعتقد اتصافها بغير هذه الصفة، كما في قوله ﷻ: ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤٥] فليس الطعام المحرم هو ما ذكر في تلك الآية فحسب، بدليل أن المحرمات ذكرت أيضاً في سورة "المائدة"، وإنما ذكرت تلك المحرمات هنا في معرض الرد على من كان يعتقد جِلها.

وكذلك يستخدم "ما" و"إلا" لتأكيد ما يسمى بالقصر الإضافي، كقوله ﷻ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، فليس المراد هنا قصر محمد ﷺ على الرسالة فحسب، بحيث لا يتعداها إلى غيرها، بل المراد أن محمداً ﷺ مقصور على الرسالة لا يتعداها إلى الخلوص من الموت الذي استعظموا أن يلزم به، لذا قال ﷻ: ﴿ أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقد تتجسم الصفة من صفات الشيء حتى تطغى على من سواها، فيستخدم القرآن أسلوب النفي والاستثناء لإثبات ذلك، كما في قوله ﷻ: ﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الأنعام: ٣٢] فكأن الموصوف قد خلص لها، فلم يعد متصفاً بغيرها، فيصح قصره عليها، أي: أنها تتصف باللعب واللهو، مع أنه من المعلوم أن الحياة فيها من الأحزان والأشجان والآلام ما لا ينفك عنه عبد من العباد والجميع يتعرض له، فإنما ذكر المولى ﷻ: ﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ هذا على سبيل بيان أنها في حقيقتها لا تعدو عن هذين اللونين اللذين يطغيان على غيرهما مما يلزم بالعباد أو ينزل بهم.

ويستخدم القرآن "ما" و"إلا" لإثبات أن الحاكم واحد ﷻ ونفي أن يكون هناك حاكم غيره ﷻ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة: ١٧٣]. وعموماً، فاستخدام ما وإلا للتوكيد من أقوى الأدوات التي تؤدي لمعنى قصر شيء على شيء صفة على موصوف أو موصوف على صفة، كما تقسم في البلاغة، ولذا هي من أقوى الأدوات التي تستخدم في ذلك، فيكون استخدامها كثيراً في الأمور التي هي مجال للشك والإنكار. انظر إلى قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧] ألا ترى أن الظالمين يخاطبون بذلك قوماً آمنوا وينكرون دعوى سحر الرسول؟

وقوله سبحانه: ﴿ وَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [٦٠] ﴿ [الإسراء: ٦٠] فالتخويف يبعث في النفس الشك في أنهم ينصرفون عن كفرهم ، فكان ثمة مدعاة لتأكيد زيادة طغيانهم. وقوله تعالى: ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [٨٢] ﴿ [الإسراء: ٨٢] فهذا القرآن الذي هو شفاء ورحمة مجال لشك النفس في أنه خَسَارٌ للظالمين ، فكان المجال مجال تأكيد ذلك بما وإلا.

فإذا جاء أمر من الأمور المسلم بها بالنفي والإثبات ، فذلك لتقدير أمر صار به في حكم المشكوك فيه. كقوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [٢٢] ﴿ [فاطر: ٢٢ ، ٢٣] فالجيء هنا بالنفي والإثبات ؛ لأن النبي ﷺ قد خُوطِبَ خطابَ مَنْ يظن أنه يستطيع أن يحول قلوبَ المشركين عما هي عليه من الإباء والعناد ، ولا يعلم علم اليقين أن ليس في وسعه شيء أكثر من التحذير والإنذار ، فجرى الأسلوب كما يجري في خطاب الشاك ، فقيل: ﴿ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [٢٣] ﴿ . وكقوله ﷻ: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٨٨] ﴿ [الأعراف: ١٨٨] فهو يخاطب قوماً يرون في الرسول مخلوقاً قد يملك لنفسه الضر والنفع ، ويعلم الغيب ، فكان من المناسب وتلك حالهم أن يأتي من أدوات القصر بالنفي والاستثناء يزيل بها بذور الشك من نفوس سامعيه.

وقد يجيء النفي والاستثناء لبيان تأكيد الأمر في نفس قائله كما في قوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [٥٢] ﴿ [الإسراء: ٥٢] فهذا تعبير صادق لشعور المبعوثين يوم القيامة بأنه ما انقضَى عليهم منذ وفاتهم سوى أمد يسير. وكذلك قد يجيء للإجابة عن سؤال محقق أو مقدر لتأكيد هذا

الجواب كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَٰلِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۗ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

خامساً: من أساليب التوكيد استخدام لام التوكيد أو ما تسمى بلام الابتداء، فإذا ما دخلت إنَّ وانصرفت من اسمها إلى خبرها سميت باللام المزحلقة، وهذه اللام الذي يؤتى بها للتوكيد، وذلك كقوله سبحانه: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ۗ﴾ [الحشر: ١٣] وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٢، ١٣].

من ذلك: أنه إذا عبّر عن أمر يعز وجوده أو فعل يكثر وقوعه، جيء باللام تحقيقاً لذلك، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١] فانظر إلى هذه اللامات الثلاثة الواردة في خبر إنَّ، والأولى وردت في قول المنافقين، وإنما وردت مؤكدة؛ لأنهم أظهروا من أنفسهم التصديق برسالة النبي ﷺ وتلقوا له، وبالغوا في التملق وفي باطنهم خلافه، وأما ما ورد في الثانية والثالثة فصحيح لا ريب فيه، واللام في الثانية لتصديق رسالته، وفي الثالثة لتكذيب المنافقين فيما كانوا يظهرونه من التصديق الذين هم على خلافه.

وانظر أيضاً لقوله ﷺ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا عَلَىٰ يُونُسَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِيحُونَ ﴿١١﴾﴾ أَرْسِلْهُ مَعَا غَدَا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف: ١١، ١٢] فإنه إنما

جاء باللام ههنا؛ لزيادة التوكيد في إظهار المحبة ليوסף # والإشفاق عليه؛ ليبلغوا الغرض من أيهم في السماح لإرساله معهم.

وتأمل من لطيف استخدامها في سورة "الواقعة": ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ [٦٣] ﴿ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [٦٤] لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [٦٥]

[الواقعة: ٦٤ - ٦٥].

ثم قال ﷻ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَلْمَاءَ الَّتِي تَشْرَبُونَ ﴾ [٦٨] ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ [٦٩] لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [٧٠] [الواقعة: ٦٨ - ٧٠] فأكد في الأولى: ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ وترك التوكيد في الثانية: ﴿ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ وإنما جاءت كذلك؛ لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً في العرف والعادة، والموجود من الملح أكثر من الماء العذب، وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة، فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد، فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق.

أما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد، فلذلك قرن بلام التأكيد؛ زيادةً في تحقيق أمره، وتقدير إيجاده. وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ أَلْوَرِثُونَ ﴾ [الحجر: ٢٣] فاللام في ﴿ لَنَحْنُ ﴾ تؤكد هذا المعنى الذي يعلم من أن الله ﷻ له الإحياء والإماتة.

وانظر في قوله ﷻ: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥] فهذه اللام في: ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ ، ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ ﴾ ، ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ ، جاءت لتحقيق الأمر وإثباته في نفوس المؤمنين ، وأنه كائن لا محالة. وكذلك انظر في قوله سبحانه: ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا ﴾ [يوسف: ٨] فاللام في: ﴿ لِيُوسُفُ ﴾ لام الابتداء ، وأفادت تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها ، أي: أن زيادة حبه إياهما أمر ثابت لا مرأى فيه.

تابع: التوكيد في النظم القرآني - التكرار في القرآن الكريم

عناصر الدرس

- العنصر الأول : بعض أدوات وأساليب التوكيد المستخدمة في
النظم القرآني ٣٥١
- العنصر الثاني : مسألة التكرير ٣٥٨

بعض أدوات وأساليب التوكيد المستخدمة في النظم القرآني

سادساً: من أدوات التوكيد المستخدمة في النظم القرآني الجملة الاسمية :

فإنه من المعلوم أن الفعل يدل على التجدد والحدوث، أما الاسم فيدل على الثبوت والدوام، ومن ثم كان التعبير بالجملة الاسمية محل الفعلية صورة من صور التوكيد المستخدمة في النظم القرآني. فلذا اهتم العلماء ببيان ذلك على أنه من صور التوكيد، وإن كان البعض لا يرى ذلك. يقول أستاذنا الدكتور لاشين: "وإذا كان وضع الجملة الاسمية على إفادة الثبوت، ووضع الجملة الفعلية على إفادة التجدد، فإن الجملة الاسمية تدل على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية؛ ولهذا ذهب بعضهم إلى أن الجملة الاسمية تفيد تأكيد المعنى، وقد تؤثر الجملة الاسمية من أجل هذا في بعض المقامات على الجملة الفعلية كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤] فالمنافقون خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية: ﴿ءَامَنَّا﴾؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأحدثوه خوفاً ومدارة، وحينما خاطبوا شياطينهم كانت الجملة الاسمية المحققة بأنَّ المشددة؛ لأنهم في مخاطبة إخوانهم ثابتون على الكفر، ويخبرون به عن صدقٍ ورغبةٍ.

وقوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: ٦٩]؛ إذ أصل الأول: نسلم سلاماً، وأصل الثاني: سلام عليكم، أي الجملة الأولى فعلية قالوا: نسلم سلاماً، فأجاب إبراهيم # : سلام عليكم، كأن إبراهيم # أراد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به؛ أخذاً بأدب

العبار النوي في القرآن الكريم

الله - تعالى - في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَةٍ فَمَحْيُوهَا أَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦ ﴾ [النساء: ٨٦] فاختلف سلامهم عن سلامه - عليه أفضل الصلاة والسلام. وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّعِينِينَ ۝٥٥ ﴾ [الأنبياء: ٥٥] فقوم إبراهيم # يقولون له: أحدثت عندنا تعاطي الحق فيما نسمعه منك؟ أم اللعب وأحوال الصبا مستمرة عليك؟ وفي قوله ﷻ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ ﴾ [البقرة: ٨] فقد أجاب الله - تعالى - عن قولهم: ﴿ ءَأَمَّنَّا ﴾ بقوله: ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لإخراج ذواتهم من جنس المؤمنين؛ مبالغة في تكذيبهم، ولهذا أطلق قوله: ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وأكد نفيه بالباء".

وهذا الذي ذكره الدكتور لاشين مأخوذ من كلام ابن الأثير في (المثل السائر) عندما بين أنه يُعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر بضرب من التأكيد والمبالغة، أي يعدل عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية لهذا الغرض، ومثّل بقولهم: قام زيد، وإن زيدا قائم، فقولنا: قام زيد، معناه: الإخبار عن زيد بالقيام، وقولنا: إن زيدا قائم، معناه: الإخبار عن زيد بالقيام أيضاً، إلا أن في الثاني زيادة ليست في الأول، وهي توكيده بأن المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها، وإذا زيد في خبرها اللام فقليل: إن زيدا لقائم، كان أكثر توكيداً في الإخبار بقيامه. وهذا المثال يُقاس عليه غيره. وهذا ما ذكر من استشهادهم بمجيء الجملة الاسمية كأداة من أدوات التوكيد، وهو معروف فيما يستدلون به وبما يذكره النحاة في التفرقة بين: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ١٨] بالرفع على أن الجملة اسمية، وبين ما قرئ في الشواذ: "فصبراً جميلاً" بالنصب على أن الجملة اسمية، بأن هناك فرقاً، وهو التوكيد باستخدام الجملة الاسمية، وكون المصدر مرفوعاً.

سابعاً: من أساليب التوكيد أيضاً القسم؛ فقد لجأ القرآن إلى القسم متبعاً النهج العربي في توكيد الأخبار به؛ لتستقر في النفس، ويتزعزع فيها ما يخالفها، وإذا كان القسم لا ينجح أحياناً في حمل المخاطب على التصديق، فإنه كثيراً ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة، ويدفع إلى الشك فيها، ويبعث المرء على التفكير القوي فيما ورد القسم من أجله.

فالناظر في كتاب الله يجد المولى ﷺ كثيراً ما يقسم بذاته - جل في علاه - وتصدير ذلك بلفظ "رب" ولكن ذكره حيناً يكون مضافاً إلى السماء والأرض، كقوله سبحانه: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ [الذاريات: ٢٣] لما في هذه الإضافة من الإشارة إلى خضوع السماء والأرض لأمره، وفي ذلك تعظيم لشأنه، وإجاءً بأن من كان هذا أمره لا يزوج باسمه إلا فيما هو حق لا مريّة فيه.

وحيثما آخر يضاف لفظ "الرب" إلى المشرق والمغرب، كقوله سبحانه: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] لما توحى به هذه الإضافة من القدرة البالغة التي تسخر هذا المخلوق الهائل وهو الشمس، فيشرق ويغرب في دقة وإحكام. وحيثما آخر يضاف إلى لفظ الرسول، كقوله سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨] وكأنه بذلك يوحي بأن أرباب المشركين ليست جديرة بأن يقسم بها، أو تكون محل إجلال وتقدير.

والقرآن يستخدم أيضاً في القسم ما جرت عادتهم في استخدامه كالحلف بحياة المخاطب، فأقسم سبحانه بحياة رسولنا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] لتأكيد تشريف حياة الرسول وتعظيم أمره ﷺ في أعين السامعين. ومن اللطائف أن المولى ﷺ أقسم بذات نبينا الكريم، وأقسم بمكان ميلاده: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] وأقسم أيضاً

بالزمان الذي بُعث فيه على قول بعض أهل التفسير عندما تعرضوا لقوله سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١، ٢].

وكذلك إذا أقسم القرآن بمصنوعات الله ﷻ ومخلوقاته، كان في ذلك التأكيد على تنبيه المستمع إلى ما فيها من روعة تدفع إلى التفكير في خالقها: ﴿وَالشَّمْسِ ۝١ وَضَحِيحِهَا ۝٢ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝٣ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝٤ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٥ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَدَّلَهَا ۝٦ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ۝٧ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٨ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٩ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّهَا ۝١٠ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّهَا ۝١١﴾ [الشمس: ١- ١٠].

أولاً ترى هذا القسم مثيراً في النفس أقوى إحساسات الإعجاب بمدبر هذا الكون ومنظم شئونه هذا التنظيم المحكم الدقيق؟ أوليست هذه الشمس التي تبلغ أوج مجدها وجمالها عند الضحى، وهذا القمر يتلوها إذا غابت وكأنه يقوم مقامها في حراسة الكون وإبهاجه، وهذا النهار يُبرز هذا الكوكب الوهاج، ثم لا يلبث الليل أن يحو سنّاه، وهذه السماء وقد أحكم خلقها، واتسقت في عين رائيها كالبناء المحكم الدقيق، وهذه الأرض وقد انبسطت في سعة، وهذه النفس الإنسانية العجيبة الخَلقة التي يتسرب إليها الهدى والضلال في دقة وخفاء، أليس في كل ذلك ما يبعث النفس إلى التفكير العميق في خالقها؟ وأن هذا الخالق لا يذكر هو وما خَلَقَ محاطاً بهذا الإجلال إلا في مقام الحق والصدق؟!

وهكذا استخدم القسم في القرآن الكريم كمظهر من مظاهر قدرة الله ﷻ وعظمته، وصدق ما جاء به هذا الدين الذي نزل القرآن؛ لتثبيت أسسه وقواعده، فيقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ [الصفات: ٤] ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ ۝٥ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ [الذاريات: ٥]، ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ [الواقعة: ٧٧] ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ٢] كل ذلك في جواب ما بُدئت به هذه السور

الكريمة من قسم. وأحياناً يكون الجواب مؤكداً لأحوال الإنسان: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨ ﴾ [العاديات: ٦ - ٨]. ومن لطائف القسم التي أشار إليها المفسرون قوله ﷺ: ﴿ وَالضُّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ ﴾ [الضحى: ١ - ٣] فيقول: "تأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل المقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربُّه!! فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه عنه - صلوات الله وسلامه عليه".

ثامناً: من الأساليب التي استخدمت في التوكيد أيضاً استخدام ضمير الفصل، أو ما يسمى عند الكوفيين بضمير العماد، وهو الضمير الذي يفصل بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله المبتدأ والخبر. مثال الفصل بين المبتدأ والخبر: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٥٧ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ومثال الفصل بين ما أصله المبتدأ والخبر: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ٩٢ ﴾ [الأعراف: ٩٢] وقوله ﷺ: ﴿ كُنْتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ٢٥ ﴾ [المائدة: ١١٧] وقوله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ٣٥ ﴾ [ص: ٣٥] وقوله ﷺ: ﴿ وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ٧٧ ﴾ [الصفات: ٧٧] فتلاحظ أن الضمير في هذه الآيات وقع بين اسم إنَّ وخبرها، وكلاهما في الأصل مبتدأ وخبر، واسم كان وخبرها، وكذلك أيضاً أصلهما مبتدأ وخبر، ومفعولي جعل وهي من الأفعال الناصبة لمفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، فهذا الضمير الذي يؤتى به للفصل، أي: لا يشغل محلاً إعرابياً في الجملة، فيكون ما قبله وما بعده يعربان على أنهما ركناً الجملة، أو ما حل محل الركنين في باب ظن وأخواتها.

العبار النوي في القرآن الكريم

انظر إلى ضمير الفصل في قوله ﷻ: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَتَمُودًا مِمَّا أَبَقَى ﴿٥١﴾ وَفَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْنَى ﴿٥٢﴾ ﴿ النجم: ٤٣ - ٥٢ ﴾ وانظر إلى الفرق بين استخدامه في مواضع، وتركه في مواضع أخرى، فاستخدم في: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٤٩﴾ ، و ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْنَى ﴿٥٢﴾ ولم يستخدم في: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ ، فتجد الضمير قد استخدم في الأفعال التي هي مظنة الاشتراك، كما ترى ذلك في جملة الإضحاك والإبكاء، والإماتة والإحياء، والإغناء والإقناء، أما حيث لا تدعى الشركة فلا حاجة إلى هذا الضمير كما ترى في جمل خلق الزوجين، والنشأة الأخرى، وإهلاك عادا الأولى.

فقد يظن المرء أن له يداً في إضحاك الآخرين وإبكائهم، أو أنه يملك لأناس الحياة والموت كما قال الطاغية لإبراهيم #: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أما هذه المسائل التي لا تحتاج إلى تأكيد؛ لأن الجميع يسلم بها، لم يقع فيها ضمير الفصل. كذلك لو نظرت في قوله ﷻ: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٢] فترى ضمير الفصل أتى حيث يتوهم في الفعل شركة كما في الهداية والإطعام والشفاء، أما حيث لا تتوهم تلك الشركة، فلا يأتي ضمير الفصل كما في الخلق والإماتة

والإحياء. أما ما يتعلق بضمير الفصل من شروطه وأحكامه وأنواعه، فهذا باب ينصرف إلى النحو أكثر منه إلى البلاغة.

تاسعاً: من أساليب التوكيد أيضاً بالأداة استخدام الحروف الزائدة؛ والحروف الزائدة هي الحروف التي لا تشغل محلاً إعرابياً، أو لا تؤثر في الإعراب عند النحاة نماذج من استخدام هذه الحروف للتوكيد: هناك فرق بين اصطحاب خبر ليس بالباء وعدم اصطحابه بها، وكذلك ما يعمل عمل ليس من "ما" الحجازية. فانظر إلى قوله ﷺ: ﴿ وَمَا اللَّهُ يُغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٤] وقوله ﷺ: ﴿ وَلَيْسَ بِصَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٠] ترى هذه الباء قد نفت كل صلة تربط بين الله والغفلة في الآية الأولى، وبين السحر والضير في الآية الثانية، فلا صحبة بينهما ولا تلاقٍ.

ومن الأمثلة المشهورة لاستخدام هذه الحروف الزائدة للتوكيد استخدام "من" الجارة، فشتان بين أن تقول لأحد مثلاً: ما معي مال، وبين أن تقول له: ما معي من مال. فإنك إذا قلت له: ما معي مال، ربما توهم أن معك مالاً ولكنه قليل، فيطالبك بشيء من المال أيضاً، فإذا ما قلت له: ما معي من مال، فقد أكدت النفسي، وأنه ليس معك أي شيء تستطيع أن تعطيه إياه. انظر إلى قوله ﷺ: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [لق: ٣٨] وكيف يؤدي المعنى للتوكيد أقوى من: وما مسنا لغوب. وكذلك قوله ﷺ: ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة: ١١٩]، وفرق بين: ما جاءنا بشير ولا نذير. و﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٢٣٨] وفرق بين: ما علمت لكم إلهاً غيري. وهي كثيرة في كتاب الله ﷺ. وهناك أدوات أخرى تستخدم كـ لام القسم، وألا الاستفتاحية، وهاء التنبية، وتوكيد التشبيه بكأن، واستخدام ضمير الشأن أيضاً للتوكيد، واستخدام قد، واستخدام السين وسوف لتوكيد المضارع، واستخدام نوني التوكيد الخفيفة والثقيلة. كل ذلك من الأدوات التي تُستخدم للتوكيد.

مسألة التكرير

إن التكرير ضرب من ضروب الإطناب، فهو تكرار اللفظ مردداً لغرض بلاغي يريد المتكلم، هذا التكرير يخدم النص، ويخدم الأسلوب، ويخدم الكاتب فيما يريد أن يعبر عنه، وهذا التكرير بالنسبة لكاتب الله ﷻ لبس على بعض ضعاف النفوس أو لبس على بعض الملاحدة الذين يكدون لدين الإسلام الطعن في كتاب الله ﷻ عن طريق هذه الخاصية في كتاب الله، فقالوا: إن هناك تكراراً لا فائدة فيه في بعض آيات القرآن الكريم - تعالى الله ﷻ وكلامه عما يقولون علواً كبيراً.

فنحن من خلال دراستنا للتكرير سيتضح لنا عظم هذه الظاهرة في بيان إعجاز النظم القرآني، واختلافه عن غيره من سائر المنظوم.

اهتم بهذه الظاهرة العلماء وأول من أشار إليها ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) ثم بعد ذلك أفردها ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) وتناولها بعض البلاغيين في كتبهم، ولكنهم لم يهتموا بجانب ذكر التكرار في القرآن الكريم، اهتموا بإظهاره في الشعر والمنظوم غير القرآن، كما فعل ابن رشيق في كتابه (العمدة).

التكرير في القرآن الكريم: "اعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره، فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه، فانظر إلى سوابقه ولو احقه؛ لتكشف لك الفائدة منه".

هذه العبارة ذكرها ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) . التكرير يقسمه العلماء إلى نوعين :

النوع الأول: تكرير في اللفظ والمعنى .

النوع الثاني: تكرير في اللفظ دون المعنى .

النوع الأول: التكرير في اللفظ والمعنى :

ينقسم إلى قسمين : مفيد ، وغير مفيد ، وعندما يقول علماء البلاغة : مفيد ، فإنما لا يعنون به الإفادة عند النحويين من وجود المسند والمسند إليه ، أو أن الكلام يحسن السكوت عليه ، وإنما يريدون بالمفيد من التكرير أن يأتي في الكلام ؛ تأكيداً له وتشبيهاً من أمره ، وإنما يفعل ذلك ؛ للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك ؛ إما مبالغة في مدحه أو في ذمه أو غير ذلك . أي : إنه يفيد الغرض الذي تتحدث فيه ، وغير المفيد الذي يأتي في الكلام عياً وخطلاً من غير حاجة إليه ، وبذا يتبين لك ابتداءً أن غير المفيد لا سبيل لتواجده في كتاب الله ﷻ .

فالتكرار في اللفظ والمعنى ينقسم المفيد منه إلى فرعين :

الضرب الأول: هو أن يكون التكرير في اللفظ والمعنى دالاً على معنى واحد ، وأن يكون المقصود به غرضين مختلفين ، مثال ذلك : قول الله ﷻ : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۗ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ [الأنفال: ٧ ، ٨] هذا تكرير في اللفظ والمعنى ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ ، ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ ، وإنما جيء به ههنا ؛ لاختلاف المراد . وذلك أن الأول ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ تمييز بين الإرادتين ، والثاني : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ بيان

لغرضه فيما فعلَ من اختيار ذات الشوكة على غيرها، وأنه ما نصرهم وخذل أولئك إلا لهذا الغرض.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۗ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۗ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۗ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۗ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ ﴾ [الزمر: ١١ - ١٥] فكرر ﷻ: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۗ ﴾ وقوله ﷻ: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۗ ﴾ فالمراد به غرضان مختلفان، وذلك أن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة له والإخلاص في دينه، والثاني إخبار بأنه ﷻ يخص الله وحده دون غيره بعبادته، مخلصاً له دينه، ولدلاته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة في الثاني وأخره في الأول؛ لأن الكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده، وثانياً فيمن يفعل الفعل من أجله ﷻ. ولذلك رتب عليه: ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ ﴾.

ومما يجري من هذا النوع أيضاً فاتحة الكتاب: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ ١ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ٢ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ ٣ ۝ مَلِكٍ يَوْمِ الدِّينِ ۝ ٤ ۝ ﴾ [الفاتحة: ١ - ٤] فكرر: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ ﴾ مرتين، والفائدة في ذلك أن الأول يتعلق بأمر الدنيا، والثاني يتعلق بأمر الآخرة، فما يتعلق بأمر الدنيا يرجع إلى خلق العالمين في كونه خلقاً كلًّا منهم على أكمل صفة، وأعطاه جميع ما يحتاج إليه، حتى البقعة والذباب، وقد يرجع إلى غير الخلق كإدراك الأرزاق وغيرها. أما ما يتعلق بأمر الآخرة فهو إشارة إلى الرحمة الثانية في يوم القيامة، الذي هو يوم الدين.

الضرب الثاني: أن يكون التكرير في اللفظ والمعنى دالاً على معنى واحد، والمراد به غرض واحد. كقوله تعالى: ﴿ فَعُقِلَ كَيْفَ قَدَرٍ ۗ ۝ ١٩ ۗ ثُمَّ قُفِلَ كَيْفَ قَدَرٍ ۗ ۝ ٢٠ ۗ ﴾ [المدثر: ١٩، ٢٠] فالتكرير دلالة التعجب من تقديره وإصابته الغرض، وهذا - كما يقال: قتله الله

ما أشجعه ، أو ما أشعره . ونظيره أيضاً قول الله ﷻ : ﴿ **أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ** ﴿٣٤﴾ ثُمَّ **أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ** ﴿٣٥﴾ ﴾ [القيامة: ٣٤ ، ٣٥] فالغرض واحد هو بيان الهلاك ، ومن أجل ذلك نقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ لأن قولنا : لا إله إلا الله مثل قولنا : وحده لا شريك له ، وهما في المعنى سواء ، وإنما كرر القول لتقرير المعنى وإثباته ؛ وذلك لأن من الناس من يخالف في ذلك كالنصارى وغيرهم .

وانظر إلى قوله ﷻ : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَىٰ الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ** ۗ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ **وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْسِئِينَ** ﴿٤٩﴾ ﴾ [الروم: ٤٨ ، ٤٩] فقوله : ﴿ **مِّن قَبْلِهِ** ﴾ بعد قوله : ﴿ **مِّن قَبْلِ** ﴾ فيه دلالة على أن عهدهم بالمطر قد بُعد وتناول ، فاستحکم بأسهم ، وتنادى إبلاسهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك . وانظر أيضاً قوله تعالى : ﴿ **فَلْيُؤْمِنُوا بِالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ** ﴾ [التوبة: ٢٩] فقوله : ﴿ **لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ** ﴾ يقوم مقام قوله : ﴿ **وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ** ﴾ ؛ لأن من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر لا يدين دین الحق ، وإنما كرر ههنا ؛ للخطب على المأمور بقتالهم ، والتسجيل عليهم بالدم ، ورجمهم بالعظام ؛ ليكون ذلك ادعى لوجوب قتالهم وحرهم .

وانظر قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ** ۗ **إِذْ كُنَّا تَرَابًا** ۗ **إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ۗ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ** ۗ **فِي آعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴿٥٠﴾ ﴾ [الرعد: ٥٠] فتكرير لفظة : ﴿ **أُولَٰئِكَ** ﴾ من هذا الباب الذي أشرنا إليه لمكان شدة النكير ، وإغلاظ العقاب ؛ بسبب إنكارهم البعث .

ومن هذا النوع الذي أشاروا إليه أن يكون المعنى مضافاً إلى نفسه مع اختلاف اللفظ، كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [سبأ: ٥٥] فالرجز هو العذاب، وهذا على من يرى مسألة الترادف، والصحيح أن لا بد أن يكون هناك فرق بين العذاب وبين الرجز.

ومما ذكره في هذا الباب من التكرير في اللفظ والمعنى على غرض واحد قول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [يوسف: ٣٨] ﴿ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩] فإنه إنما كرر نداء قومه ههنا؛ لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ من سينة الغفلة، ولأنهم قومه وعشيرته، وهم فيما يوبقهم من الضلال، وهو يعلم وجه خلاصهم، ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحزن لهم، ويتلطف بهم، ويستدعي بذلك أن لا يتهموه، فإن سرورهم سروره، وغمهم غمه، وأن ينزلوا على نصيحتهم لهم. وهذا من التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز، وأشد موقعاً من الاختصار.

ومما يجب أن يشار إليه أن هناك بعض الآيات ظن البعض أن فيها تكريراً وليس فيها تكرير، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٩] وقوله ﷻ: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فهاتان الآيتان يُظن أنهما من باب التكرير وليستا كذلك. فإنهما تخرجان عن حكم التكرير؛ وذلك لإطالة الفصل في الكلام بين "إن" الأولى والثانية، فكانت الأولى تفتقر إلى تمام لا يفهم الكلام إلا به، فالأولى في باب الفصاحة أن يُعاد لفظ الأولى مرة ثانية؛ ليكون مقارناً لتمام الفصل، كي لا يجيء الكلام منشوراً لا

سيما في إنَّ وأخواتها، تأمل قول الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنَّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: ٤] فلما قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ ثم طال الفصل كان الأحسن أن يعيد لفظ الرؤية، فيقول: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ فليس هذا من التكرير وإنما هو من حسن إعادة اللفظ؛ لأجل الفصل.

الضرب الثاني من التكرير في اللفظ والمعنى - وهو غير المفيد - قلنا: إن ذلك لا مكان له في القرآن، وإنما يلتمسوه من أقوال الشعراء كقول أبي نواس: أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ❖ ويوماً له يوم الترحل خامسٌ وقول الآخر:

وقلقتُ بالهم الذي قللَ الحشأ ❖ قلاقل عيسى كلهن قلاقل
فهذا من التكرير الذي لا فائدة منه، ولا معنى لذكره، ويُعاب الشاعر به.

النوع الثاني: التكرير في المعنى دون اللفظ: وينقسم أيضاً إلى قسمين؛ مفيد وغير مفيد.

أولاً: المفيد نوعان:

الضرب الأول: إذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين مختلفين، وذلك كما في الحديث في قول حاطب بن أبي بلتعة لرسول الله ﷺ: "وما فعلت ذلك كفرةً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام". فيظن البعض أن ذلك تكرير لا فائدة فيه، فإن الكفر والارتداد عن الدين سواء، وكذلك الرضا بالكفر بعد الإسلام، والأمر ليس كذلك، فالذي يدل عليه اللفظ هو: أني لم أفعل ذلك وأنا كافر، في الأولى عندما قال: "ما فعلتُ ذلك كفرةً" وفي الثانية: "ولا

العبار النوي في القرآن الكريم

مرتداً وفي الثالثة: أنه لا يرضى بالكفر على جانب الإسلام. وذلك حسن في مكانه، واقع في موقع يبين فصاحة المتحدث.

ومن شواهد في كتاب الله ﷻ قول الله ﷻ: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فإن الأمر بالمعروف خير وليس كل خير أمراً بالمعروف، وذلك أن الخير أنواع كثيرة من جملتها الأمر بالمعروف، ففائدة التكرير هنا أنه خصص أو ذكر الخاص بعد العام؛ للتنبية على فضله كما قال سبحانه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فإن الجبال داخلية في جملة الأرض، لكن لفظ الأرض عام والجبال خاص، وفائدته هنا تعظيم شأن الأمانة المشار إليها، وتفضيم أمرها.

الضرب الثاني: من التكرير في المعنى دون اللفظ: أن يدل التكرير على معنى واحد لا غير، كقوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدْوَالَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤] فإنما كرر العفو والصفح والمغفرة والجميع بمعنى واحد؛ للزيادة في تحسين عفو الوالد عن ولده، والزوج عن زوجه.

وضابطه الذي ينظر إليه هو الغرض المقصود من الكلام، وهذا الموضع يكون التكرير فيه أوجز من لمحة الإيجاز، وأولى بالاستعمال. انظر لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] فإن البث والحزن بمعنى واحد وإنما كرره هنا؛ لشدة الخطب النازل به، وتكاثر سهامه النافذة في قلبه، وكما سبق أن أشرنا لقوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ

وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴿١٩٦﴾ [البقرة: ١٩٦] فاستخدام كلمة: ﴿كَامِلَةٌ﴾ بعد عد الثلاثة والسبعة؛ لاستكمال صفات هذه الأيام المذكورة، ولذا لم يقل المولى ﷺ: تامة؛ للفرق بين التمام والكمال. وكذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [المتحنة: ٤] فإن البغضاء والعداوة بمعنى واحد، وإنما حسن إيرادهما معاً في معرض واحد؛ لتأكيد البراءة بين إبراهيم ﷺ والذين آمنوا به، وبين الكفار من قومهم حيث لم يؤمنوا بالله وحده.

وهذا الضرب معروف وشواهد كثيرة.

ثانياً: غير مفيد: فلا سبيل للاستشهاد به في القرآن الكريم، وإنما شواهد من كلام الشعراء، كقول أبي تمام:

قسَمَ الزمانُ ربوعها بين الصبا ❖ وقبولها ودبورها أثلاً
فإن الصبا هي القبول.

تابع: التكرار في القرآن الكريم

عناصر الدرس

- العنصر الأول : نماذج تطبيقية على التكرار في القرآن الكريم ٣٦٩
- العنصر الثاني : هل هناك زيادة في القرآن؟ ٣٧٩

نماذج تطبيقية على التكرار في القرآن الكريم

سنبدأ درسنا هذا بعرض نماذج تطبيقية على هذه الظاهرة التي هي من دلائل الإعجاز اللغوي في القرآن، هذه الظاهرة تشمل صور عديدة كتكرير الحرف، وتكرير الاسم، وتكرير الفعل، وتكرير الجملة، وتكرير الآية كاملة، وتكرير الموضوع أو القصة في مواضع شتى في كتاب الله ﷻ مع تغيير في بعض الألفاظ من: حذف بعضها، أو تقديم، أو تأخير... أو غير ذلك من ظواهر أخرى تدخل على القصة المذكورة، ولكن القصة عرضت في مواضع شتى، ومن ثم كان ذلك تكراراً لها، ولعرضها في كتاب الله ﷻ فتوقف مع نماذج لكل نوع من هذه الأنواع، ونعرض أقوال العلماء في بيانها.

كتب التفسير مملوءة ببيان هذه الأسرار التي يحويها التكرير في القرآن الكريم، وخاصة كتب التفسير التي تهتم بالجانب البلاغي ك(الكشاف) للزمخشري و(روح المعاني) للألوسي، وأخيراً (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور علامة تونس.

وأيضاً هناك كتب صنفت في بيان هذه الظاهرة، والاهتمام بها، وبما هو على شاكلتها من مواضع في القرآن تستدعي للانتباه لها، مثل كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) الذي نستعرض منه هذه النماذج، وليس اختيارنا لهذا الكتاب تفضيلاً له عن سائر الكتب، وإنما هو كتاب يخدم الغرض الذي نتحدث فيه بعرض النماذج، وعرض رؤية لما هو تحت هذه الظاهرة، وأذكرك أيضاً أن ذلك اجتهاد من العلماء، ومحاولة منهم لكشف أسرار بلاغة القرآن الكريم هذا الاجتهاد يقبل وي طرح إذا ما كان مخالفاً لبعض مبادئ الدين، ولظواهر التفسير

والقواعد التي وضعها العلماء لتوجيه كلام الله ﷻ فكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا رسول الله ﷺ ؛ لأنه مؤيد بالوحي معصوم من ربه يخبر بخبر الله ﷻ.

تعرض الخطيب الإسكافي لتكرار كلمة "الناس" في سورة الناس من قول الله ﷻ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾ لسورة الناس: ١ - ٦ ، يقول: "للسائل أن يسأل عن تكرير الناس في فواصل هذه السورة في خمسة مواضع، وهي ست آيات قد ختمت أواخر خمس منها بالناس، وواحدة بالخناس، والجواب عن ذلك أن يقال: إنما اتصف الله - تعالى - أولاً ﴿ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ ﴾ ثم ﴿ بِمَلِكِ النَّاسِ ۝٢ ﴾ ثم ﴿ بِإِلَهِ النَّاسِ ۝٣ ﴾ لحكم دعت إلى ذلك، وأوجبت تقديم الأول وتعقبه بالثاني والثالث على الترتيب الذي جاء؛ لأن رب الشيء هو القائم بإصلاحه وتديبر أمره، فنبه بتقدمه على ما ترتب من نعمه على الإنسان لما أنشأ ورباه، وهذه أولى أحواله.

والثانية: إنعامه عليه بالعقل الذي يثبت عليه ملكه له، فيعلم أنه عبد مملوك وأن الذي بلغ به تلك الحال من حد الطفولة هو الذي يملكه وأمثاله، فجعل الوصف الثاني "ملك الناس"، ولما كان بعد ذلك تكليف العبادات التي هي حق الله - تعالى - على من عرفه نفسه أنه عبد مملوك، وعرفه أنه عبيد خالقه وتلزمه طاعته ليلتزم غاية التذلل لمن هو أكبر الإنعام والتطول جعل الوصف الثالث "إله الناس" فصار الناس الذين أضيف إليهم رب كأنهم غير الذين أضيف إليهم ملك، والذين أضيف إليهم ملك غير الذين أضيف إليهم إله، وإذا أريد بالثاني غير الأول لم يكن تكراراً، فترتيب الصفات ينبه على أن المراد بالناس ذوي الأحوال

المختلفة في الصغر والترعرع والبلوغ، فيسلم على ذلك من التكرار ويتضمن هذا المعنى اللطيف الذي دل عليه ترتيب الصفات، وقوله: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۗ﴾ فالمراد بالناس الأول الأبرار، وبالناس الثاني الأشرار، فكان المعنى: الذي يوسوس في صدور الأخيار من الجن وأشرار الناس، فقد صار المعنى بكل واحد على صفة غير الصفة المعنية بالآخر، فكأنه غيره وإن كان الجنس قد جمع هذا كله".

هذا ما اجتهد الخطيب الإسكافي في بيانه في تكرار الاسم في ختام هذه السورة، وهو كلام يقبل؛ لأنه تأمل لكلام الله ﷻ وبالصفات التي أضافها المولى ﷻ إلى اللفظ المكرر من أنه ﷻ الرب والملك والإله، وكذلك ما ختم في نهاية السورة ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۗ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۗ﴾ فكلمة ﴿النَّاسِ ۗ﴾ الأولى تختلف عن الثانية، ومن ثم لم يكن ذلك من سبيل التكرار لتغير المعنى المراد بكل في المواضع التي ذكرت فيها لفظة ﴿النَّاسِ ۗ﴾. نجد أيضاً نموذجاً رائعاً تحدث فيه عن تكرار الآية في سورة الرحمن في قول الله ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ آءِ آتٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۗ﴾ [الرحمن: ١٣] هذه الآية كررت إحدى وثلاثين مرة في السورة الكريمة شغلت أهل الفصاحة والبلاغة وتحدثوا عنها وبيّنوا أسرارها.

وهذا اجتهاد واحد منهم يقول: للسائل أن يسأل عن تكرار هذه الآية، وعن فائدتها. والجواب أن يقال: نبه الله - تعالى - على ما خلق من نعم الدنيا المختلفة في سبع منها، وأفرد سبعا للترهيب والإنذار والتخويف بالنار، وفصل بين السبع الأولى والسبع الأخر بواحدة تلت آية سوّى فيها بين الناس كلهم، فيما كتب الله من الفناء عليهم حيث يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۗ﴾ [الرحمن: ٢٦]، أي

من على الأرض ، وهذه الفاصلة للتسوية بين الملائكة والإنس والجن في الافتقار إلى الله ﷻ وإلى المسألة وإلى الإشفاق من خشية الله وهو قوله : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وإنما كانت الأولى سبعا ؛ لأن أمهات النعم خلقها الله - تعالى - سبعا سبعا كالسماوات والأرضين ، ومعظم الكواكب وكانت الثانية سبعا ؛ لأنها على قسمة أبواب جهنم لما كانت في ذكرها ، وبعد هذه السبع ثمانية في وصف الجنات وأهلها على قسمة أبوابها ، وثمانية أخرى بعدها للجنات اللتين هما دون الجنتين الأوليين ؛ لأنه قال تعالى في مفتح الثمانية المقدمة : ﴿ وَلَمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ [الرحمن: ٤٦] ، فلما استكملت هذه الآية ثماني مرات قال : ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴾ [الرحمن: ٦٢] ، فمضت ثمانية في وصف الجنان وأهلها تالية للثمانية المقدمة ، فكان الجميع إحدى وثلاثين مرة.

كذلك أيضا يعرض أحدهم لتكرار الحرف في قوله ﷻ : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ حَافِيًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [القصص: ١٨] ، ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَى اأَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ [القصص: ١٨ ، ١٩] ، فقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ ﴾ بتكرير أن مرتين دليل على أن موسى # لم تكن مسارحته إلى قتل الثاني كما كانت مسارحته إلى قتل الأول بل كان منه إبطاء في بسط يده إليه فعبّر القرآن عن ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ ﴾ .

ومن الجميل أن نعرض نموذجاً لهذه الفروق التي ذكرت في القصص القرآني والنماذج كثيرة جداً في هذا الكتاب القيم. ومن القصص التي شغلت مواضع عديدة في كتاب الله ﷻ قصة موسى # مع فرعون عليه سحائب اللعائن.

يعرض الإسكافي لبعض هذه المواضع في عرضه لآيات سورة "الأعراف" موازنة
بغيرها من السور التي تعرضت للقصة نفسها، فيقول: "قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ
السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣]،
وقال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١]،
للشعراء: [٤١]، للسائل أن يسأل فيقول: كيف اختلفت الآيتان، وكيف جاز:
﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ وحق الكلام أن يكون في ﴿ قَالُوا ﴾ واو أو فاء
نحو: جاء السحرة فرعون فقالوا: أئن لنا لأجرًا أو وقالوا: أئن لنا لأجرًا.

والجواب أن يقال: لما تقدم في سورة "الشعراء" ما شرحه أكثر، وما في سورة
"الأعراف" أوجز وأخصر كان قوله في "الأعراف": ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾
بمعنى ما كان بإزائه في سورة "الشعراء" ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾ فلم يحتج في جواب
لما إلى فاء، ولا إلى واو، وكذلك هنا في سورة "الأعراف" لما قصد هذا المعنى دل
بحدف العاطف على هذا القصد، فكأنه قال: فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا:
أئن لنا لأجرًا. طبعاً هو يشير لما تقدم في سورة "الشعراء" إشارة إلى نزول الآيات،
فالشعراء نزلت قبل الأعراف، لا على ترتيب السور المعلوم لدينا الآن.

ثم يعرض لقوله ﷻ: ﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [١١٣] قَالَ
نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ [١١٤] ﴿ [الأعراف: ١١٣، ١١٤]، وفي الشعراء ﴿ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٢]، للسائل أن يسأل عن زيادة ﴿ إِذَا ﴾
في سورة "الشعراء"، وخلص سورة "الأعراف" منها، والجواب أن معنى قوله:
﴿ إِذَا ﴾ جواب وجزاء، وكان من قول فرعون لهم: إن غلبتم فجزائي أن
أجازيكم بإعلاء رتبكم وتقريب منزلتكم، فلأجل ذلك أفعل هذا بكم،

فاختصت سورة "الشعراء" بها دون غيرها؛ لأنها موضع بني على فصل اختصاص لما جرى لما يُبين غيرها عليه من نحو ما تقدم وما يجيء بعد.

ثم يعرض لقوله ﷻ: ﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۗ ﴾ [الأعراف: ١١٥]، وقوله سبحانه: ﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۗ ﴾ [طه: ٦٥]، يقول: "للسائل أن يسأل عن اختلاف المحكي في الموضوعين مع أن ذلك في شيء واحد، والجواب أن يقال: إن المقصود معنى واحد فاختر في سورة "الأعراف" ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۗ ﴾ لأن الفواصل قبله على هذا الوزن واختير في سورة "طه" ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۗ ﴾ لذلك ومثله قوله تعالى: ﴿ وَالْقَىٰ السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ۗ ﴾ [الأعراف: ١٢٠] في سورة "الأعراف" وسورة "الشعراء" لتكون الفاصلة فيها مساوية للفواصل قبلها، وبإزاء ساجدين قوله: ﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا ۗ ﴾ [طه: ٧٠] في سورة "طه" لذلك ومثله قوله تعالى: ﴿ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ۗ ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]، في السورتين للفواصل التي حملت هذه عليها، وقال في سورة "طه": ﴿ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ۗ ﴾ [طه: ٧٠]، فقدم هارون؛ ليكون موسى فاصلة مثل الفواصل المتقدمة فهذا ونحوه مما يراعى في الفواصل.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٦٦]، وقوله سبحانه: ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٦٧]، فزيدت الألف لا للبدل من التنوين؛ إذ لا تنوين مع الألف واللام، وإنما ذلك للتوفقة بينهما وبين الفواصل التي قبلها وبعدها نحو: ﴿ فَتَنَّبَلًا ۗ ﴾ ﴿ تَبَدَّلًا ۗ ﴾ ﴿ سَعِيرًا ۗ ﴾ ﴿ نَصِيرًا ۗ ﴾، وبعدهما ﴿ كَبِيرًا ۗ ﴾ ﴿ وَجِيهًا ۗ ﴾ ﴿ سَدِيدًا ۗ ﴾ ﴿ عَظِيمًا ۗ ﴾. وهذا الكلام الذي ذكره مبني على ظاهرة مراعاة الفواصل، ولا بد أن نجد في كلام أهل العلم من يرى

أبعد من ذلك، فالأمر لا يتوقف على الفاصلة فمراعاة الفاصلة شأن لفظي، ولا يكون تقديم وتأخير وذكر وحذف في كتاب الله لمراعاة لفظ فحسب. فلا بد أن الألفاظ تخدم المعاني، فلذلك نجد من يخرج ومن ينظر إلى هذه الظواهر ويخرجها على تأويل وفهم آخر غير الذي ذكر صاحبنا.

ويتعرض أيضاً لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]، وقوله ﷻ: ﴿قَالُوا أَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٧٠) ويقول: "للسائل أن يسأل فيقول: لم كرر ذكر رب في السورتين ولم يكرر في سورة "طه"؟ إنما قال: ﴿قَالُوا أَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٧٠) والجواب أن يقال: إذا قيل: رب العالمين فقد دخل فيهم موسى وهارون، وهما دعوا إلى رب العالمين لما قالوا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) [الشعراء: ١٦]، وإلا أنه كرر في السورتين رب موسى وهارون ليدل بتخصيصهما بعد العموم على تصديقهم بما جاء به - عليهما السلام - عن الله تبارك وتعالى فكأنهم قالوا: أمنا برب العالمين، وهو الذي يدعو إليه موسى وهارون.

وأما في سورة "طه" فلم يذكر رب العالمين؛ لأنه كان الكلام يتم به آية كما تم في السورتين، فيكون مقطع الآية فاصلة مخالفة للفواصل التي بنيت عليها سورة "طه"، فقال تعالى: ﴿أَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٧٠) وربهما هورب العالمين وكان القصد حكاية المعنى لا أداء اللفظ على جهته". ويعرض لقول فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَّنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وقوله: ﴿قَالَ أَمَّنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١] للسائل أن يسأل عن موضعين في هذه الآية أحدهما إظهار اسم فرعون لعنه الله في سورة "الأعراف" في هذا اللفظ، وإضمامه له في مثله من سورتي طه والشعراء والثاني قوله: ﴿أَمَّنْتُمْ بِهِ﴾ وقال في الموضعين الآخرين: ﴿أَمَّنْتُمْ لَهُ﴾ ووجه اختلافهما.

والجواب عن السؤال الأول، وهو إظهار اسم فرعون في سورة "الأعراف"، وإضماره فيما سواها أن الذكر العائد إلى فرعون بعد في سورة "الأعراف"؛ لأنه جاء في الآية العاشرة من الآية التي أضمر فيها ذكره، وهي قوله: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤]، وجاء في الآية العاشرة من هذه السورة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهٖ﴾ ولم يبعد هذا الذكر في الآيتين اللتين في سورة "طه" و"الشعراء"؛ لأن فرعون مذكور في سورة "طه" في جملة قومه الذين أخبر عنهم بقوله: ﴿قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ [طه: ٥٧]، وبعده ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠]، وقال لهم موسى ويحكم لا تقفروا على الله كذباً فيسجتم بعذاب وقد خاب من افتري ﴿طه: ٦٠، ٦١﴾، وهذا خطاب لفرعون وقومه وضميرهم منطوق على ضميره إلى قوله: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفَاً﴾ [طه: ٦٤]، هو يشير إلى أن في سورة "الأعراف" كان هناك فارق بين ذكر فرعون في الموضعين عشر آيات لا أنها الآية رقم عشرة في السورة؛ لأن الآية الأولى هي الآية الرابعة عشرة بعد المائة والثانية هي الثالثة والعشرون بعد المائة.

ثم يعرض للذكر في قوله: ﴿قَالَ ءَأَمِنْتُ لَهُ﴾ [طه: ٧١]، إنما هو في السابع من الآي التي جرى ذكره فيها، وكذلك في سورة "الشعراء" لم يبعد الذكر بعده في سورة "الأعراف"، ألا ترى أن آخر ما ذكر فيما اتصل بهذه الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢] وذكره بعد ذلك في الآية الثامنة من الآية التي جرى ذكره فيها، فلما بعد الذكر في سورة "الأعراف" خلاف بعده في السورتين إذ كان في إحدهما في السابعة، وفي الأخرى في الثامنة، وهي في الأعراف في العاشرة أعيد ذكره الظاهر لذلك.

أما عن الفرق بين ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ و ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾ فيقول: "إن الهاء في ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ غير الهاء في ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾ وكل واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى، فالتي في ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ تعود إلى رب العالمين؛ لأنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١]، وهو الذي دعا إليه موسى # وأما الهاء في قوله: ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾ تعود إلى موسى # والدليل على ذلك أنه جاء في السورتين بعدها ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، فالهاء في ﴿إِنَّهُ﴾ هي التي في ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾ فلا خلاف أن هذه لموسى # والذي جاء بعد قوله: ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، أي: إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين وقع على تواطؤ منكم أخفيتموه لتستولوا على العباد والبلاد، ويجوز أن تكون الهاء في ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ ضمير موسى # لأنه يقال: آمن بالرسول أي: أظهرتم تصديقه، وأقدمتم على خلافي قبل أن آذنت لكم فيه، وهذا مكر مكروته، وسر أسررتموه؛ لتقلبوا الناس علي فاقضى هذا الموضوع الذي ذكر فيه المكر إنكار الإيمان به".

ثم يستطرد لاختصاص اللام في موضع والباء في موضع، وإلى غير ذلك مما تعرض له في استتباع السورة من المواضع التالية له كالفرق بين ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قَطْعَ أَيْدِيكُمْ﴾ [طه: ٧١] ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَقُطِّعُ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩] ونحو ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، وفي موضع آخر ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]، ونحو ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، فهذا وغيره من اللطائف التي تنبه

لها العلماء لبيان الفروق في ذكر القصة وما يدور حولها. عموماً مسألة التكرار هي ظاهرة اجتهد العلماء في بيانها، وإظهارها وإظهار ما فيها.

ونختم الكلام عنها بهذه اللآلئ من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في حديثه عن هذه الظاهرة توضح أمراً يجب التنبه إليه. يقول: "قال ابن قتيبة: تكرار الكلام في ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] لتكرار الوقت، وذلك أنهم قالوا: إن سرك أن ندخل في دينك عاماً فادخل في ديننا عاماً، فنزلت هذه السورة".

يقول شيخ الإسلام: "قلت: هذا الكلام الذي ذكره بإعادة اللفظ وإن كان كلام العرب وغير العرب، فإن جميع الأمم يؤكدون إما في الطلب، وإما في الخبر بتكرار الكلام، ومنه قول النبي ﷺ: ((والله لأغزون قريشاً، ثم والله لأغزون قريشاً، ثم والله لأغزون قريشاً))، ثم قال: ((إن شاء الله)) ثم لم يغزهم، يقول: هذا في كلامهم لكن ليس في القرآن من هذا شيء، فإن القرآن له شأن اختص به لا يشبهه كلام البشر، ولا كلام نبي، ولا غيره وإن كان نزل بلغة العرب، فلا يقدر مخلوق أن يأتي بسورة، ولا ببعض سورة مثله. فليس في القرآن تكرار للفظ بعينه عقب الأول قط، وإنما في سورة الرحمن خطابه ﷻ بذلك بعد كل آية لم يذكر متوالياً، وهو نمط من أرفع الأساليب في الذكر فقد شبهوا ما في سورة الرحمن بقول القائل لمن أحسن إليه، وتاب عليه بالأيدي وهو ينكرها ويكفرها: ألم تك فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا؟! ألم تك عرياناً فكسوتك أفتنكر هذا؟! ألم تكن خاملاً فعرفتك ونحو ذلك، وهو أقرب من التكرار المتوالي".

كأن الإمام في خلاصة كلامه يؤكد ما أكد في بداية كلامنا أن عليك أن تبحث عن السر في التكرار، وأن هذا ليس من التكرار الذي هو على عادة كلام العرب؛ لأن هناك فواصل بين الآيات وبين العبارة التي كررت، وعليك أن تبحث في أساليب البيان، وفي براعة استخدامها.

هل هناك زيادة في القرآن؟

وننتقل إلى ظاهرة من الظواهر من الظواهر التي كثر الجدل حولها، وكثر الكلام فيها، وهي ظاهرة الزيادة: هل هناك كلام زائد في كتاب الله ﷻ؟

هذه القضية التي شغلت علماء العربية والشريعة، وتناولوها وتحدثوا فيها كثيراً، ولا بد - قبل أن نعرضها ونعرض وجه نظر العلماء فيها - أن نقف مع المصطلح نفسه، ونبين أمراً يجب الانتباه له أن الخلاف في هذه المسألة لا يعدو أن يكون خلافاً لفظياً. فإن سألت: كيف هذا؟ نذكر أن منشأ الخلاف في هذه الظاهرة ابتداءً هو الخلاف في المصطلح بين أهل كل فن، فكثيراً ما يقع البلاغيون في النحاة بسبب اختلافهم في تناول المصطلحات، أهل النحو عندما يطلقون مثلاً في كلامهم كلمة فضله، لا يعنون به ما يستغنى عنه، وإنما يعنون بالفضلة ما ليس ركناً أساسياً في الجملة، فإذا قالوا: إن الحال فضلة لا يعني ذلك أن الحال يستغنى عنها في الكلام، وإلا لوجدوا من يعترض عليهم اعتراضاً شديداً بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، أو ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ [الأنبياء: ١٦]، فإذا ما حذف الحال مثلاً في هاتين الآيتين كان الكلام جحوداً لخلق الله ﷻ لهذه المخلوقات - عياداً بالله - ففسد المعنى. وأنى للنحاة أن يقصدوا هذا المقصد، وكذلك في باب المفعول عندما يقولون: إن المفعول فضلة لا يعنون الاستغناء عنه، وإنما يعنون به أنه ليس ركناً أساسياً، فلا وجه لاعتراض البلاغيين عليهم بقولهم: المفعول عندنا ليس فضلة؛ لأنك إذا قلت: أضربت زيداً إنما تنكر ضربك للمفعول، فهو أساس الكلام الذي ينبني عليه.

فهذه المسألة تطرقت إلى باب الزيادة بخلاف أوسع بين العلماء في المجالين. الزيادة ووقوعها في كتاب الله والمراد بها:

الأكثرين ينكرون إطلاق هذه العبارة في كتاب الله ويسمونونه التأكيد، ومنهم من يسميه بالصلة ومنهم من يسميه بالمقحم، واختلفوا في وقوعه في كتاب الله ﷻ فمنهم من أنكره، ونقل عن المبرد وثعلب أنه لا صلة في القرآن يعني: ليس هناك زائد في القرآن، أما الدهماء من العلماء والفقهاء، والمفسرين على إثبات الصلات في القرآن، وقد وجد ذلك على وجه لا يسع إنكاره، فذكر كثيراً، هذا كلام الزركشي في (البرهان). يبين لنا ابتداءً أننا لا نستطيع أن نقول: إنه ليس في القرآن حروف صلة، وليس في القرآن حروف استخدمت بما أطلق عليه في العلماء هذا المصطلح.

ويقول: ومنهم من جوزه وجعل وجوده كالعدم، وهو أفسد الطرق، وقد قال الفخر الرازي: "إن المحققين على أن المهمل لا يقع في كلام الله - سبحانه - فأما في قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فيمكن أن تكون استفهامية للتعجب والتقدير: فبأي رحمة". هنا وقع الرازي في إشكالية كبرى مع العلماء في بيان هذه الآية، أول هذه الأشياء التي وقع فيها أنه عبر عن الصلة أو الزائد بلفظ المهمل، ولم يقل أحد من النحاة لفظ المهمل؛ لأن المهمل ما لم تضعه العرب، وهو ضد المستعمل فهذا المصطلح النحاة لم يتعرضوا له، ولم يذكره.

فعندما تحدثوا عن الزيادة أطلقوا مصطلحان عند البصريين يقولون: زائد أو لغو يعني عبارة سيبويه وهو إمام النحاة، وهو كبيرهم في كتابه يقول عقب قوله ﷻ: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِّثْقَهُمْ لَعْنَهُمْ﴾ [المائدة: ١١٣]، يقول: "إنما لغواً لأنها لم تحدث

شيئاً". أي: لم تؤثر في الإعراب، فالباء حرف جر، ونقض اسم مجرور بالباء وعلامة جره الكسرة هذا هو مرادهم بكلمة الزائد، ولا يعنون به ألّبتة أنه لا يؤثر في المعنى، وأنه لا يفيد في المعنى؛ بل معظم من وجه الآيات على الفهم لاستخدام هذه الأدوات التي أطلق عليها الزيادة هم النحاة.

وانظر مثلاً إلى ابن هشام وكتابه (المغني) وما تعرض فيه لمثل هذه الأشياء، وتحدث فيها ويستدل البلاغيون في احتجاجهم، وإقامتهم الحجج على النحاة بكلام ابن هشام، وهو من النحاة، فليس المراد بالزيادة حيث ذكرها النحويون إهمال اللفظ، ولا كونه لغواً فنحتاج إلى التنكب عن التعبير بها إلى غيرها، فإنهم إنما سموا ما زائدة هنا لجواز تعدي العامل قبلها إلى ما بعدها، لا لأنها ليس لها معنى هذا التوضيح الذي ذكره الزركشي لاعتراضه على عبارة الفخر الرازي.

فواضح من هذا الكلام أن هناك تداخلاً بين مصطلحات النحاة فعندما يقولون: زائد، أو يقولون: لغو على مصطلح البصريين أو يقولون: صلة أو يقولون: حشو على مصطلح الكوفيين هذه الكلمات التي يطلقونها تتعرض بقضية الإعراب، ولا تتعرض بقضية المعنى ربما يقول قائل: الإعراب فرع المعنى نقول: الإعراب الصناعي، وليس الإعراب التفسيري، الإعراب الصناعي بمعنى الرفع والنصب والحذف، وما سبب ذلك، وهو قضية تأثير العوامل في المعمولات، فهم يذهبون ويقولون كلمة زيادة أو لغو أو حشو أو صلة؛ لأن العامل قبلها يتطلب المعمول بعدها، وهي لا تأثير لها فيه.

ودليل هذا الخلط هذا الذي ذكره ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) وأسهب في الكلام عنه، وجاوز حد الإنصاف كما يقال في الكلام على النحاة، يقول: "جرت بيني وبين رجل من النحويين مفاوضة في هذه الآية أي في قول الله ﷻ:

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾ [القصص: ١٩]، الكلام عن موسى # فيقول: فقال - أي النحوي: إن "أن" الأولى زائدة ولو حذف فقليل: فلما أراد أن يبطش لكان المعنى سواء ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَنُةً عَلَى وَجْهِهِ ﴾ [يوسف: ٩٦]، وقد اتفق النحاة على أن "أن" الواردة بعد لما وقبل الفعل زائدة".

أولاً للإنصاف هذه العبارة التي ذكرها ابن الأثير لا نستطيع أن نسلم بها أن قالها نحوي من النحويين الذين يعتمد على كلامهم، بمعنى أنه يذكر أنه قال له: "لكن المعنى سواء" لم يقل أحد من النحويين أبداً المعتمد على كلامهم من أهل هذه الصنعة أن المعنى بوجود الحرف، وبعدم وجوده سواء، فأما كونهم ذكروا أن "أن" الواردة بعد "لما" وقبل الفعل زائدة فهذا حق بمصطلح الزيادة الذي هو عندهم. يقول ابن الأثير: "فقلت له: النحاة لا يفتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث إنهم نحاة، ولا شك أنهم وجدوا "أن" ترد بعد "لما" وقبل الفعل في القرآن وفي كلام الفصحاء العرب، فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا أسقطت، فقالوا: هذه زائدة وليس الأمر كذلك بل إذا وردت لَمَّا وورد الفعل بعدها يأسقاط أن دل ذلك على الفور، وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل كان على الفور، وإنما كان فيه تراخ وإبطاء". ثم يعقب قائلاً: "وبيان ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أني أقول: فائدة وضع الألفاظ أن تكون أدلة على المعاني، فإذا وردت لفظة من الألفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة، فالأولى أن تحمل تلك اللفظة على معنى، فإن لم يوجد معنى بعد التنقيب، والتنقيب، والبحث الطويل قيل: هذه زائدة دخولها في الكلام كخروجها منه، ولما نظرت أنا في هذه

الآية وجدت لفظة "أن" الواردة بعد لَمَّا وقبل الفعل دالة على معنى ، وإذا كانت دالة على معنى ، فكيف يسوغ أن يقال : إنها زائدة؟! فإن قيل : إنها إذا كانت دالة على معنى ، فيجوز أن تكون دالة على غير ما أشرت أنت إليه قلت في الجواب : إذا ثبت أنها دالة على معنى ، فالذي أشرت إليه معنى مناسب واقع في موقعه ، وإذا كان مناسباً واقعاً في موقعه ، فقد حصل المراد منه ، ودل الدليل حينئذٍ أنها ليست بزائدة.

الوجه الثاني : أن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحاً في كلام الله - تعالى - ، وذلك أنه يكون قد نطق بزيادة في كلامه لا حاجة إليها ، والمعنى يتم بدونها ، وحينئذٍ لا يكون كلامه معجزاً إذ من شرط الإعجاز عدم التطويل الذي لا حاجة إليه ، وإن التطويل عيب في الكلام ، فكيف يكون ما هو عيب في الكلام من باب الإعجاز هذا محال". ويختتم بقوله : "وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة ؛ لأنها ليست من شأنهم".

واضح من كلام ابن الأثير أن به خلطاً ، وأن به تجاوزاً في فهم المسألة من ناحية ، وفي التعبير عنها من ناحية أخرى ، كما ذكرنا لم يقل النحاة قط : إن الزيادة لا تؤثر في المعنى ، وإنما مصطلحهم يدور دائماً حول اللفظ والقضية الإعرابية الصناعية ، وتوجيه الإعراب ، وقضية العامل والمعمول ، والنحاة أنفسهم لم يتعرضوا لمسألة أن الكلام على السواء ، وأن المعنى سيان بوجود الحرف وعدم وجوده لم يرد ذلك عنهم أو عن الثقات منهم ، وإن قاله بعض الضعفة من النحاة أو بعض ما لا يعتد به في الخلاف ، فهذا يكون سوء فهم ممن قال هذا الكلام ، فلا ينسب الكلام إلى النحاة ، ولا تعمم الأحكام على أنهم ليس من شأنهم هذا وهذه الأسرار لا يعلمونها ، وليس لهم في الفصاحة والبلاغة ، فهذا تطاول من ابن الأثير على النحاة في بيان هذه المسألة والخلاف الواقع فيها.

دليل ذلك أننا ننظر إلى نقطة مقابلة، إذا ما نظرت مثلاً في كتاب (الفريد في إعراب القرآن المجيد) للمُتتَجِب بن أبي العز رشيد الهمذاني المتوفى عام ستمائة وثلاث وأربعين من الهجرة تجده عند توجيهه المواضع التي قيل فيها في الزيادة ينص على مسألة الصلة، وعلى مسألة أنها جاءت للتوكيد، وعلى أنها تؤدي المعنى وإلى فرق المعنى بينها وبين غيرها، وذكر لطيفة من اللطائف ذكره بعدها الزركشي في (البرهان) هذه العبارة الجميلة التي توضح تقديرهم الشديد لمكانة هذا الحرف الذي يطلق عليه زائد، أو يقال عنه زائد اصطلاحاً نحوياً لا صلة له بالمعنى، وأنه لا يؤدي معنى مفيداً، أو لا يؤثر في المعنى. يقول: "سئل بعض العلماء عن التوكيد بالحرف، وما معناه إذ إسقاط الحرف لا يخل بالمعنى، فقال: هذا يعرفه أهل الطباع إذ يجدون أنفسهم بوجود الحرف على معنى زائد لا يجدونه بإسقاط الحرف قال: ومثال ذلك مثال العارف بوزن الشعر طبعاً، فإذا تغير البيت بزيادة أو نقص أنكره، وقال: أجد في نفسي على خلاف ما أجده بإقامة الوزن، فكذلك هذه الحروف تتغير نفس المطبوع عند نقصانها، ويجد نفسه بزيادتها على معنى بخلاف ما يجدها بنقصانها".

هذا كلام بينٌ ونص واضح في ضرورة تواجد هذه الحروف، وكذلك أثرها في السياق وتوضيحه، والناحية الجمالية في النص التي أشار إليها شيخنا محمد عبد الله دراز - رحمه الله - بمسألة الجمال الإيقاعي والجمال التنسيقي بأنه إذا ما حذف هذا الحرف حدث الخلل، ولا يتقبل الإنسان هذا الحذف، ويشعر بنقصان استمتاعه بالآيات، وبتلاوتها وبكلامها فرقاً بين ذكر الحرف وحذفه، فهذه المسألة يعترفون بها، ويقرون بها بل يعترف بها كل من يقرأ كتاب الله ﷻ. فهذا الحرف له دور في المعنى، وله دور في الإيقاع والتنسيق، وله دور في إعجاز القرآن الكريم، وإنما أطلق عليه الزائد من باب الاصطلاح.

موقف علماء الصرف والنحو من قضية الزيادة

عناصر الدرس

- العنصر الأول : الزيادة لدى علماء الصرف ٣٨٧
- العنصر الثاني : الزيادة عند علماء النحو ٣٩٣

الزيادة لدى علماء الصرف

نتناول موقف علماء الصرف، وعلماء النحو من قضية الزيادة، ونقابل الموقف بموقف البلاغيين وكلامهم عن مسألة الزيادة:

الزيادة عند علماء الصرف هي اشتمال الكلمة على أحد حروف الزيادة العشرة المجموعة في سألتمونيها، أو هناء وتسليم أو تلا يوم أنسه أو اليوم تنساه، فتفنن علماء الصرف في جمع هذه الحروف وعددها بأنها من الأحرف المزيده، والمزيد عندهم هو ما بعض حروفه ساقط وضعاً أي: أنك تستطيع أن تعرف عليه بإسقاطه في تصاريف الكلام، فعندما تقول: نصر، ينصر، انتصاراً، ناصر، منصور، نصير، منتصر يؤدي ذلك إلى أن تقول: إن النون والصاد والراء حروف أصلية، وما عداها حروف زائدة، ودليل ذلك أنك ترى الألف في ناصر ولا تراها في منصور، وكذلك ترى الياء في نصير ولا تراها في منتصر فهذه الحروف زائدة لسقوطها في بعض تصاريف الكلمة.

وينصون على أن أكثر ما يبلغ الاسم بالزيادة سبعة أحرف مثل "احرنجام" وفي الفعل يبلغ ستة أحرف مثل: استغفر، واطمأن، ويقابلون الزائد بال مجرد، فال مجرد ما كانت كل حروفه أصلية، ولا تسقط في أصل الوضع بخلاف الزائد، واهتموا أيضاً ببيان أن الزيادة لا تكون إلا لأحد ستة أشياء: الزيادة لمعنى كحروف المضارعة، وينصون على أن ما زيد لمعنى هو أقوى الزوائد، والزيادة للمد نحو: كتاب وعجوز وقديم أي: حرف الألف والواو والياء من حروف المد، والزيادة للإلحاق نحو: واو كوثر، وياء ضيغم، والزيادة للإمكان كهمزة الوصل التي يتوصل بها إلى الساكن، وهاء السكت في الوقف على قه وعه ومه والزيادة

للعوض نحو: تاء التأنيث في زنادقة فإنها عوض عن ياء زناديق؛ ولذلك لا يجتمعان والزيادة لتكثير الكلمة نحو: ألف كبعثر، ونون كنهبل أو كنهبل أي: الشجر العظيم، ومتى كانت الزيادة لغير التكثير كانت أولى من أن تكون للتكثير. فنخلص من ذلك إلى أن الزيادة عند الصرفيين تتعلق بنية الكلمة، وهل هي مجردة أم مزيدة، وإن كانت مشتقة فاشتقاقها من الثلاثي المجرد أم من غير الثلاثي سواء كان مجرداً رباعياً أو ثلاثياً مزيداً بحرف أو حرفين أو ثلاثة، وينتهي دورهم عند هذا الحد فيلتقطه أرباب البلاغة والبيان؛ لينظروا لمستخدم المزيد ولم يستخدم المجرد ولم استعملت هذه الصيغة وهنا مجردة، وهناك مزيدة، ولم عدل عن صيغة المشتق من الثلاثي إلى غيره والعكس، وما أثر ذلك على المعنى، وما الذي اختير من حروف الزيادة ولماذا ومن ثم يتبين من هذه الأسئلة والإجابة عنها الإعجاز القرآني في مسألة استخدام الحروف الزائدة بفهم الصرفيين، وبتناول الصرفيين.

ويتبين ذلك بعرض نماذج لمن اهتموا بهذا الشأن، وبيان الفرق بين استخدام حروف الزيادة في البنية وعدم استخدامها. من ذلك ما أشار إليه الدكتور السامرائي في كتابه (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) من الفرق في الاستخدام بين قوله تعالى: ﴿أَسْطَعُوا﴾ [الكهف: ٩٧]، و﴿أَسْتَطَعُوا﴾ [الكهف: ٩٧]، قال سبحانه: ﴿فَمَا أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا أَسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، الصرفيون عندما يتناولون ذلك يبينون أن ﴿أَسْتَطَعُوا﴾ على الأصل بزيادة الألف والسين والتاء وأن ﴿أَسْطَعُوا﴾ هو الفعل، ولكن حذفت منه التاء حتى إن أحدهم ليقول: ظللت دهرًا أسأل عن وزن اسطاعوا فلم أجد من يجيبني. هذا الذي يهتمون به في بيان استخدام ﴿أَسْطَعُوا﴾، و﴿أَسْتَطَعُوا﴾.

أما الدكتور السامرائي يشير إلى الفرق بين استخدام الفعلين يقول: "وذلك في السد الذي صنعه ذو القرنين من زبر الحديد والنحاس المذاب، وقد ذكرنا أن الصعود على هذا السد أيسر من إحداث نقب فيه لمرور الجيش، فحذف من الحدث الخفيف فقال: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ بخلاف الفعل الشاق الطويل فإنه لم يحذف بل أعطاه أطول صيغة له فقال: ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ، نَقَبًا﴾ (٩٧) فخفف بالحذف من الفعل الخفيف بخلاف الفعل الشاق الطويل، ثم إنه لما كان الصعود على السد يتطلب زمنًا أقصر من إحداث النقب فيه حذف من الفعل، وقصر منه ليجانس النطق الزمن الذي يتطلبه كل حدث".

هذه لطيفة أشار إليها الشيخ - حفظه الله - وكذلك أيضًا أشار إلى الفرق بين تنزل وتنزل، فالصرفيون في نحو ذلك القاعدة عندهم معروفة أنه إذا اجتمعت تاءان في أول المضارع جاز التخفيف من أحدهما تعاونوا، وتعاونوا ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالنَّقْوَىٰ وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢٢]، فتعاونوا الأولى فعل أمر، ﴿وَلَا نَعَاوَنُوا﴾ الثانية فعل مضارع وأصله ولا تتعاونوا ﴿تَلْظَىٰ﴾ [الليل: ١٤] أصلها تلظى، وهكذا فالمسألة عندهم واضحة في أنه يجوز حذف إحدى التائين تخفيفًا إذا اجتمعا في أول المضارع لكن ننظر إلى قوله ﷺ: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]، وقوله سبحانه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣]، هاتان الآيتان وردت فيها الصيغة بحذف التاء تخفيفًا.

أما في سورة "فصلت" فيقول المولى ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ

العبار النحوي في القرآن الكريم

﴿ تَوَعَّدُونَ ﴾ (٣٠) [فصلت: ٣٠]، فقال في آيتي "القدر" و"الشعراء": ﴿ تَنْزَلُ ﴾ ، بحذف إحدى التاءين، وقال في "فصلت": ﴿ تَتَنَزَّلُ ﴾ ، من دون حذف، وذلك والله أعلم أن التنزل في آية "فصلت" أكثر مما في الآيتين الأخريين ذلك أن المقصود بها أن الملائكة تنزل على المؤمنين عند الموت؛ لتبشرهم بالجنة، وهذا يحدث على مدار السنة في كل لحظة، ففي كل لحظة يموت مؤمن مستقيم، فتتنزل لتبشره بالجنة فأعطى الفعل كل صيغته، ولم يحذف منه شيئاً.

وأما آية "الشعراء"، فإن التنزل فيها أقل؛ لأن الشياطين لا تنزل على كل الكفرة، وإنما تنزل على الكهنة أو على قسم منهم، وهم الموصوفون بقوله: ﴿ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ (٣٣٣) يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴿ ولا شك أن هؤلاء ليسوا كثيراً في الناس، وهم ليسوا بكثرة الأولين ولا شطرهم بل هم قلة فاقطع من الحدث فقال: ﴿ تَنْزَلُ ﴾ بحذف إحدى التاءين، وكذلك ما في آية سورة القدر، فإن تنزل الملائكة إنما هو في ليلة واحدة في العام وهي ليلة القدر، فهو أقل من التنزل الذي يحدث باستمرار على من يحضره الموت فاقطع من الحدث.

فأنت ترى أنه اقتطع من الفعل إحدى التاءين في آيتي الشعراء والقدر لأن التنزل أقل ولم يحدث من آية فصلت؛ لأنه أكثر والله أعلم. هذه لطيفة أشار إليها الشيخ في هذه الظاهرة، كذلك تأتي لصيغة فَعَّلَ وأفعل، عند الصرفيين الأمر سيان الزيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى، وكلا الفعلين ينتميان لفصيلة واحدة وهي فصيلة الثلاثي المزيد بحرف، ولكن الفرق أن الأول مزيد بالهمزة؛ فلذا هو على وزن أفعل والثاني مزيد بالتضعيف، فلذا هو على وزن فَعَّلَ هذا دور الصرفيين.

أما أهل التدقيق والبلاغة ينظرون في الاستخدام متى يستخدم أفعل ومتى يستخدم فَعَّلَ مع أنهما من فصيلة واحدة، يقول الشيخ: "من الاستعمال القرآني

لفعل وأفعل نحو: كَرَّمَ وأكرم، فإنه يستعمل كرم لما هو أبلغ وأدوم فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ١٧٠]، وهذا تكريم لبني آدم على وجه العموم والدوام، وقوله سبحانه على لسان إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، أي: فضلته علي، في حين قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [١٧] ﴿[الفجر: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [١٥] ﴿[الفجر: ١٥]، وهو يقصد إكرامه بالمال، فاستعمل التكريم لما هو أبلغ وأدوم وأعم.

وكاستعمال أوصى ووصى، فهو يستعمل وصى لما هو أهم لما فيه من المبالغة، فالقرآن يستعمل وصى للأمور المعنوية، ولأمور الدين ويستعمل أوصى للأمور المادية، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [العنكبوت: ٨]، ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ﴿ذَلِكَمُؤْتَمِرَاتُكُمْ بِهِنَّ﴾ [الأنعام: ١٥١] في حين قال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] ولم يستعمل أوصى في الأمور المعنوية وأمور الدين إلا في قوله تعالى: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [٣١] ﴿[مريم: ٣١]، وذلك لاقتران الصلاة بالزكاة. كما ذكرنا أن هذه اجتهادات اجتهد فيما ذكرت من نماذج في مسألة الصرف الدكتور السامرائي في استكشاف الفروق بين استخدام الصيغ مع اتحاد الكلام فيها عند الصرفيين، وليس الدكتور السامرائي بدعاً في هذه المسألة، فهذا أشار إليه العلماء سابقاً، وحاولوا بيان ذلك وهذه نماذج أو عبارات ذكرها الزركشي في كتابه حول هذه المسألة، وهي الزيادة في بنية الكلمة.

يقول: "واعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأن الألفاظ أدلة على

المعاني، فإذا زيدت في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقَدِّرٌ﴾ [القمر: ٤٢]، فهو أبلغ من قادر لدلالته على أنه قادر متمكن القدرة لا يرد شيء عن اقتضاء قدرته ويسمى هذا قوة اللفظ لقوة المعنى، وكقوله تعالى: ﴿وَأَصْطَبِرْ﴾ [مريم: ٦٥]، فإنه أبلغ من الأمر بالصبر من اصبر ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧]، فهناك فرق بين اصطر وبين اصبر، وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لأنه لما كانت السيئة ثقيلة، وفيها تكلف زيد في لفظ فعلها وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧]، فإنه أبلغ من يتصارحون".

إذا العلماء يبحثون عن سر هذه الزيادة، واستخدامها في القرآن، ويتعدون مرحلة ما يذكره الصرفيون في أنه مجرد أو مزيد أو على صيغة من الصيغ المعينة، ومن الإشارات اللطيفة أيضاً مسألة التشديد يعني الزيادة بالتشديد أبلغ من عدم التشديد، فإن ستاراً وغفاراً أبلغ من ساتر وغافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّيَ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، ومن هذا رجح بعضهم معنى الرحمن على معنى الرحيم لما فيه من زيادة البناء، وهو الألف والنون في كلمة الرحمن.

وبعضهم ذكر لطيفة حول قول الله ﷻ في وصف الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، فعبر المولى ﷻ بصيغة اسم الفاعل في شاكر وبصيغة المبالغة في كفور؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يبالغ في الشكر، ولكن عاداته أن يبالغ في الكفر عياداً بالله.

الزيادة عند علماء النحو

نتقل الآن إلى الحديث عن الزيادة عند النحاة، وسبق مما ذكرناه بيان أن المقصود عندهم الزيادة التي لا تؤثر في العمل، وهذا باب واسع عند النحاة ومطرّد في كلامهم وفي كتبهم، فعندما يتحدثون في باب كان تجد فصل زيادة كان، حتى إن ابن مالك في منظومته يقول:

وقد تزداد كان في حشو كما ❖ كان أصح علم من تقدما
ويتكلمون عن الزيادة في حروف الجر، وعن زيادة "ما" مع "إن" وأخواتها وكفها
عن العمل لها إلى غير ذلك من أبواب النحو، فمصطلح الزيادة مصطلح شائع
عندهم، وهو في كل موضع من المواضع التي ينبهون عليه ينطلق نحو قضية
العامل والمعمول التي هي أصل صناعة النحو، وأصل تخصصهم وكلامهم.

فمثلاً يبتدئون كلامهم بأنهم ينصون على تنبيهات معينة:

أولاً: أن كون الحرف زائداً دلالة على أن أصل المعنى حاصل بدونه دون التأكيد،
فوجوده تحصل فائدة التأكيد؛ ولذا استخدامه في القرآن لوضع ولغاية يريدونها
المولى ﷺ في هذا الاستخدام.

ثانياً: أن حق الزيادة أن تكون في الحرف وفي الأفعال، أما الأسماء فقد نصوا على
أنها لا تزداد، وإن كان في كتب بعض النحاة زيادة الاسم إلا أن هذا لا يطرد عندهم.
مثال: الزمخشري في قوله تعالى: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: 9]، يقول:
"إن اسم الجلالة مقحم، ولا يتصور مخادعتهم لله تعالى".

ثالثاً: أن الزيادة تكون إما آخرًا، وإما حشواً فلا تقع في بداية الكلام، فلذلك تجد كثيراً من النحويين يعترضون على زيادة لا في مثل قوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٤١]، في بداية الكلام. ولكي يتبين لنا كلامهم عن الزيادة نعرض كلامهم حول الحروف الزائدة، وهذه المسألة التي كثر الكلام حولها في باب الزيادة.

أما زيادة الفعل فهي محصورة على أفعال معينة مثل "كان" والآيات التي يحتملها زيادة كان في القرآن جميعها جاءت على سبيل الاحتمال، وليس على القول القاطع. كما قالوا مثلاً في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، فقالوا: إن كان زائدة، وإن ﴿صَبِيًّا﴾ تعرب حالاً؛ لأن لا فائدة في وصف أنه كان في المهد، ليس هناك معجزة في شأن عيسى # فكل من في المهد صبي فهم يتعجبون من كلامه حالة كونه صبياً ليس لأنه كان في المهد صبياً.

وهذا فهم أيضاً يعترض عليه أصلاً في هذا التقدير إلا أن كثيراً من النحاة ذكروا زيادة كان في هذا الموضوع، ومواضع أخرى كثيرة في القرآن جاءت على الاحتمال بأنها زائدة وعلى الاحتمال بأنها أصلية في الكلام، وهذا كلام يتعلق بالنحو وبتفاصيل المسائل فيه.

القضية التي تشغلنا هي حروف الزيادة، ابتداء الزيادة إما أن تكون لتأكيد النفي كالباء في خبر ليس وما أو لتأكيد الإيجاب كاللام الداخلة على المبتدأ، يعني هم يوضحون ابتداء أن الكلام في الزيادة لغرض التأكيد سواء كان تأكيد إيجاب أو تأكيد نفي، وحروف الزيادة المستعملة بكثرة عندهم سبعة التي نصوا كثيراً على زيادتها: إن، وأن، ولا، وما، ومن، والباء واللام، هذه الحروف استخدمت كثيراً في الزيادة، وبعضهم زائد أم، وبعضهم زاد الكاف، وبعضهم ذهب إلى زيادة إلى في بعض المواضع.

هذا؛ وقد أحصى دكتور أحمد بدوي الألفاظ الزائدة بأنها خمسة عشر لفظاً وردت في القرآن الكريم ما بين حروف وأسماء، وهذه الحروف هي التي ذكرناها، وأما الأسماء فهو حصر معها إذ وإذا. في هذه الأدوات عندما يتحدثون مثلاً عن إن يقولون: "إن" الخفيفة يطرد زيادتها مع "ما" النافية، ويمثلون بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، ويقولون: إن "أن" المفتوحة تزداد بعد لَمَّا الظرفية كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٣]، ويقولون: "ما" تزداد بعد خمس كلمات من حروف الجر، فتزداد بعد من وعن غير كافة لهما عن العمل، وتزداد بعد الكاف ورب والباء فتكفها تارة ولا تكفها تارة أخرى.

ويوضحون مجيئها كافة وغير كافة يقولون: ما التي تكف عن النصب والرفع هي الواقعة بعد إن وأخواتها ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦]، والتي تكف عن عمل الجر كقوله تعالى: ﴿أَجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ الْإِلَهَةُ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وغير الكافة هي التي تقع بعد أداة الجزم، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، أي: إنما تكون فهنا أداة الجزم جزمت الفعل بعدها، ولم تؤثر ما فلم تكف عن العمل وكذلك الواردة بعد الخافض أي: بعد حرف الجر ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فكلمة ﴿رَحْمَةً﴾ مجرورة بالباء، ومثلها ﴿فِيمَا نَقَضْتَهُمْ مِّثْقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصِيبَ حُنَّ نَدِيمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا﴾ [نوح: ٢٥] فكل من هذه الألفاظ الواقعة بعد "ما" مجرورة بحرف الجر السابق لها.

وكذلك تقع بعد الاسم كقوله تعالى: ﴿أَيُّمًا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨]، وتزداد بعد أداة الشرط جازمة كانت أو غير جازمة، ومثال الجازمة ﴿أَيُّنَمَا

العبار النوي في القرآن الكريم

تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ ﴿ [النساء: ٧٨] ، وغير الجازمة ﴿ حَقَّ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعَهُمْ ﴾ [فصلت: ٢٠] ، وتزاد بين التابع وتابعه ويستدلون لذلك بقوله تعالى : ﴿ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٦] ، ف ﴿ بَعُوضَةٌ ﴾ بدل أو عطف بيان لـ ﴿ مَثَلًا ﴾ ، ويتحدثون عن "لا" فيقولون: "لا" تزداد مع الواو بعد النفي كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ [فصلت: ٣٤] ، أي لا تستوي الحسنة والسيئة ؛ لأن استوى من الأفعال التي تطلب اسمين أي لا تليق بفاعل واحد نحو : اختصم ، فعلم أن لا زائدة ، وتزداد بعد أن المصدرية كقوله تعالى : ﴿ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ [الحديد: ٢٩] ، ف ﴿ يَعْلَمُ ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المصدرية ولا زائدة. حتى إن الشلوين يقول: "وأما زيادة لا في قوله تعالى : ﴿ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ فشيء متفق عليه ، وقد نص عليه سيوييه ، ولا يمكن أن تحمل الآية إلا على زيادة "لا" فيها لأن ما قبلها من الكلام وما بعده يقتضيه".

رجعنا إلى مسألة العامل تنبه أن أن تتطلب العمل في ﴿ يَعْلَمُ ﴾ قالوا: وفائدة زيادتها تأكيد الإثبات فإن وضع لا نفي ما دخلت عليه فهي معارضة للإثبات ، ولا يخفى أن حصول الحكم مع المعارض أثبت مما إذا لم يعترضه المعارض ، قالوا: وقد تزداد قبل القسم ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠] ، ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ الْجُومِ ﴾ [الواقعة: ٧٥] ، وعندما يتحدثون عن "من" يقولون: تزداد في الكلام الوارد بعد نفي أو شبهه ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] أي: ورقة ، ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] أي: ولداً ، ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ ﴾ [الملك: ٣] ، أي: تفاوتاً وغيرها كثير في كتاب الله ﷻ. وجوز الأخصش زيادتها مطلقاً أي دون أن تسبق بنفي أو شبه نفي ، واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَمْسَلِينَ ﴾ [٣٤]

الأنعام: ١٣٤، أي: نبأ المرسلين، ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١] أي: ذنوبكم، ﴿يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]، أي أساور من ذهب، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، أي سيئاتكم على أنها منصوبة؛ لأن سيئات جمع مؤنث سالم، فينصب ويجر بعلامة واحدة وهي الكسرة.

ويتحدثون عن الباء، فيقولون: تزداد في الفاعل كقوله تعالى: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الرعد: ٤٣]، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وتزداد اطراداً وقياساً في أسلوب التعجب ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ﴾ [مريم: ٣٨]. والنحاة عندما يعربون "أكرم محمد" يعربونها على أصل المعنى، فمعناها كرم محمد، فبالتالي عندما يقول لك: أكرم فعل ماضٍ جاء على صورة الأمر للتعجب، والباء حرف جر زائد، ومحمد فاعل مرفوع محلاً مجرور لفظاً أو فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدره منع من ظهورها انشغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، هذا يوضح لك أن القضية عندهم لا تعدو أن تكون متصلة بمسألة الإعراب، والعامل والمعمول، ويقولون: يجوز حذفها في فاعل كفى أي أن تقول: كفى الله، ومنه قول الشاعر:

..... ❖ كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

وتزداد في المفعول كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَهَرَىٰ إِلَيْكَ يَجْنَجُجُ النَّخْلَةَ﴾ [مريم: ٢٥]، وكقوله تعالى: ﴿أَلَرَأَيْتُمْ أَنَّىٰ يَأْتِيكُمُ الْمَالُ﴾ [الحج: ١٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَاكِمِ يَظْلَمِ﴾ [الحج: ٢٥]، ويقولون: هي تزداد في المبتدأ، وذلك قليل ومنه عند سيبويه ﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦]،

أي: أيكم المفتون وتزاد في خبر المبتدأ وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿جَزَاءً سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧]، وتزاد في خبر ليس كثيراً كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ﴾ [القيامة: ٤٠]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ومن النادر زيادتها مع غير ذلك، وهذا خرجوا عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُ مِثْلَ مَا يَخْلُقُهَا لَمْ يَكُنْ بِقَدِيرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وحمل أيضاً على أنها في معنى النفي، فحملت على ليس وهي تزيد كثيراً في خبر ليس.

ويتحدثون عن اللام فيقولون: إنها تزداد بين الفعل ومفعوله، وحمل عليه المبرد قوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]، أي: ردفكم واختلفوا في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وتزاد اللام لتقوية العامل، ينظرون إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، فإذا ما سئلت عن إعراب الرؤيا، فالرؤيا: مفعول به للفعل ﴿تَعْبُرُونَ﴾ إذا ما دور اللام؟ قالوا: اللام دخلت هنا لتقوية العامل؛ لأن العامل ضعف بسبب تأخيره كقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، أي: يرهبون ربهم يخافون ربهم فبسبب ذلك الضعف لتأخيره زيدت اللام على المفعول به.

أو أن العامل لا يكون فعلاً يكون فرعاً عن الفعل أي: مشتق يعمل عمل الفعل كقوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، أي فعال ما يريد، وكقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، أي مصدقا ما معهم، ﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾ [المعارج: ١٦]، أي نزاعة الشوى، واجتمع التأخر والفرعية أن العامل يكون ضعيفاً بسبب تأخره وبسبب فرعيته في نحو قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، أي: وكنا شاهدين حكمهم، فالعامل

هنا كلمة ﴿شَاهِدِينَ﴾ وهي مشتق يعمل عمل الفعل، والمعمول كلمة حكمهم فهي متقدمة على عاملها. بقي أن نشير إلى أنهم لم يعرضوا هذا الكلام، ولم يتكلموا فيه، وعلى تركه دون بيان بل إنهم كانوا يوضحون أحياناً السر في هذه الزيادة، ويتحدثون عن الغرض البلاغي، وكثير منهم ينص على أن هناك فرقا بين وجودها وعدم وجودها، وكثير من البلاغيين يأخذون عن توجيهات النحويين وكلامهم في هذه المسائل.

فنختم للتطبيق على قضية الزيادة بين النحاة والبلاغيين بكلام رائد من رواد البلاغة في العصر الحديث، وهو أستاذنا الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه (من بلاغة القرآن) يقول: "أحصى النحاة ما ورد في القرآن الكريم من كلمات زائدة، وحصروها في خمسة عشر لفظاً، هي: "إذ" في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، و"إذا" في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، و"إلى" في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، في رواية من قرأ "تهوى" بفتح الواو "تهوى إليهم" أي: تهواهم، و"أم" في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]، والتقدير: أفلا تبصرون أنا خير.

و"إن" في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنْتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، و"أن" في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦]، وقوله

العبار النوي في القرآن الكريم

سبحانه: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَنوَكِّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ١١٢]، و"الباء" في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿ وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم: ٢٥]، ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ [الحج: ١٥]، ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَاكِمِ يُظْلَمِ ﴾ [الحج: ٢٥]، كما ذكرنا سالفاً.

و"الفاء" في قوله سبحانه ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّغِينِ لَشَرَّ مَثَابٍ ﴾ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنَسَسَ الْمَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ [ص: ٥٤ - ٥٧]، أي: هذا ليلذوقوه ﴿ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴾ ﴿٥٧﴾ [ص: ٥٧]، و"في" في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِبَهَا وَمُرْسَسَهَا ﴾ [هود: ٤١]، أي: اركبوها، والكاف في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ﴿١١﴾ [الشورى: ١١]، واللام في قوله تعالى: ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ [النمل: ٧٢]، ﴿ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ [المؤمنون: ٣٦]، ولا في قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١١٢]، وقوله سبحانه: ﴿ قَالَ يَهْرُونَ مَآ مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ ﴿١١﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ ﴿١٣﴾ [طه: ٩٢، ٩٣]، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ لَتَلَّاعِلَةٌ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ [الحديد: ٢٩]، وقوله سبحانه: ﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ﴿١﴾ [القيامة: ١]، وما على شاكلته من الآيات.

وقوله سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ ﴾ [النساء: ٦٥]، أي: فوربك، وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَى كُمُ إِلَّا دُنَّشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٠٩﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقوله سبحانه: ﴿ وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾

أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ [الأنبياء: ٩٥]، وقوله سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴿ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]، و"ما" في قوله تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ فِيمَا نَقُضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿ وَمِمَّا خَطَبْتَنِيهِمْ أَغْرُقُوا ﴾ [نوح: ٢٥]، و"من" في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٣٤﴾ [الأنعام: ٣٤]، و"الواو" في قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣]، أي: فتحت أبوابها.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا بَرهَيْمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا ﴿ [الصفات: ١٠٣ - ١٠٥]، أي: فلما أسلما تله للجبين". هكذا حصر أستاذنا - رحمه الله - الألفاظ التي عدها النحاة زائدة في خمسة عشر لفظًا، ولكنه كان منصفًا - رحمه الله - فقال بعدها: "ذلك ما أحصاه النحويون من حروف قالوا: إنها زائدة وردت في القرآن يعنون بزيادتها أنهم لا يستطيعون لها توجيهًا إعرابيًا، وإن كانوا يجدونها قد أدت معاني لا تستفاد من الجملة إذا هي حذفت".

يقول: "أما زيادة إذ في الآية الأولى فمما لم يرتضه ابن هشام في مغنيه أي في كتابه (مغني اللبيب) وقال صاحب (الكشاف) أي: الزمخشري وهو أيضًا من النحاة: "إذ" منصوبة بإضمار اذكر، ويجوز أن ينتصب بقالوا وعليه فليست إذ بزائدة أي: أنه يحتج بالكلام بعدم زيادتها بكلام ابن هشام وكلام الزمخشري، وهما من النحاة، وكذلك لم يرتض زيادة "إذا" في قوله سبحانه: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ ﴾

﴿ أَنْشَقَّتْ ١ ﴾ [الانشقاق: ١]، بل رآها شرطية حذف جوابها لتذهب النفس في تقديره كل مذهب أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار، ففي كلتا السورتين قد ذكر جواب إذا فليل في سورة التكوير في الجواب ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ مَا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ [التكوير: ١٤].

وقيل في سورة الانفطار ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ ٥ ﴾ [الانفطار: ٥]، وقال في توجيه آية إلى: إن تهوى بفتح الواو قد ضمنت معنى تميل وهو يتعدى بـ"إلى" فليست على ذلك بزائدة، أي كل هذا الكلام ينسبه إلى ابن هشام - رحمه الله - في اعتراضه على القول بالزيادة في هذه المواضع وبأنها تحمل أشياء أخرى، فهو من النحاة يقصد بـ"إلى" في قوله تعالى: ﴿ تَهَوَّىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: إليها أي: تهواهم، وأم في كلام فرعون ﴿ أَمْرًا خَيْرٌ ﴾ [الزخرف: ٥٢]، ليست زائدة كذلك بل هي منقطعة بمعنى بل، وتفيد الإضراب الانتقالي، وإن في قوله تعالى: ﴿ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ ليست بزائدة بل نافية، والمعنى: ولقد مكناكم في أمور لم نمكنكم فيها، والمجيء بأن هنا أفضل من المجيء بـ"ما" حذرًا من التكرير اللفظي، فبدأ - رحمه الله - بذكر المواضع التي اعترض بعض النحاة على كونها زائدة أصلًا. ثم انتقل إلى ما قالوا فيه بالزيادة أو ما وجهوه على معان أخرى، يقول: "أما أن" في الآيتين الأوليين فزائدة جسيء بها مؤذنة بتراخي حدوث الفعلين بعدها في الزمن تراخيًا عبر عنه القرآن بهذه اللفظ.

ولو أن الفعل كان على الفور لاتصل الفعل بـ"ما" من غير فاصل بينهما إشارة إلى ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ يعني لو لم يكن هناك تراخ في الفترة بين مجيء البشير وبين أخذه القميص من يوسف # لما وضعت أن؛ لأن "أن" تدل على التراخي الزمني بين الحين الذي أرسل فيه، والفعل الذي ذكر بعدها، والباء ليست زائدة

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فالمعنى: لا تكونوا سبباً في هلاك أنفسكم بأفعالكم، أما في قوله تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فالمعنى: امسكي هازة بجذع النخلة، فجيء بالباء مصورة لمريم ممسكة بجذع النخلة تهزها مبعدة هذا الجذع حيناً ومقربة له إليها حيناً آخر. وكذلك في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ **يَسْبِبُ**، فعلى تضمين يمدد بمعنى يتصل أي فليتصل بسبب؛ إذ ليس المراد مطلق مادي سبب إلى السماء بل الهدف أن يعلق المغيظ نفسه بهذا السبب، فساغ لذلك هذا التضمين ودلت عليه.

الشاهد أن ابن هشام - رحمه الله - اهتم في كتابه (المغني) كثيراً بهذه المسائل وبتوضيحها، وبقضية التضمين بل جعلها من الأساليب التي ينبغي أن يتنبه لها من ينظر في القرآن الكريم وإلى هذه المواضع، والقضية مشهورة في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وكون الكاف زائدة أم غير زائدة، وهذه مسائل تفصيلية تحدثوا فيها وأوضحوها وكتب التفسير مليئة بالرد على نحو ذلك، وبعد أن استعرض الشيخ - رحمه الله - هذه المسائل يقول: "ومن كل ذلك يبدو أن ما يمكن عده زائداً إنما هو حروف نادرة جيء بها لأغراض بلاغية وفت بها هذه الحروف الزائدة ويظهر أن تسميتها زائدة معناه أنها لا يرتبط بها حكم إعرابي، لا أنها لم تؤد في الجملة معنى". وهذا هو الإنصاف الذي ذكرته عن هذا الباحث الجليل - رحمه الله.

ثم استطرد - رحمه الله - إلى وجود بعض المعاني في آيات من القرآن ربما يتوهم المتوهم أن بها زيادة يقول: "ورد في القرآن ما يبدو للنظرة السريعة أنه يمكن الاستغناء عنه، ولكن المتأمل يظهر له الدقة البارعة في اختيار هذا التعبير مثال قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِنَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ

اللَّهُ لِيَشْتَرُوا بِهِ، ثُمَّ قَلِيلًا ﴿البقرة: ١٧٩﴾ فتأمل قوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ يصور بها جريمة الافتراء ويرسم بها مقدار اجترائهم على الله، ويؤكد ارتكابهم الجريمة بأنفسهم، وإن شئت فأسقطت تلك الكلمة وانظر إلى فراغ تتركه إذا سقطت.

هو يشير - رحمه الله - إلى أنه ربما يتساءل متسائل: بأي شيء يكتبون الكتاب، الكتابة لا تكون إلا بالأيدي فربما يظن متوهم أن ذكر الأيدي هنا زيادة نستطيع الاستغناء عنه فبين الشيخ - رحمه الله - أن ذكر الأيدي هنا بين معانٍ لا نستطيع أن نتوصل إليها بدون ذكر الأيدي، كذلك في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ١٢٦]، معروف أن السقف لا يخر من تحتهم، فلا يكون إلا من فوق، وهي من اللطائف التي أشار إليها البعض في الآية وعندما قال أحدهم: "فخر عليهم السقف من تحتهم" عوتب ووجهوا إليه نقداً لاذعاً؛ لأنه لا يفقه ما يقرأ أو ما يقال. وكذلك قوله ﷺ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ [النور: ١٥]، وقوله ﷺ: ﴿ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، فأفواهكم تدل في الآية الأولى على أن الحديث الذي يجري على ألسنتهم حديث لم يشترك فيه العقل، ولم يصدر عنه فلذلك كان التعبير: تلقونه بألسنتكم، وتقولون بأفواهكم، أما في الآية الثانية تدل على أن نطق اللساني لا يغير من الحقيقة شيئاً ﴿ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فهو لا يتعدى اللسان إلى ما في الأفئدة من حقائق.

وأشار إلى قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]، ففي ذكر الجوف تأكيد لإنكاره وجود قلبين لرجل، فإذا تصور القارئ جوفاً بادر بإنكار أن يكون فيه قلبان وكذلك ذكر كلمة واحدة في قوله تعالى: ﴿نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣] ﴿فَذَكَّنَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، فهو يوحى بقصر النفخة وسرعة الدكة، وفي ذلك من إثارة الرعب وتصوير شدة الهول ما

فيه ، وكذلك في وصفه ﷺ مائة الثالثة الأخرى ، في قوله ﷺ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم: ١٩ ، ٢٠] ، فيقول: "تجد فيه وصف مائة بالثالثة زيادة عن ما فيه من الحفاظ على الاتساق القرآني والموسيقى المناسبة ، إشارة إلى ما مني به هؤلاء القوم من ضعف في العقول ، وفساد في التفكير حتى إنهم لم يقفوا بإشراكهم عند حد إلهين بل زادوا عليهما ثالثاً ، وذلك فيه تهكم مرير عليهم".

وفي قوله ﷺ: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٦] ، فالعشرة معلومة من الثلاثة والسبعة إلا أن ذكر ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ أفاد أن التفريق بين هذه الأيام لم ينقص الأجر بل أجزها كامل كما لو كانت متوالية ، فنسب الكمال إليها لكمال أجزها عند الله ﷻ.

هكذا نختتم كلامنا عن قضية الزيادة ، ونرجو أن يكون قد اتضحت لكم بأنها خلاف لفظي ، وأن النحاة وغيرهم آثروا استخدام لفظ "الصلة" أفضل من لفظ "الزائد" أو "اللغو" ؛ لأنهم لا يريدون بأنه لا يؤثر على المعنى ، حاشى الله ، وأن كلام الله ﷻ منزّه عن أن يكون فيه ما لا يفيد في مجال المعنى.

الفصل والوصل

عناصر الدرس

- العنصر الأول : معنى الفصل والوصل عند النحاة والبلاغيين ٤٠٩
- العنصر الثاني : مواضع الفصل والوصل ٤١٥

معنى الفصل والوصل عند النحاة والبلاغيين

نتناول وجه من وجوه الإعجاز اللغوي في القرآن، وهو استخدام الفصل والوصل، وابتداءً نودُّ أن نُبينَ أنّ هذا الباب من أبواب البلاغة، والإعجاز في القرآن، باب عظيم لا يتنبه له إلا أولو الفطنة من أصحاب البلاغة، ولذا نبه العلماء على أهميته، وأهمية معرفته وفهمه؛ لأنّ ذلك يبين روعة القرآن في استخدام هذين الفنين من فنون البلاغة.

يقول الجرجاني مبيناً أهمية هذا الفن، يقول: "اعلم أنّ العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل؛ من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة؛ تُستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، وممّا لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنّاً من المعرفة في ذوق الكلام، هم بها أفراد - أي: منفردون عن غيرهم - وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدّاً للبلاغة؛ فقد جاء عن بعضهم: أنه سُئل عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل، ذاك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة".

ويقول أيضاً الجرجاني في هذا المجال: "واعلم أنّ ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفي غامض ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب، وقد قنع الناس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف: إنّ الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله، لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك، ولقد غفلوا غفلة شديدة".

يتضح من كلام هذا الإمام الجليل أن الفصل والوصل هو العطف وعدم العطف، أي: متى تعطف جملة على أخرى بحرف العطف، ومتى لا تعطفها؟. وقد تطور هذا الفن وهذا المصطلح على مدار الدرس البلاغي للقرآن الكريم، فبدأ في أقوال الأئمة الأولين من أمثال سيويه في كتابه، والفراء في كتابه (معاني القرآن) ثم تطور المصطلح عند العلماء وتحدثوا فيه، إلى أن جاء الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) وأوضح نظرية "الفصل والوصل"، ووضع لها ضوابط ومصطلحات تطورت بعده، إلى أن أتى السكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) وقعد مسائل الفصل والوصل، وجعلها مهية للدرس.

ومن ثم نجد العلماء يختلفون في تناولهم لهذه المسألة، ما بين مطلق لها العنان، ومتأمل في جوانبها، وموضح ما فيها، مع الأخذ والرد لأقوال العلماء والاهتمام بها، ودراستها في ضوء الدرس اللغوي الحديث، كما فعل أستاذنا منير سلطان؛ فأفرد بحثاً بعنوان: "الفصل والوصل في القرآن الكريم، دراسة في الأسلوب" فحاول أن يبرمج في كتابه هذه النظرية، متتبّعاً تطورها، ومظهرًا فنونها وأركانها، ومحددًا مصطلحاتها مع بيان نماذج من القرآن والتطبيق عليها في الفنين. ومنهم من تناولها تناولًا أكاديميًا تقليديًا كتناول السكاكي عندما جعلها قواعد تدرس، وهذا ما عليه كثير من الباحثين، وآخرون يتناولون القضية على مذهب الأقدمين، وعلى الطريقة التقليدية، ولكنهم يبينون فيها وجهًا من الخلاف، ويرجعون أشياء ويذكرونها، ويرون أشياء تصلح للدرس البلاغي، موضحين من خلال كلامهم: أن ليس كل ما قيل من مصطلحات سنذكرها لك في محل الاتفاق، وإنما قد يؤخذ عليه مأخذ، ويرد عليه أمور، ومن ثم فالمسألة تحتاج إلى تحليل ودرس دقيق.

وهذا ما فعله العلامة أبو موسى في كتابه (دلالات التراكيب دراسة بلاغية)، حيث أفرد بحثاً عن الفصل والوصل، وتناول كلام الجرجاني ونظريات السابقين، ومن خلالها بدا له بعض الاعتراضات على هذه التقاسيم، وهذه التفاريع.

ويكفيك في هذا المجال أولاً أن نذكر لك أن اهتمام البلاغيين بالحديث عن الواو التي تُذكرُ؛ فتصل الجملة بأختها، أو تترك فتدع الجملتين منفصلتين؛ قد غالوا في تقدير معرفة الموضع الذي تصلح فيه الواو، والموضع الذي لا تصلح فيه الواو؛ حتى قصر بعض العلماء البلاغة على معرفة الفصل والوصل. وقد قصرُوا حديثهم في ذلك الموضع على الجمل التي لا محل لها من الإعراب، وهذا لأنَّ الجمل التي لها موقع من الإعراب، ويكون موضع الواو فيها من الوضوح بمكان؛ لأنها تشرك الجملة الثانية في حكم الأولى، فتكون مثلها: خبراً أو صفة أو حالاً أو مفعولاً أو غير ذلك، والأمر فيه سهل يبين. أما الذي يشكُّل فإن تعطف على الجملة التي لا موضع لها من الإعراب، جملة أخرى؛ فهنا تقف لترى لم لم يستو الحال بين أن تعطف وبين أن تدع العطف؟.

هذا كلامهم في مسألة الفصل والوصل وقصرهم عليها على استخدام الواو دون غيرها من حروف العطف، وذلك عند المتأخرين عندما بينوا أن الوصل يكون باستخدام الواو عاطفة بين الجملتين، وأن الفصل يكون بعدم استخدام الواو عاطفة بين الجملتين. فإن سألنا لماذا اختصت الواو بالحديث في هذا الباب دون غيرها؟ قيل لك: لأنَّ غيرها من حروف العطف، تُفيد مع الإشراك معانٍ كأنَّ تدل الفاء على الترتيب من غير تراخٍ، وثم على الترتيب مع التراخي، و"أو" للتردد بين شيئين؛ فإذا عطفت جملة على جملة، بواحد منها ظهرت فائدة هذا

الحرف واضحة جلية ؛ أما الواو فإنها لما كانت مُطلق الجمع لا تُصلُ جُملة بأخرى ؛ إلّا إذا كان المعنى في إحدى الجملتين متصلًا بمعنى الجملة الأخرى ومرتبًا به. فالخلاصة: أنّ الفصل والوصل هو العطف وترك العطف، ومَن أسس هذه النظرية كنظرية لها مبادئ وأصول، هو الجرجاني ولكنه التزم بالأساس النحوي لدراسة الفصل والوصل، فبناها على قواعد النحو ولم يغفل أن الأمر ليس مجرد عطف جملة على جملة، وإنما هو وصل معنى بمعنى لاعتبارات جمالية ؛ ففصل معنى عن آخر، ووصل معنى بآخر يحتاج إلى أقوام ذوي ذوق.

ونشير إلى ما نبه عليه أستاذنا الدكتور لاشين من بداية هذه الظاهرة، بهذا الفهم الذي فهمه الجرجاني في كتاب (معاني القرآن) للفراء وعرضه نماذج من ذلك في كتاب الفراء. فعند حديث الفراء عن قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنبَجْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّوكم بِأَبْنَاءِكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٦٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَّبُّوكم بِأَبْنَاءِكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٩] والفرق بين ذكر الواو ﴿ وَيُدَّبُّوكم ﴾ وتركها ﴿ يُدَّبُّوكم ﴾.

يقول الفراء موضحًا الفرق بين الأسلوبين: "فمعنى الواو أنه يسهم العذاب غير التذبيح، كأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح. ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب، وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملًا في كلمة، ثم فسرتة فاجعله بغير الواو، وإذا كان أوله غير آخره فالبواو".

هذا النص من كلام الفراء يوضح الفرق بين استخدام الواو، وعدم استخدامها، وهو ما انتهى إليه العلماء في بيان الفصل والوصل، ويقول أيضًا في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ

يَفْعَلُ ذَلِكَ يَلْقَأُهَا ۖ ﴿٦٨﴾ يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٨﴾ الفرقان: ٦٨ ، ٦٩ ، يقول :
 " فالآثام فيه نية العذاب قليلة وكثيره ، ثم فسره بغير الواو ، فقال : ﴿ يُضَعَفُ لَهُ
 الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ألا ترى أنك تقول : " عندي دابتان بغل وبرذون " ولا
 يجوز : عندي دابتان وبغل وبرذون ، وإنما نريد تفسير الدابتين بالبغل والبرذون ،
 ففي هذا كفاية عما نترك فقس عليه . ويقول في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنْتَجِدُهَا هَبْرًا
 قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ البقرة: ١٦٧ . يقول : " ﴿ قَالَ أَعُوذُ
 بِاللَّهِ ﴾ وهذا في القرآن كثير بغير الفاء ، وذلك لأنه جواب يستغني أوله عن آخره
 بالوقف عليه ، فيقال : ماذا قال لك ؟ فيقول القائل : قال كذا وكذا ؛ فكأنَّ حُسْنَ
 السُّكُوتِ يَجُوزُ بِهِ طَرَحُ الْفَاءِ ، وأنت تراه في رءوس الآيات ؛ لأنها كفصول
 حسنى ."

فترى من هذه النصوص أن الفراء ينص على التسمية بأن رءوس الآيات إذا
 جاءت منفصلة عما قبلها ؛ فهي فواصل ، كما أنها إذا كانت واقعة في جواب
 لسؤال مقدر ، تنفصل الآية عما قبلها ، كما يفصل الجواب عن السؤال ؛ وهذا ما
 عرفه المتأخرون بشبه كمال الاتصال .

والآن نذكر ما ذكره الجرجاني ، وأشار إليه ، وتغافل عنه الكثيرون بعده عند
 تحديد المصطلح وبيانه ، فاقترضوا على عطف الجمل ، وهو أن نشير إلى الحديث
 عن وصل المفردات وفصلها ، تعطف المفردات بعضها على بعض بالواو إذا
 حصل التناسب ووجد التجانس ؛ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا
 ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا
 عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣] . فكل ما عطف بالواو يندرج تحت جنس
 المحرمات ، التي حرّمها الله ﷻ .

وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فالإيمان بالله والملائكة والكتب والرسول من جنس الإيمان الذي آمن به رسولنا الكريم والمؤمنون برسالاته، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبا: ٢٢]، فكل ما عطف يندرج تحت علم الله ﷻ ولا بد في عطف المفردات من وجود الجهة الجامعة، والتناسب بينهما، كما هو حاصل في الآيات الكريمة التي قرئت.

وقد جرى الاستعمال القرآني على ألا يعطف بعض الصفات على بعض، إلا إذا كان بينهما تضاد. يقول المولى ﷻ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَزِينْنَ لِأَنْفُسِنَّ يُغِيبُ عَنْكُنَّ مَسْجِدَ الْكَافِرِينَ وَالْجَمْعَ الْمُنَافِقِينَ﴾ [التحريم: ٤٥]، فتلاحظ أن الصفات جميعها لم تقترن بالواو إلا في قوله تعالى: ﴿ثِيَابُكَ وَسِتْرٌ حَسْبُكَ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٤٥]، ودفع توهم من يستبعد ذلك.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٢٣]، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى [الحشر: ٢٣، ٢٤] فكلها ذكرت دون الواو؛ فلم يقل: الملك والقدوس والسلام... إلى آخره وإنما لم تستخدم الواو في هذا الموضع من تعدد الصفات؛ لأنها تندرج تحت تناسب وتحت معنى واحد، وهو أسماء الله الحسنى وصفاته العليا جل في علاه؛ فلما تضادت الصفات عطف بالواو كقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

مواضع الفصل والوصل

دواعي عطف الجملة على أخرى اسمية أو فعلية، أو ما يسمى بمواضع الوصل:

انتهى العلماء إلى أن الوصل بين الجمل يكون في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: أن تكون الجملة الأولى لها محل من الإعراب، وأريد إعطاء الثانية هذا الحكم الإعرابي، وكانت هناك مناسبة، ولا مانع من الوصل.

الموضع الثاني: أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشأً، لفظاً ومعنى أو معنى فقط، مع وجود المناسبة بينهما، وليس هناك مانع من الوصل.

الموضع الثالث: أن يكون بين الجملتين كمال انقطاع مع إيهام الفصل خلاف المقصود.

الموضع الأول: أن تكون الجملة الأولى لها موقع من الإعراب وأريد إعطاء الثانية هذا الحكم الإعرابي، وكان هناك مناسبة ولا مانع من الوصل: انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْضُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٥)، تجد استخدام الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَبْضُطُ﴾ فجملة: ﴿يَقْضِي﴾ جملة فعلية في محل رفع خبر عن لفظ الجلالة ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي﴾، وعُطِفَتْ عليها جملة ﴿وَيَبْضُطُ﴾ وأريد إشراكها مع الجملة السابقة في الحكم الإعرابي؛ إذ المولى ﷻ يقبض ويبسط، فيشتركان في حكم إسنادهما إلى المولى ﷻ. فالمقصود تصور عظمة الله سبحانه حين يجمع بين القبض والبسط، وبين الجملتين تناسب؛ إذ القبض ضد البسط، والضد أقرب خطوراً بالبال عند ذكر ضده؛ لذا عطفت الجملة الثانية على الجملة الأولى لهذا الغرض.

وكذلك لو نظرت في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧]، فجملة: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ﴾ واقعة خبراً لاسم الموصول، وجملة: ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ تشارك الجملة التي سبقتها في حكمها الإعرابي؛ إذ المقصود من الآية الإخبار عن الاسم الموصول بأمرين:

الأول: أنهم لا يستطيعون نصراً لمن يعبدونهم.

الثاني: أنهم لا يملكون نصراً لأنفسهم؛ لهذا عطفت الجملة الثانية على الأولى، والتناسب واضح بين الجملتين. فبان لك في هذين المثالين ما وضحوه في الموضع الأول بإشراك الجملة الثانية مع الأولى في الحكم الإعرابي. ووجود المناسبة وعدم وجود مانع من الوصل. ولذلك عاب النقاد البيت المشهور لأبي تمام عندما يقول في مدح أبي الحسين بن الهيثم:

زعمت هواك عفا الغداة كما عفا ❖ عنها لال باللوى ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى ❖ صبر وأن أبا الحسين كريم
ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت ❖ نفسي على إلف سواك تحوم
فالرجل هنا يخاطب محبوبته، ويريد في ثنايا الكلام أن يمدح أبا الحسين بن الهيثم فيقول:

لا والذي هو عالم أن النوى ❖ صبر وأن أبا الحسين كريم
فاستخدم "الواو" ووصل الجملتين مع عدم وجود مناسبة بينهما، وعدم إرادة إشراك الجملتين في الحكم الإعرابي فتساءل العلماء: ما الصلة بين أن النوى صبر - يعني الفراق صعب - وبين كرم أبي الحسين؟ فالرجل هنا قال كلاماً انتقد فيه، وذكر النقاد هذا مثلاً لاستخدام الوصل في موضع لا مناسبة فيه بين

الجملتين، وإن كنت أرى - والله أعلم - أن أبا تمام على قدر من الفصاحة والبيان يدفعه عن الوقوع في مثل هذا الخطأ البين؛ فكأنه يريد في هذا المعنى أن يبرز شيئاً وهو أن أبا الحسين وكرمه قد ملأ عليه جوارحه فإذا به يذكره في مخاطبته لحبيته، هذا والله أعلم.

الموضع الثاني: من مواضع الوصل هو أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشأً، لفظاً ومعنى أو معنى فقط، مع وجود المناسبة بينهما وليس هناك مانع من الوصل، وينطبق هذا في ثلاث صور:

الصورة الأولى: اتفاق الجملتين في الخبرية لفظاً ومعنى، انظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، فالجملتان خبريتان مؤكدتان بأن ودخول اللام على الخبر، ووقع بينهما حرف العطف؛ فهما متفقتان في الخبرية لفظاً ومعنى. والتناسب ظاهر بينهما، فالأبرار ضد الفجار، والكون في النعيم ضد الكون في الجحيم، فلذلك عطفت الثانية على الأولى. ومثلها قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس: ٣١]، فالجملتان خبريتان لفظاً ومعنى، والتناسب واضح فيهما إذ المسند إليه والمسند فيهما واحد، لذلك عطفت الثانية على الأولى.

الصورة الثانية: اتفاق الجملتين في الإنشائية لفظاً ومعنى، ونظير ذلك كثير في القرآن منه قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، فالجمل الثلاث جمل إنشائية الأولى والثانية أمر، والثالثة نهي، والأمر والنهي والاستفهام والنداء كل ذلك ضرب من ضروب الإنشاء. الشاهد أن الجملتين إنشائيتان ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الجمل الثلاث إنشائية وعُطف بينها

بالواو فلا يصح أن يقال: وكلوا اشربوا لا تسرفوا، فتعين العطف بالواو لوجود الاتفاق في الجملتين لفظاً ومعنى.

الصورة الثالثة: اتفاق الجملتين في الخبرية أو الإنشائية في المعنى فقط، وإن اختلفتا في اللفظ.

يعني الصور الثلاث تقسيمة منطقية - كما يقال - الأولى: الاتفاق في الخبر، لفظاً ومعنى، الثانية: الاتفاق في الإنشاء لفظاً ومعنى، الثانية: الاختلاف أحدهما إنشائية لفظاً خبرية معنى، تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، فجملة: ﴿وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ عطفت على جملة ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وجملة: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ فالمعنى فيها على حكاية النهي.

أما جملة: ﴿وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ فهي إنشائية لفظاً ومعنى إذ التقدير: "وأحسنوا بالوالدين إحساناً". فهي بصيغة الأمر تكون إنشائية لفظاً ومعنى، وعكس ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ﴾ [الشرح: ١ - ٤]، فجملة: ﴿وَوَضَعْنَا أَلَّذِي أَنْفَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ﴾ [الشرح: ١ - ٤]، فجملة: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ خبرية لفظاً ومعنى، وعطفت على جملة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وهي خبرية معنى، إنشائية لفظاً؛ لأنّ ظاهرها أنها على الاستفهام، والاستفهام ضرب من ضروب الإنشاء؛ أمّا حَقِيقَتُهَا فهي على الإخبار؛ فإن الله ﷻ يُعَدُّ على رسوله الكريم النعم التي أولاه إياها من شرح الصدر، ووضع الوزر ورفع الذكر؛ فالمعنى: شرحنا لك صدرك، وبذلك اتفقت مع الثانية فصح العطف بينهما لوجود الجامع ولا مانع من العطف.

الموضع الثالث: من مواضع الوصل أن يكون بين الجملتين كمال انقطاع، مع إيهام الفصل خلاف المقصود، وهذا يُمثل له البلاغيون بهذه العبارة الجميلة، التي كانت من أبي بكر < عندما مر برجل في يده ثوب، فقال له الصديق: "أتبيع هذا؟ فقال: لا يرحمك الله. فقال له: لا تقل هكذا، ولكن قل: لا يرحمك الله". فتجد أن الجملة الأولى خبرية في اللفظ والمعنى؛ فهو يقول: لا، التقدير لا أبيع هذه جملة خبرية. والجملة الثانية "يرحمك الله" خبرية في اللفظ إنشائية في المعنى؛ لأنه يريد بها الدعاء، فليس بين الجملتين اتفاق في المعنى، ولكن لما كان عدم استخدام الواو يوهم بخلاف المقصود، بأننا إذا كان الكلام: لا يرحمك الله توهم منه أنه قد يكون داعياً عليه، لا داعياً له؛ فأرشد الصديق < أن يضع الواو أن يقول: "لا يرحمك الله". لذا وجب العدول عن الفصل إلى الوصل بالواو دفعاً لهذا الإيهام.

ومما استشهدوا به على حسن ذلك ما روي أن الرشيد سأل وزيره عن شيء، فقال له: "لا، وأيد الله الخليفة". لأنه لو طرح الواو وقال: لا أيد الله الخليفة، رُبما تسبب ذلك في هلاكه لظنه أنه يدعو على الخليفة لا يدعو له، ولذا قال من حضر: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ في خدود المرد الملاح.

مواضع الفصل:

أي: عدم العطف، وعدم استخدام الواو وهذه المواضع خمسة: كمال الاتصال، وكمال الانقطاع، والتوسط بين الكمالين، وشبه كمال الاتصال، وشبه كمال الانقطاع. فأول موضع هو:

كمال الاتصال:

ويقصد به أن تتحد الجملتان اتحاداً تاماً؛ بحيث تنزل الثانية من الأولى منزلة نفسها، ويكون ذلك في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى تأكيداً لفظياً أو معنوياً، وأشير أن هناك فرقا بين كلام البلاغيين عن التوكيد، وكلام النحاة عن التوكيد؛ فالتوكيد اللفظي عند البلاغيين: يعني به اتحاد المضمون بين التابع والمتبوع، كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رَوْدًا ۗ ﴾ [الطارق: ١٧]، ف ﴿ أَهْلَهُمْ رَوْدًا ۗ ﴾ توافق الجملة الأولى في اللفظ والمعنى، وهو توكيد لفظي للأولى وبذلك أصبحت الصلة قوية بين الجملتين لا تحتاج إلى رابط؛ لأن التوكيد من المؤكد كالشيء الواحد، ومن ثم ترك العطف لعدم صحة عطف الشيء على نفسه.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَنَاتٌ لِّمَا كَانَتِ تَكْتُمُ أَخْبَارَهُنَّ ۚ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ خِزْيَانٌ لِّهُنَّ يَتَكْتُمْنَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ۗ ﴾ [البقرة: ١، ٢]، فجملة ﴿ هُدَىٰ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ هي مضمون الجملة الأولى ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدَىٰ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إذ معنى ﴿ هُدَىٰ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أنه الكتاب الكامل في الهداية، وذلك لما في تنكير ﴿ هُدَىٰ ﴾ من الإبهام الدالّ على التفخيم؛ فهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الكتاب هدى فهو الهداية نفسها، وهذا بعينه هو المقصود من قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ إذ إن معناه: ذلك الكتاب الكامل في الهداية، فهي بمثابة التوكيد اللفظي لسابقتها. ومثال التوكيد المعنوي قوله تعالى: ﴿ وَوَنَرَىٰ الْإِنسَانَ أَنذَرْنَا لَهُ أَلَمًا يَوْمَ الْمَوْتِ وَوَنَرَىٰ الْإِنسَانَ سَاهِيًا يُرَىٰ ۖ فَجَعَلْنَا لَكُمُ الْعَيْنَ ۖ فَتَجِدَ الْجُمْلَةَ الثَّانِيَةَ: ﴿ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ لا تختلف من حيث المعنى عن سابقتها ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ [البقرة: ١٤] لأنهم يقولون: آمننا من غير أن يكونوا مؤمنين؛ فلا فرق في المعنى بين الجملتين؛ فمعنى الآية الثانية يؤكد مضمون معنى الأولى توكيداً معنوياً، ومن ثم ترك العطف بالواو؛ لأن اتحاد الجملتين يمنع العطف، كما قلنا لأن الشيء لا يعطف على نفسه.

الموضع الثاني: أن تكون الجملة الثانية بدلاً من الأولى، والبدل أنواع؛ فهناك بدل كل من كل، وبدل بعض من كل، وبدل اشتمال، فمثال بدل الكل قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) ﴿قَالُوا إِنْ دَأَمْتُمْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَّعِظْمًا إِنْ نَأْتِيَنَّامُ لَمَجُوعُونَ﴾ (٨٢) ﴿المؤمنون: ٨١، ٨٢﴾، فجملة ﴿قَالُوا﴾ الثانية بدل مطابق، أو بدل كل من كل من الجملة الأولى؛ لأن الثانية شارحة وموضحة، وأوفى بتأدية المعنى من الأولى؛ فالثانية واقعة موقع بدل الكل منها، ولذا ترك العطف لقوة الربط بين الجملتين. ومثال بدل البعض قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الَّذِينَ أَمَدُّرُ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٣٢) ﴿أَمَدُّرُ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ﴾ (١٣٣) ﴿الشعراء: ١٣٢، ١٣٣﴾، فصلت الجملة الثانية عن الأولى؛ لأن الثانية بمثابة بدل البعض، لأن ما يعلمونه يشمل ما في الجملة الثانية من النعم الأربع، وغيرها من سائر النعم، ومن ثم لم يعطف بين الجملتين بالواو، لقوة الربط بينهما.

وكذا قوله تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ (الرعد: ٢٢)، فجملة ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ بمنزلة بدل البعض من قوله تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾. ومثال بدل الاشتمال قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠) ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٢١) ﴿يس: ٢٠، ٢١﴾، ف﴿اتَّبِعُوا﴾ الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من ﴿اتَّبِعُوا﴾ الأولى لأن المراد من الأولى حمل المخاطبين على اتباع الرسل، والجملة الثانية أوفى بهذا؛ لأن معناها: لا تخسروا شيئاً من دنياكم، وترجعون صحتة دينكم؛ فيكون لكم جزاء الدنيا والآخرة.

الموضع الثالث من مواضع كمال الاتصال: أن تكون الجملة الثانية بياناً للأولى وإيضاحاً لها؛ أي: عطف بيان يبين الجملة السابقة، ومثاله قوله تعالى:

﴿ فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ۗ ﴾ [طه: ١٢٠]، فجملة ﴿ قَالَ يَتَّادِمُ ﴾ بمنزلة عطف البيان من الجملة الأولى ﴿ فَوَسَّوْا ﴾ وعطف البيان لا يُعطف على متبوعه، ومن ثم ترك الوصل بالواو وفصل بين الجملتين.

كمال الانقطاع:

كمال الانقطاع معناه أن يكون بين الجملتين تباين تام، كأن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً، لفظاً ومعنى، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ جملة إنشائية لفظاً ومعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ جملة خبرية لفظاً ومعنى، فبينهما تباين تام وانقطاع كامل، مما يستوجب الفصل بينهما، وليس في الفصل ما يوهم خلاف المقصود فيجب الوصل، كما في الصورة الثالثة من كمال الاتصال وهي قول الصديق <: "لا ويرحمك الله". ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ جملة خبرية لفظاً ومعنى ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ جملة إنشائية لفظاً ومعنى. الصورة الثانية: يمثل لها البلاغيون بقولهم: نجح خالد وفقه الله، فالجملة الأولى خبرية لفظاً ومعنى، والجملة الثانية خبرية لفظاً إنشائية معنى، وليس في الفصل بينهما ما يوهم خلاف المقصود.

الصورة الثالثة: ألا يكون بين الجملتين مناسبة أصلاً، ويمثلون لها بقول الشاعر:

الفقر فيما جاوز الكفاف ❖ من اتقى الله رجا وخاف

فلا صلة بين الجملتين ؛ ولذا تعين الفصل وعدم الوصل بالواو.

شبه كمال الاتصال :

وهو: أن تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال يفهم من الجملة الأولى ، وهذا ما اهتم به الجرجاني وذكر له أمثلة عديدة في كتابه (دلائل الإعجاز) من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۗ ﴾ [يوسف: ٥٣] ففصلت الجملة الثانية ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۗ ﴾ عن الأولى ؛ لأنها واقعة في جواب سؤال مقدر، وكأنه قيل: هل النفس أمارة بالسوء؟ فقيل: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۗ ﴾ . وكذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۗ ﴾ [هود: ٤٦]، فصلت الجملة الثانية ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۗ ﴾ عن الأولى ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴾ لأن الثانية وقعت جواباً لسؤال الجملة الأولى ، وهو كيف لا يكون من أهلي وهو ابني؟! فكان الجواب عن ذلك: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۗ ﴾ فالجملة الثانية مرتبطة بالأولى ارتباطاً وثيقاً كما يرتبط الجواب بالسؤال ولهذا ترك العطف ؛ لأنّ الجواب لا يعطف على السؤال.

ومن ذلك كل ما ورد في القرآن الكريم من الجمل المصدرية بلفظ "قال" مفصلاً عما قبله كقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرُمِ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۗ ﴾ [٢٥] فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ۖ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۗ ﴾ [٢٧] فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۗ ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٨]. كأنها حوار فيه استفسارات وإجابات عنها وارجع إلى (الدلائل) فإنه بينها تمام البيان.

شبه كمال الانقطاع :

وهو أن تسبق جملة بجملتين ، يصح عطفها على إحداهما ، ولا يصح عطفها على الأخرى لفساد المعنى ؛ فيترك العطف كلية ، دفعاً لتوهم أن تكون الجملة

معطوفة على التي لا يصح العطف عليها، وهذا الموضع فيه كلام، واستدل له البلاغيون بشواهد من الشعر، وبينوا أن هذه الشواهد يُمكن أن تحمل على شبه كمال الاتصال فتدخل فيه؛ فلذا رأى العلامة أبو موسى أن هذا الوجه الرابع من أوجه التكلف، ولكننا نوضح البيت الذي استشهدوا به جرياً على ما صنفوا في تصانيفهم في هذا الباب وهو قول الشاعر من بحر الكامل:

وتظن سلمى أنني أبغي بها ❖ بدلا أراها في الضلال تهيم

فجملته "أراها في الضلال تهيم" لم توصل بالواو، وفصلت مع وجود الجهة الجامعة بين الجملتين؛ وذلك لثلاثي توهم السامع أنها معطوفة على جملة "أبغي بها بدلاً" لقربها منها؛ فتكون حينئذٍ من مضمونات سلمى، ويصير المعنى: "أن سلمى تظن أنني أبغي بها بدلاً، وتظن أنني أظنها تهيم في الضلال" وليس هذا مراد الشاعر وإنما مراده: أن سلمى مخطئة في زعمها أنني أبغي بها بدلاً.

التوسط بين الكمالين مع قيام المانع من الوصل:

وهو أن تكون الجملتان متفتحتين خبراً أو إنشاءً، وبينهما رابطة قوية، لكن يمنع من العطف مانع، وذلك بأن يكون للجملتين الأولى حكم، لم يقصد إعطاؤه للثانية.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، فصلت جملة ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ عن جملة ﴿ إِنَّمَا مَعَكُمْ ﴾ مع التناسب ووجود الجامع بينهما المصحح للعطف، لوجود المانع وهو أنه لم يقصد تشريك جملة ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ لجملة ﴿ إِنَّمَا مَعَكُمْ ﴾ في الحكم الإعرابي، وهو أنها مقول القول؛ فيقتضي ذلك

أن جملة ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ تكون من مقول المنافقين، وهي ليست كذلك بل هي من كلام الله ﷻ ولذلك فصل بينها.

وهذا باب دقيق من أبواب البلاغة - كما ذكرت لكم - وبهذا تنتهي الصور الخمس لمواضع الفصل التي ذكرها البلاغيون، ويبقى لنا فقط تعليق على هذه المواضع من كلام العلامة أبي موسى، وبيان محسنات الوصل، واستخدامه في الكلام.

الفصل والوصل في القرآن

عناصر الدرس

- العنصر الأول : تعليق الدكتور محمد أبي موسى على مسألة ٤٢٩
الفصل والوصل في القرآن
- العنصر الثاني : الفروق في الاستخدامات، وما بها من إعجاز ٤٣٦
بياني في نظم القرآن
- العنصر الثالث : الغاية من دراسة الفروق في الحال ٤٤٠

تعليق الدكتور محمد أبي موسى على مسألة الفصل والوصل في القرآن

نبدأ بما انتهينا به من الحديث عن مبحث الفصل والوصل ، وقلنا: إن لنا تعليقا على دراسة هذا المبحث من الناحية البلاغية ، وهذا التعليق لأستاذنا العلامة الدكتور محمد أبي موسى أشار إليه في كتابه (دلالات التراكيب : دراسة بلاغية) ، فعقب على دراسة البلاغيين لهذا المبحث بالنظر إلى الأسلوب القرآني ، وهذا الذي هو غاية دراستنا ، فلذا يجدر بنا أن نقف مع هذا التعليق للدكتور محمد أبي موسى.

عندما يعرض أستاذنا هذا المبحث يجد أشياء ينبه إليها ، فيقول: "قد تجد هذه الأساليب وقد جاءت موصولة بالواو" ، أي: ما نص البلاغيون على أنه يجب فيه الفصل ، وعدم الوصل بالواو جاء بعضه موصولا بالواو ، فأشار إلى مواضع:

الموضع الأولي: هو ما أطلقوا عليه كمال الاتصال ، يقول: "ومما وقعت فيه الواو مع الجملة المنزلة منزلة التوكيد قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧] ، فعطف قوله: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [٧] على سابقه ، وإن كان الميثاق هنا هو الميثاق هناك ، والأخذ هنا هو الأخذ هناك ، ليوهم أنه لما وصف بأنه غليظ صار كأنه ميثاق آخر ، وذلك تفخيم لشأن الميثاق ، وتنويه به ، وعلى طريقته قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٨] فقد عطف ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ ﴾ على ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ وإن كانت النجاة واحدة وذلك ؛ لأنه لما ذكر ما نجاهم منه كانت النجاة الثانية كأنها نجاة مختلفة عن الأولى ، فعطفها عليها تمييزا لها ، وتفخيما لشأنها ،

والجملة التي تأتي في عقب الكلام مؤكدة له، والتي تتكاثر في القرآن قد ترد بالواو كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤) النمل: ٢٣٤.

نجد أمثال هذا في القرآن يأتي بغير الواو كثيراً، وقد آذنت هذه الواو أن ذلك عادة من عاداتهم، ووجه هذه الدلالة أن الواو تشير إلى المغايرة، فكأنهم يفعلون ذلك، ويفعلون مثله، وقد جاء قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ (١٥٢) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ (الشعراء: ١٥٣، ١٥٤)، من غير واو في حكاية ما قالته ثمود لصالح # وجاء في حكاية ما قاله أصحاب الأيكة لشعيب: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ (الشعراء: ١٨٥، ١٨٦) بالواو". هذا أول ما نبه إليه أستاذنا في ورود بعض الأساليب التي نصوا على أنها يجب فيها الفصل جاءت موصولة بالواو؛ ولذلك يقول: "هذا هو كمال الاتصال بشعبه الثلاثة: التوكيد والبيان والبدل، وهو حال من أحوال الفصل، وإن كنا نراه والذي يليه حالاً من أحوال الوصل؛ لأن الوصل في الحقيقة وصلان: وصل ظاهر بحرف الوصل، ووصل خفي تتصل فيه الجملة من ذات نفسها، وهو أقوى الوصلين". ويعقب أيضاً على ما ذكر في شبه كمال الانقطاع، يقول: "أما شبه كمال الانقطاع، فهو أن تكون الجملة الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى يعني: أنها صالحة لأن تعطف، ولكن عطفها عليها يوهم عطفها على غيرها، فيلتبس المعنى وحينئذٍ يجب القطع، فيقول: قد نبهوا إلى أن هذه السور يمكن أن تكون من شبه كمال الاتصال، وبذلك يبقى شبه كمال الانقطاع باباً فارغاً من أي شاهد، وهذا هو الوجه الذي نرضاه".

فيشير إلى أننا نستطيع أن نستغني عما يسمى بشبه كمال الانقطاع، وأنه يندرج في شبه كمال الاتصال، ويستدل على ذلك بآيات من كتاب الله، فيقول: "قد جاءت آيات على هذا النسق ومعها الواو من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴾ [١٣] ﴿ العنكبوت: ١٢ ﴾، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [١٤] ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، فقوله سبحانه: ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [العنكبوت: ١٢]، شبيه بقوله سبحانه: ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ من جهة أنه ليس داخلاً في الكلام السابق، وقد جاء بالواو وهي الواو التي يعطف بها مضمون كلام، ولا يتوهم دخولها في حكم ما قبلها يعني في حيز قول ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ويمكن أن تكون عاطفة لهذه الجملة، وما بعدها على جملة ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وبهذا تدخل في حيز القول لأنها معطوفة عليه، وليست معطوفة على معموله، وتكون الواو هنا مفيدة معنى خبراً ثانياً عنهم يعني: أنهم قالوا لهم: اتبعوا سبيلنا ونحمل خطاياكم وأنهم لن يحملوه".

ويعقب أيضاً على مسألة عطف الخبر على الإنشاء، ويقول: "وجدنا الواو تقع كثيراً بين الخبر والإنشاء ومن ذلك ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [٧] ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [٨] وهَلْ أَتَاكَ

العبار النوي في القرآن الكريم

حَدِيثُ مُوسَى ⑨ ﴿طه: ٧ - ٩﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَأَيِّنُّهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ⑩﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ⑪ ﴿ص: ٢٠، ٢١﴾، فواضح من الآيات الكريمة عطف الخبر على الإنشاء، والإنشاء على الخبر، وهذا الذي ذكره الدكتور أبو موسى يقره كل منصف في تناوله لهذا المبحث؛ ولهذا حصر الدكتور منير سلطان أوجه القصور في دراسة مبحث الفصل والوصل في خمس نقاط؛ وهي:

أولاً: هذه القواعد التي قرروها خصت الفصل والوصل بالجمل، والقرآن الكريم قد فصل ووصل بين الجمل وبين المفردات أيضاً.

ثانياً: أنها حصرت الفصل في أداة واحدة، وهي طرح الواو بينما فصل القرآن بواو الاستئناف والفاء وثم وبل وأم المنقطعة، وضمائر الفصل والجملية المعترضة، والاستثناء المنقطع كما حصرت الوصل في الواو فقط، بينما وصل القرآن بجميع حروف العطف، وجميع حروف الربط.

ثالثاً: أنها سمت الفصل بين الخبرية والإنشائية كمال الانقطاع، وجعلت الاتفاق بين ركني الجملة خبراً أو إنشائاً مبرراً للوصل بينما جوز سيويه، وبعض أئمة النحو عطف الخبرية على الإنشائية، وعدد ذلك الدكتور عزيمة في كتابه (دراسات لأسلوب القرآن الكريم).

رابعاً: أن ما أطلق عليه كمال الانقطاع مع إيهام الفصل خلاف المقصود، وضربوا له مثلاً: لا وعافاك الله، يعتبر دليلاً على عطف الإنشائية على الخبرية، ولا بمعنى أنني ذلك فهي جملة خبرية، وعافاك الله جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ لأنها أفادت الدعاء.

خامساً: أن هذه القواعد لم تراعى المعنى العام، ولا السياق الجامع المتجانس الذي اقتضى فصلاً هنا ووصلاً هناك، وانكشفت في أمثلة تعليمية وشواهد محدودة غاضة الطرف عن رحاب القرآن الفسيحة، وهذا كلام نقر فيه ما ذكره الدكتور منير سلطان موجزاً أوجه القصور في دراسة مبحث الفصل والوصل، ولعل ذلك مدعاة للدارسين والباحثين أن يولوا هذا المبحث اهتماماً بالرجوع إلى القرآن الكريم، والانطلاق مما قدم من جهود أمثال جهود الشيخ عزيمة - رحمه الله - في حصر الأساليب ودراسة هذه الأساليب بصورة بلاغية نقدية، مرجعها أهل التفسير والذوق في تلقي وبيان كلام الله ﷻ على أسس لغوية معتبرة.

محسّنات الوصل:

الوصل بين الجملتين يقتضي أن يكون الجملة الثانية لها تعلق، وترابط بالجملة الأولى، فإن من شأن التناسب أن يزيد الوصل حسناً، ويضفي عليه جمالاً وبهاءً، ومن التناسب أن تتفق الجملتان في الاسمىة أو الفعلية والاسميتان في نوع المسند إليه والمسند فيهما، والفعليتان في نوع الفعل فيهما. فمن التناسب في الاسمىة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، فالجملتان مع اتفاقهما في الاسمىة نجد تناسبا واضحا بين المسند إليه فيهما، فالأبرار ضد الفجار، وكذلك المسند فيهما، فالكون في النعيم ضد الكون في الجحيم، وقد يكون بين الجملتين تناسب في المضي كقوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]، فالمسند إليه في الجملتين واحد، والمناسبة ظاهرة بين الفرح والكرهية في المسند، ولك أن تشعر بجمال الوصل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ

سُطِّحَتْ ﴿٢٠﴾ الغاشية: ١٧ - ٢٠، فالمطلوب في الآية التأمل في خلق الله؛ ليصلوا إلى الإيمان بالبعث.

والتناسب بين الجمل واضح فقد بدأ حديثه بالإبل التي هي عنصر أساسي في حياة البدوي في صحرائه، وانتقل من الإبل إلى ما يروونه أمامهم في كل حين من سماء رفعت بلا عمد، وللسماء عند البدوي مكانة خاصة يتجه إليها ببصره يستنزل منها الغيث ويهتدي بنجومها في سراه بالليل، فإذا هبط ببصره قليلاً رأى هذه الجبال الشاخحة منصوبة تناطح السماء بقممها، وترسو في ثبات واطمئنان على أرض مهدت له، وسطحت أمامه أو لا نرى أن تنقل البصر بين هذه المخلوقات تنقلًا هادئًا طبيعيًا لا قفز فيه، وأن ارتباط بعضها ببعض في طبيعة البدوي مهد للربط بينهما وعطف بعضها على بعض.

هذا ما أشار إليه أستاذنا أحمد بدوي في كتابه (من بلاغة القرآن) بضرب أمثلة لجمال الوصل وما فيه من تأمل وأشار أيضًا بمثال آخر يقول: "وقد يحتاج معرفة الوصل بين الجملتين إلى مزيد عناية وتدبر كما في قوله تعالى: ﴿يَسْعَوْنَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلٌّ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١١٨٩]، فقد يبدو لأول النظر أنه لا ارتباط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت من ظهورها، ولكن الربط نشأ من أن ناسا من العرب كانوا إذا أحرموا بالحج لم يدخل أحدهم بيتًا ولا خيمة ولا خباء من باب، بل إن كان من أهل المضرت ثقب ثقبًا من ظاهر البيت؛ ليدخل منه وخرج من خلف الخيمة أو الخباء إن كان من أهل الوبر، فلما تحدث القرآن عن الأهلة، وأنها مواقيت للحج ناسب ذلك أن يتحدث عن عاداتهم هذه في الحج ذاكراً أنها ليست من البر في شيء. وقد أشار إلى ذلك أيضًا الزمخشري، وكان ذلك الكلام مستمدًا من كلام الزمخشري في (الكشاف)".

من محسنات الوصل أيضاً ما يسمى بعطف القصة على القصة أو مضمون كلام على مضمون كلام آخر قبله. انظر في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتَقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴿البقرة: ٢٤، ٢٥﴾، فيرى الزمخشري أن جملة ﴿وَبَشِّرِ﴾ هي وصف جملة ثواب المؤمنين معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما جوز أن يكون معطوفاً على قوله: ﴿فَأَتَّقُوا﴾.

وأخيراً هذه الإشارة إلى استخدام القرآن الكريم للواو، فإن الواو وإن كانت لطلق الجمع ولا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً؛ فليس معنى ذلك أن الآية القرآنية تجمع بين معطوفات على غير ترتيب ولا نظام بل تقديم المعطوف عليه يكون مشيراً إلى مغزى، ودالاً على هدف حتى تصبح الآية بتكوينها تابعة لمنهج نفسي يتقدم فيها، ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير.

فمثلاً يتقدم بعض المعطوفات على بعض كما يتقدم السبب على المسبب كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، فتقديم العبادة على الاستعانة بتقديم للوسيلة قبل طلب الحاجة، وذلك أنجح في توقع حصولها، وكذلك تتقدم الكلمة لتقدمها في العمل كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴿الحج: ١٧٧﴾، فالركوع قبل السجود، وكقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴿المائدة: ٦﴾، فمسح الرأس يتبع غسل الوجه، فغسل الوجه مقدم على مسح الرأس.

وأيضاً يتقدم الكثير على ما دونه كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴿التغابن: ١٤﴾ لأن العداوة في

الإعجاز النحوي في القرآن الكريم

الأزواج أكثر منها في الأولاد وقدمت الأموال على الأولاد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥]، لأن الأموال أكثر فتنة من الأولاد كما قدمت في الآية الكريمة ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦]، ولكنه سبحانه عندما ذكر الشهوات قدم النساء والبنين عليها فقال: ﴿ زِينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

هكذا نرى القرآن الكريم لا ينهج في ترتيب كلماته سوى هذا المنهج الفني الذي يقدم ما يقدم لمعنى نفهمه وراء رصف الألفاظ، وحكمة ندرتها من هذا النسيج المحكم المتين.

الفروق في الاستخدامات، وما بها من إعجاز بياني في نظم القرآن

ونتناول ثلاث ظواهر:

أولاً: الحال:

النحاة عندما يتحدثون عن الحال يقولون عنه: إنه وصف فضلة منتصب يبين هيئة صاحبه أو يصلح جواباً لكيف، وأنه يأتي نكرة وصاحبه يأتي معرفة، وأنه يكون منتقلاً غالباً، وأنه يأتي جملة ومفرداً، وما بينهما أي شبه جملة فإنها إذا قدرت بكائن صارت ناحية المفرد، وإذا قدرت باستقر صارت ناحية الجملة، وهذه الدراسة النحوية للحال تفيدها كثيراً عندما نتحدث عن الحال في الجانب البلاغي، فإن سألت كيف هذا؟

نقول لك: إن البلاغيين اهتموا في الكلام عن الحال بكونها تأتي مفردة، وتأتي جملة، وأسهبوا في بيان الكلام عن الجملة؛ لأنها التي يظهر فيها الفروق في الاستخدام، وهذا ما أشار إليه الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)، ونبداً في كلامنا المستمد من كلام النحاة، أن كلام النحاة في الحال وفي أقسامها وفي تنوعها غالباً ما يكون مستمداً من الناحية المعنوية والبلاغة تهتم بالمعاني مع الألفاظ، فإن قلنا في التعريف: إنهم يذكرون أن الحال وصف، وأنه فضلة، وأنه منتصب نقول: إن الوصف يعنون به ما هو مشتق، والفضلة يعنون بها ما ليس ركناً أساسياً في الجملة، والمنتصب هذه الناحية اللفظية في نطقه أنه يكون منصوباً بالفتحة أو ما ناب عنها. مثال الفتحة ﴿فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]، أو ما ناب عنها ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ [الدخان: ٣٨]، إلى غير ذلك مما هو كثير في كتاب الله ﷻ.

لم يقتصر كلام النحاة على هذا الشكل، إنما اهتموا ببيان أحوال الحال المفردة، والحال المفردة لاهتمام النحاة بها، والله أعلم لم يولها البلاغيون كثير اهتمام؛ لأن النحاة أولوا أو سدّدوا أو بينوا هذه الاستخدامات في الحال المفردة، فعندما يتحدثون عنها بأنها تكون منتقلة غالباً، وتأتي لازمة، وأنها تكون عمدة في المعنى فضلة في الموقع الإعرابي، وأنها تكون مؤكدة لعاملها أو لصاحبها أو لمضمون جملة قبلها؛ هذا كله لعلم المعاني أقرب منه لعلم النحو، وهو موجود في كلام النحاة، وباين وظاهر في أقوالهم وفي مصنفاتهم، وخاصة ممن يهتمون بنحو ذلك كابن هشام - رحمه الله.

العجاز اللغوي في القرآن الكريم

يقولون: إن الحال تأتي مشتقة أو وصفاً، فإذا ما أتت جامدة كان هذا الإتيان لغرض أو لبيان معنى ما وكونها تأتي جامدة، فذلك ينقسم عندهم إلى جامدة مؤولة بالمشتق، وجامدة غير مؤولة بالمشتق، فإذا نظرنا في أساليب القرآن نجد هذه الضروب جميعها موجودة في كتاب الله ﷻ فذلك يؤكد ما يميل الرأي إليه من أن النحاة استمدوا هذه القواعد وهذه التقسيمات من كتاب الله ﷻ ومن استخدامات القرآن الكريم للحال.

فكون الحال مشتقة هذا الأعم الأغلب بأنها تأتي اسم فاعل كقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا﴾ [القصص: ٢١]، وبأنها تأتي اسم مفعول كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨]، أو تأتي صيغة مبالغة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، إلى غير ذلك من صيغ الاشتقاق، ولكنها تأتي أيضاً في القرآن جامدة ومثال إتيانها جامدة غير مؤولة بالمشتق: ﴿وَنَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، فإن ﴿بُيُوتًا﴾ تقع موقع الحال، ومع ذلك هي جمع بيت، وهي كلمة جامدة ليست بمشتقة، وهذا الجمود فيها قد يكون ممهداً لمشتق بعدها، ومن ثم أطلقوا على بعض الحال ما يسمى بالحال الموطئة أو الحال الممهدة؛ لأنها تمهد لمشتق يأتي بعدها، وهي في الأصل جامدة من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، فكلمة قرآن جامدة، وكلمة ﴿عَرَبِيًّا﴾ بمعنى منسوب إلى العرب مشتقة، فجاءت كلمة ﴿قُرْآنًا﴾ في الآية الكريمة حالاً موطئة لكلمة ﴿عَرَبِيًّا﴾ التي وقعت صفة لها، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، فـ ﴿بَشَرًا﴾ هي التي تعرب حالاً، وفي الحقيقة الحال في استوائه بأنه على صورة سوية مألوفة لمن يراها بأنه بشر.

وكون الحال فضلة لا يعني أنه يستغنى عنها، فإنها قد تأتي غير مستغنى عنها من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادِكُمْ ۚ ﴾ [الدخان: ٣٨] فلا نستطيع حذف الحال، وإلا فسد المعنى، وكونها منتقلة هذا في الأعم الأغلب؛ لأنه كما يقال: دوام الحال من المحال، فعندما نقول: جاء محمد ضاحكاً، فإن محمداً لا يظل دهره ضاحكاً، وإنما ينتقل من حال إلى أخرى، ومع ذلك تأتي الحال لازمة وذلك شواهد كثيرة في كتاب الله ﷻ وإن كان النحاة يمثلون بقولهم: خلق الله الزرافة يديها أطول من رجلها على أن كلمة أطول وقعت حالا، وطول يد الزرافة عن رجلها مسألة لا تنتقل، فهي لازمة إلا أننا لو نظرنا في القرآن نجد أمثلة واضحة تؤكد هذا الاستخدام خير مما مثل به النحاة كقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٨]، ف ﴿ قَائِمًا ﴾ وقعت حالا، وهي لازمة كذلك قوله سبحانه: ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ ﴾ [الحديد: ٢٩]، فشبه الجملة ﴿ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ وقعت حالا، وكون الفضل بيد الله لا ينتقل البتة.

وأيضاً الحال تدل على الوصف حالة النطق بها، والاستخدام القرآني يبين لنا أن الحال قد تأتي بعد النطق بها، وهي ما تسمى بالحال المقدر أو المستقبلية التي تقع في المستقبل، كقوله تعالى: ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا ۗ ﴾ [البقرة: ١٦٢]، وكقوله تعالى: ﴿ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ۗ ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وكقوله تعالى: ﴿ وَنَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۗ ﴾ فلم تكن الجبال وقت النحت بيوتاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۗ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فالسجود يكون بعد الخرور.

واهتموا أيضاً ببيان الحال المؤكدة، والحال المؤكدة هي التي يستفاد معناها بدونها أي: أنها كما يقال: لا تفيده جديداً في وصف الهيئة، فالهيئة ظاهرة أو الكلام

العبار النوي في القرآن الكريم

مفهوم من الفعل أو من الصاحب أو من الكلام السابق لها، فلذلك تسمى مؤكدة، فهي تؤكد ما قبلها، وهذا اهتمام بجانب المعنى، وضرب من ضروب المعاني والبلاغة، فأشار إليه النحاة، وبينوه.

فمن المؤكدة لعاملها قوله تعالى: ﴿فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ فإن الضحك يستفاد من التبسم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ١٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾ (٧٦) وتأتي الحال مؤكدة لصاحبها كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ وقعت حالاً، وهي مؤكدة لصاحبها، وهو ما في الأرض، وما في الأرض عام وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [يونس: ١١٥]، فأيات الله لا تكون إلا بينات وتأتي الحال مؤكدة لمضمون الجملة التي قبلها كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فـ ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال، وأكدت مضمون الجملة الاسمية قبلها، وهو ﴿الْحَقُّ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦]، فالاستقامة لزم صراط الله ﷻ.

الغاية من دراسة الفروق في الحال

الفروق في الحال اهتم البلاغيون بإظهارها، وهي كون الحال تأتي جملة، فالحال الجملة لا بد لها من رابط يربطها بصاحبها هذا الرابط يكون واحداً من ثلاث؛ إما أن يكون الرابط هو الواو أو الضمير أو الواو والضمير معاً، والواو هي التي اهتم بها البلاغيون، فتحدث عنها الجرجاني، وقعد لها السكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) والدكتور منير سلطان في كتابه بين المواضع التي نصوا عليها في ذكر الواو وعدم ذكرها مع الحال، فبين أن خلاصة ما ذكره الجرجاني في

(الدلائل) أن الجملة الاسمية الحالية تفصل ، وكذلك الجملة الفعلية الحالية تفصل بمعنى ألا تربط بالواو أي: لا تكون الواو رابطة لها ، فيقول: "فصل جمل الحال الاسمية إذا كان الخبر في جملة من المبتدأ والخبر ظرفاً ثم قدم على المبتدأ ، كقولنا: عليه سيف ، وفي يده سوط كثر فيها أن تجيء بغير واو ، فمما جاء منه قول بشار في مدح خالد بن برمك :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها ❖ خرجت مع البازي علي سواد
فجملة "علي سواد" وقعت في موقع الحال ، ولم ترتبط بالواو ، وقد يجيء ترك الواو فيما ليس الخبر فيه كذلك ، ولكنه لا يكثر كقولهم: كلمته فوه إلى في ، هذا بالنسبة للجملة الاسمية ، وأما الجملة الفعلية ، فجملة الحال ذات المضارع المثبت أي: الجملة الفعلية الواقعة حالاً ، والمضارع فيها مثبت يقول: وهذه لا تكاد تجيء بالواو بل ترى الكلام على مجيئها عارية من الواو كقولك: جاءني زيد يسعى غلامه بين يديه. أما ذات المضارع المنفي أي يأتي الحال جملة فعلية ، فعلها مضارع وهو منفي يقول: يتغير الحكم فتجيء الواو ، وتترك كثيراً وذلك مثل قولهم: كنت ولا أخشى بالذئب أي: لا أخوف به ، أما الجملة الفعلية التي فعلها ماضٍ لا تقع حالاً إلا مع قد مظهرة أو مقدره أما مجيئها بالواو فالكثير الشائع ، تقول: أتاني وقد جهده السير ، وتأتي بغير الواو ، واستدل لها بيت شعر". هذا خلاصة ما ذكره الجرجاني ، وعدده الدكتور منير سلطان تحت عنوان جمل الحال المفصولة.

وضع السكاكي هذا الكلام في قواعد ، من هذه القواعد: أن الجملة الحالية ذات المضارع المثبت إذا جاءت فعلية ، مضارعها مثبت نحو: جاءني زيد يسرع أو يتكلم أو يعدو فرسه ، فالوجه ترك الواو والجملة الحالية ذات المضارع المنفي يجوز فيها الفصل والوصل ، والفصل أرجح نحو: جعلت أمشي ما أدري أين أضع

رجلي. أما الجملة الحالية ذات الماضي المثبت، والمنفي، فيجوز فيها الفصل والوصل، والوصل أرجح نحو قولك: أتاني وقد جهده السير أو أتاني قد جهده السير، والجملة بعد النكرة إن وصلت تكون حالاً وإن فصلت تكون صفة، والجملة الاسمية المنفية بليس تأتي مفصولة وموصولة، ولكنها مع الواو أدور مثل قولك: أتاني وليس معه غيره وأتاني ليس معه غيره. والحال الظرف يجوز فيها الفصل والوصل نحو قولك: رأيت على كتفه سيف، ورأيت على كتفه سيف، هذا بإيجاز ما عدده الأستاذ منير سلطان فيما ذكره الجرجاني والسكاكي في مجيء الحال موصولة بالواو أو مفصولة بترك الواو، التي هي عند النحاة رابط من روابط الحال.

هذا الكلام لا بد أن يكون لنا وقفة معه؛ ليتبين لنا هذا الذي ذكر في مجيء الواو في جملة الحال، وترك الواو وما ذهب إليه البلاغيون، وما انتهى إليه الباحثون المعاصرون في هذا الأمر، ولا نستطيع أن نصل إلى ذلك إلا بالعودة إلى المنابع الأصيلة، بمعنى أننا ننظر في كلام الجرجاني نفسه في (دلائل الإعجاز) وننظر في التطبيق العملي لما ذكره الجرجاني لماذا؟ لأن ما ذكر سواء عند الجرجاني أو السكاكي ينقصه مواضع الاستشهاد، فإنهم أكثروا من الاستشهاد بالشعر وبالأمثال والأقوال، وتركوا الغاية التي أرادوا منها بيان الإعجاز، وهو التطبيق على القرآن الكريم، وهذا ملمح يلمحه من ينظر في مواضع كلامهم في الكتابين (دلائل الإعجاز) و(مفتاح العلوم).

ونكتفي بـ(دلائل الإعجاز) وعرضه على الدراسة التي قام بها العلامة الشيخ عزيمة - رحمه الله - في كتابه (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) فقد أحصى - رحمه الله - مواضع مجيء الحال بالواو وصور مجيئها، والآيات التي جاء فيها هذا الأمر من كتب التفسير التي اعتمدها في دراسته، والتي رجع إليها، وهذا يبين أن ما ذكره الشيخ عزيمة - رحمه الله - لا يعد حصراً شاملاً؛ لأنه

اكتفى على مراجع، وعلى ما قاله المفسرون، فإدًا الذي ينظر نظرة أخرى في كتاب الله قد يجد مواضع أخرى تؤكد هذا الإحصاء الذي ذكره الشيخ، وتزيد عليه إذا ما أطلق المرء لنفسه أن ينظر في هذه الأساليب، ويقيسها على ما ذكره هؤلاء الأكابر في كلامهم.

يقول الجرجاني: "اعلم أن أول فرق في الحال أنها تأتي مفردًا، وجملة والقصد ههنا إلى الجملة أي: أن اهتمامهم بالكلام عن الحال الجملة كما ذكرت، وأول ما ينبغي أن يضبط من أمرها أنها تجيء تارة مع الواو، وأخرى بغير الواو، فمثال مجيئها مع الواو، قولك: أتاني وعليه ثوب ديباج، ورأيتَه وعلى كتفه سيف، ولقيت الأمير والجند حوالية، وجائني زيد وهو متقلد سيفه، ومثال مجيئها بغير الواو: جاءني زيد يسعى غلامه بين يديه، أتاني عمرو يقود فرسه. وفي تمييز ما يقتضي الواو مما لا يقتضيه صعوبة"، ويبين أن ذكر الواو هو ضرب من ضروب الإعجاز بقوله: "وإذ قد رأيت الجمل الواقعة حالًا قد اختلف بها الحال هذا الاختلاف الظاهر، فلا بد من أن يكون ذلك إنما كان من أجل علل توجبه وأسباب تقتضيه فمحال أن يكون ههنا جملة لا تصلح إلا مع الواو، وأخرى لا تصلح فيها الواو، وثالثة تصلح أن تجيء فيها بالواو، وأن تدعها فلا تجيء بها ثم لا يكون لذلك سبب وعللة، وفي الوقوف على العلة في ذلك إشكال وغموض ذلك لأن الطريق إليه غير مسلوک، والجهة التي منها تعرف غير معروفة". ثم أخذ في بيان لماذا تستخدم الواو في الجمل، وهذا هو سر الإعجاز في استخدامها.

ملحات الجرجاني في (دلائل الإعجاز)، وإحصاء الشيخ عزيمة

عناصر الدرس

- العنصر الأول : موازنة بين ما انتهى إليه الجرجاني وعزيمة في ٤٤٧
استخدام الحال
- العنصر الثاني : الفروق في استخدام الأفعال بأزمنتها المختلفة ٤٦٠
- العنصر الثالث : استخدام الجملة الاسمية والفعلية ٤٦٥

موازنة بين ما انتهى إليه الجرجاني وعزيمة في استخدام الحال

عقد الموازنة بين ما انتهى إليه عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) من لمحات في استخدام الحال، وبين ما أحصاه الشيخ محمد عبد الخالق عزيمة في كتابه (دراسات في أسلوب القرآن الكريم) فنقف مع هذه الفروق كتطبيق لما انتهى إليه الجرجاني من أحكام في استخدام الحال.

ونستطيع أن نطلق على هذه الموازنة: ضوابط الربط اللغوي بين الجرجاني والنص القرآني، قسّم الجرجاني الجملة التي تحتاج إلى رابط إلى نوعين: "جملة اسمية، وجملة فعلية" وتحدث عن الجملة الاسمية بذكر أربعة أحكام:

الحكم الأول: الجملة إذا كانت من مبتدأ وخبر؛ فالغالبُ عليها أن تجيء مع الواو، وهذا الكلام واضح جلي في كتاب الله ﷻ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ﴾ [هود: ٧٠، ٧١] ﴿قَالُوا لَئِن آكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف: ١٤]. ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا نُنزِّلُ قَالُوا ﴿النحل: ١٠١﴾ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١] ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ [البلد: ١، ٢] ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٥١، ٥٢] ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَيْنَا أَنْ نُبْرِئَهُمْ﴾ [التوبة: ٣٢].

العبار النوي في القرآن الكريم

فهذه الآيات التي قرأتها عليكم تلاحظوا فيها أن جملة الحال في كل منها الرباط فيها هو حرف الواو: ﴿وَأَمَلَّيْكَهٖ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦] ﴿وَأَمَلَّيْكَهٗ﴾ ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] ﴿وَالرَّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] ﴿وَأَمْرَآتُهُ قَائِمَةٌ﴾ [هود: ٧١] ﴿وَمَنْ عَصَبَهُ﴾ [يوسف: ٨] ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١] ﴿وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ فهذه جمل اسمية وقعت في موقع الحال، وإن كان بعضها يحتمل أوجهًا أخرى، إلا أن المفسرين نصوا على جواز الحالية في جميعها.

الحكم الثاني: والذي ذكره الجرجاني هو: "أنه إن كان المبتدأ من الجملة ضمير ذي الحال، لم يصلح لغير واو البتة"، يقصد إذا كانت الجملة الاسمية الواقعة حالاً المبتدأ فيها هو الضمير الذي يعود على صاحب الحال، ضمير ذي الحال يعني: صاحب الحال، فيتعين هنا وجود الواو، ولا يصلح البتة عدم الربط بالواو، وهذا مُشاهد واضح في كتاب الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ﴿فَالنِّعْمَةُ الْخَيْرُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] ﴿وَلَا تَنۢوَلُوٓا۟﴾ [هود: ٥٢] ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣] ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [٥٨] ﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤] ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَنِرْهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] وغيرها كثير في كتاب الله عندها يتعين الربط بالواو إذا كان المبتدأ ضميراً يعود على صاحب الحال.

الحكم الثالث: في الجملة الاسمية هو: "أنه إن كان الخبر في الجملة من المبتدأ والخبر ظرفاً، ثم كان قد قدّم على المبتدأ كثر فيها أن تجيء بغير الواو، يقصد إذا

كانت جملة الحال مكونة من مبتدأ وخبر، الخبر فيها شبه جملة؛ فمصطلح الظرف يُطلق تجاوزاً على الظرف على الحقيقة، وعلى الجارّ والمجرور، أي: الخبر شبه الجملة؛ فإذا قُدّم الخبر شبه الجملة على المبتدأ كثر فيها أن تجيء بغير الواو، وذلك أيضاً مشاهد في كتاب الله ﷻ: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جملة اسمية في موضع حال، ولم تربط بالواو وخبرها شبه الجملة المقدم فيه، والمبتدأ فيها كلمة "سكينة" التي هي مبتدأ مؤخر.

كذلك ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴿آل عمران: ٩٦، ٩٧﴾ كذلك ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧] ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ جملة اسمية في موضع نصب حال، وخبرها "فيها" شبه جملة خبر مقدم.

﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦] كالأية السابقة ﴿ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [الحج: ٩] فجملة: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ جملة حالية وخبرها شبه الجملة المقدم "له" ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعْتِيرٍ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦] أيضاً جملة اسمية في موضع نصب حال، وخبرها شبه الجملة المقدم لكم، وخير مبتدأ مؤخر.

وكذلك ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ﴿٢١﴾ [ق: ٢١] ﴿مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ ﴿١٩﴾ يَبْتَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ ﴿٢٠﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] "بينهما" شبه جملة خبر مقدم و"برزخ" مبتدأ مؤخر، والجملة في موضع نصب حال ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَكْهَةٌ﴾ [الرحمن: ٩، ١٠] ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾

﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد: ٢٥] ﴿ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ
 مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ [المسد: ٤ ، ٥] هكذا يتضح بالنص القرآني أنه يكثر مجيء جملة
 الحال بغير الواو، بل إنَّها لم تُرد في القرآن على هذه الصورة مربوطة بالواو، أو
 الرابط فيها الواو.

الحكم الرابع: حول الجملة الاسمية: "أنه قد يجيء ترك الواو فيما ليس الخبر فيه
 كذلك، ولكنه لا يكثر"، وهذا الحكم هو الذي نقف معه، ونعقب عليه: هذه
 العبارة التي أطلقها الجرجاني وأكدها بقوله: "وَيَدُلُّ عَلَى أَنْ لَيْسَ مَجِيءُ الْجُمْلَةِ
 مِنَ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ حَالًا بِغَيْرِ الْوَاوِ أَصْلًا قَلَّتْ، وَأَنَّهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا فِي الشَّيْءِ بَعْدَ
 الشَّيْءِ".

ويقول أيضاً: "ويجوز أن يكون ما جاء من ذلك إنما جاء على إرادة الواو، كما
 جاء الماضي على إرادة قد". هذه العبارات التي أطلقها الجرجاني، وأكدها في
 كتابه (دلائل الإعجاز) نتج عنها أن ذهب الزمخشري إلى أن جملة الحال إذا
 وقعت اسمية لا بد فيها من الرابط بـ"الواو" وهذا الحكم خلاف ما توارد من
 النصوص القرآنية، وما اتفق العلماء على جواز الوقوع حال لجملة اسمية لم
 تكن الواو رابطاً فيها.

وقد رد ابن هشام على الزمخشري في ذلك، وعرض بعض الآيات، وهذا ذكر
 لمجموعة من الآيات التي ورد الحال فيها جملة اسمية، ومع ذلك لم تربط بالواو
 كقوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة: ٣٦] فجملة ﴿ بَعْضُكُمْ
 لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ في موضع نصب حال، ولم تربط بالواو.

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [٣٩] فجملة ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ جملة حالية، ولم تربط بالواو، وكذلك ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦٥] جملة اسمية وقعت في محل نصب حال، ولم تربط بالواو.

﴿ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء: ٨٧] كذلك لم تربط بالواو ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ [٤٩] سرابيلهم من قِطْرَانٍ ﴿ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠] جملة اسمية في موضع نصب حال، ولم تربط بالواو.

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ اجْتَثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ [٣٦] ﴿ [إبراهيم: ٢٦] فجملة ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ كما تجوز أن تكون صفة تجوز أن تكون حال من ضمير "اجتثت" ومع ذلك لم تربط بالواو.

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ [٩٨] ﴿ [الأنبياء: ٩٨] فكذلك ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ في محل نصب حال، ومع ذلك لم تربط بالواو ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبِكَمَا وَصَمَّا مَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الإسراء: ٩٧] جملة حالية لم تربط بالواو ﴿ وَاسْلَيْمَنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ: ١٢] لم تربط بالواو، وغير ذلك من الآيات.

حتى إن ابن هشام قد تندر على هذه الآية الكريمة في سورة "الزمر": ﴿ وَيَوْمَ أَلْقَيْتُمُ تُرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠] فجملة ﴿ وُجُوهُهُمْ مُّسْوَدَّةٌ ﴾ في موضع نصب حال، ومع ذلك لم تربط بالواو فتندر بأن أحد من يدعي العلم قال: ألا ترى الواو في أولها.

نتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الجملة الحالية إذا وقعت جملة فعلية وذلك في نقاط:

أولاً: إن كان الفعل مضارعاً مثبتاً غير منفي، لم يكد يجيء بالواو؛ سواء كان الفعل لذي الحال، يعني صاحب الحال، كقولهم: جاءني زيد يسرع، أو لمن هو من سببه، كقولهم جاءني زيد يسعى غلامه بين يديه.

وقال: وعليه التنزيل والكلام، وهذا واضح في كتاب الله ﷻ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا تَسْتَكْتَرُوا﴾ [المذثر: ٦] وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ، يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٨] وقوله سبحانه: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١٨٦] ﴿الأعراف: ١٨٦﴾ وقوله سبحانه: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ [مريم: ٢٧] وقوله سبحانه: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٤] فهذه الجمل "تستكثر" و"يتزكى" و"يعمهون" و"تحمله" و"نقصها" جمل فعلية في موضع نصب حال، ولم تربط بالواو.

ولكنه مع ذلك قد جاءت آيات في كتاب الله ﷻ الحال فيها جملة فعلية، وربطت بالواو، وقد عقب الجرجاني بقوله: "ولم يكد يجيء بالواو، وهذا خلاف ما نراه في النصوص القرآنية التي أحصاها الشيخ عضيمة في كتابه، ولكننا للإنصاف نقول: إن معظم النصوص، وأغلبها التي استشهد بها الشيخ عضيمة، تحمل غير الحالية، بمعنى أنها ليست نصاً في الحال، وإن كان المفسرون أجازوا فيها الحالية.

وربما ذكر الجرجاني ذلك بناء على القاعدة المشهورة: "ما يتطرق إليه الاحتمال يسقط به الاستدلال". فلذلك لم يعد ما ورد من ذلك في كتاب الله ﷻ مع كثرته أنه من باب مجيء الحال جملة فعلية، فعلها مضارع مثبت، ومع ذلك مقترنة أو

مربوطة بالواو من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤] وقوله سبحانه: ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ [البقرة: ٩١] فجملته: ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ وجملته: ﴿ وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ تحمل الحالية، وفعلها مضارع مثبت، ومع ذلك ربطت بالواو.

وقد رجح العلماء الحالية في بعض الآيات كقوله سبحانه: ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴿ آل عمران: ١٧٠ ﴾ فجملته: ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ في موضع نصب حال ومقتزنة بالواو، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ [المائدة: ٨٤] فجملته: ﴿ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ جملة الحالية، ومع ذلك ارتبطت بالواو، أو ربطت بالواو.

وكذلك آية الأحزاب: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فجملته: ﴿ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ ﴾ وجملته: ﴿ وَتَخَشَى النَّاسَ ﴾ في محل نصب حال، واقتترنت بالواو.

وإن كان بعض العلماء يرفض ذلك، وإن أقر فيها الحالية، فإنما يصرفها على أن الجملة اسمية وليست فعلية، وأن هذه الجملة الفعلية خبر لمبتدأ محذوف هذا المبتدأ هو الضمير الذي عائد على صاحب الحال، والتقدير: "وأنت تخفي في نفسك ما الله مبديه"، و"أنت تخشى الناس" إلى غير ذلك مما يقدر في الآيات كقوله سبحانه: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١] أي: وهي

تشتكي إلى الله، وإلى غير ذلك من الآيات ولكننا نبهنا على ذلك؛ لأن هذا الإحصاء الذي أحصاه الشيخ عزيمة في اثنين وعشرين موضعاً في كتاب الله، جاءت فيها الجملة الحالية مضارعة مثبتة، ومع ذلك ربطت بالواو.

ويقول: الحكم الثاني: فإن دخل على المضارع حرف نفي تغير الحكم، فجاء بالواو وبتركها كثيراً.

وهذا مثاله أيضاً في كتاب الله كثير؛ مثال الربط بالواو، وهي الجملة منفية قوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] ﴿قَالَ أَتَخْجَرُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٨٠] ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ﴾ [٧٧] ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ [الرعد: ٣٦] على قراءة من قرأ بالرفع "ولا أشرك به". ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [١٤] ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [١٥] [الشمس: ١٤، ١٥] هذه الآيات واضحة في الربط بالواو، وهي جملة منفية بـ"لا".

وأيضاً مما ورد بالنفي في القرآن النفي بـ"لم" والنفي بـ"ما" فقد جاء بالواو وبغير الواو مثال الواو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٨٣] فجملة ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ في محل نصب حال وقرنت بالواو وهي مضارعة منفية بلم، وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] فجملة: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ الحالية واقتربت بالواو، وهي منفية بلم.

ومثال وقوع الحالية منفية بلم ولم تقترن بالواو قوله تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] وقوله سبحانه: ﴿فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ

﴿ فَضِّلْ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٤] فجلمة: ﴿ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَلْسِنَتِكَ ﴾ ﴿ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ ﴾ ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ كلها جمل حالية وقعت ، ولم تقترن بالواو.

ومثال النفي بـ"لما" مقترنة بالواو قوله سبحانه: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس: ٣٩] وقوله سبحانه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] هذا يؤكد ورود الجمل المضارعة المنفية مقترنة بالواو وغير مقترنة بها، أما إذا كانت الجملة الفعلية فعلها ماضٍ ؛ فقد قال الجرجاني: "يجيء بالواو وغير الواو، ولا يقع حالاً إلا مع قد مظهرة أو مقدره، أما مجيئها بالواو فالكثير الشائع".

وهذا يؤكد ما ورد من إحصاءات الشيخ عزيمة، حيث أحصى خمسة وثلاثين موضعاً في كتاب الله غير ما يوجد أيضاً في كتاب الله ولم يذكره الشيخ؛ لأننا كما ذكرنا أن الشيخ - رحمه الله - اعتمد ما ورد في كتب التفسير.

ومما ورد في كتب التفسير: ﴿ أَمْحَجُّوَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي ﴾ [الأنعام: ٨٠] ﴿ أَنِّي يَكُونُ لِي عِلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ ﴾ [آل عمران: ٤٠] ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا ﴾ [البقرة: ٢٤٦] ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء: ٢١] ﴿ أَنِّي لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ [١٣] [الدخان: ١٣] وغير ذلك من الآيات أما إذا كان الماضي منفيًا؛ فيأتي بالواو وبغير الواو، ومثال المنفي بالواو: ﴿ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧١] ﴿ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران: ٦٥] فهذه جمل حالية ﴿ وَمَا كَادُوا ﴾ ﴿ وَمَا أُنزِلَتِ ﴾ وفعلها ماضٍ منفي بـ"ما".

العبار النوي في القرآن الكريم

ومما ورد في القرآن من مجيء الجملة الحالية مصدرية بـ"قد" وغير مقترنة بالواو قوله ﷻ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [١١] [الطلاق: ١١] فجملة: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [١١] جملة حالية، ولم تقترن بالواو، وصدرت بـ"قد".

أما مجيء الجملة التي فعلها ماض من غير "قد" وكما يقول الجرجاني مع قد مظهرة أو مقدره؛ فإنهم يقدرون وجود "قد" في هذه الجمل فهي مواضع عديدة في كتاب الله ﷻ وجرت عاداتهم أن يُقدروا فيها "قد" قبل الفعل، مثال قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ يقدرون "وقد كنتم أمواتاً".

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] أي: وقد أشربوا في قلوبهم العجل ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣] ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] أي: و"قد رأوا العذاب" و"قد تقطعت بهم الأسباب". ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ [البقرة: ٢٦٦] أي: وقد أصابه الكبر. وعلى ذلك ما ورد في كتاب الله ﷻ يُقدرون مع الماضي "قد".

وانتقل الجرجاني بعد هذه الأحكام حول الجملة الاسمية والفعلية إلى ذكر المواضع التي يُلطف فيها الاستغناء عن الواو، وذكر في ذلك ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: أن تصدر الحالية بـ"ليس" أي: تكون جملة اسمية منسوخة بـ"ليس" التي هي من أخوات كان، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرٌ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَوَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦] فجملة "ليس له ولد" حال من الضمير في "هلك" غير مقترنة بالواو، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾

﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ ﴾ [الأنعام: ٥١] فجملة: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ ﴾ حال من ضمير "يحشروا".

الموضع الثاني: الذي ذكره الجرجاني هو دخول حرف على الجملة الحالية، ومثل له بـ"كأن" وقال: "مما ينبغي أن يراعى أنك ترى الجملة قد جاءت حالاً بغير واو، ويحسن ذلك ثم تنظر فترى ذلك إنما حسن من أجل حرف دخل عليها، مثاله قول الفرزدق:

فقلت عسى أن تبصريني كأنما ❖ بني حوالي الأسود الحوارد
فنظر إلى أنّ الجمال في دخول "كأن" على الجملة؛ فحسن لذلك حذف الواو
وعدم ذكرها.

وهذا أيضاً ما نشاهده في آيات الله ﷻ في القرآن الكريم، من عدم اقتران الجملة الحالية المصدرية بكأن بالواو من ذلك قوله تعالى: ﴿ بَدَأَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١]
فجملة: ﴿ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ جملة حالية، وصاحب الحال كلمة فريق
وعاملها نبت. وكذلك قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّارَءَاهَا تَهْتَزُّ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلِيٌّ مُدْبِرًا ﴾ [النمل: ١٠]
جملة: ﴿ كَانَتْهَا جَانٌّ ﴾ حال ثانية، فالحال الأولى جملة تهتز.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ
فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ [القمان: ١٧] وغير ذلك كثير في كتاب الله كقوله سبحانه: ﴿ فَتَرَى
الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧] ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفُضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣] ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [٤٩]
﴿ كَانَتْهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴾ [الدُّثْر: ٤٩، ٥٠] ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ

﴿مُنْفَعِرٍ ۚ﴾ [القمر: ٢٠] ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۚ﴾ [القمر: ٢٧]

وغير ذلك من الآيات.

الموضع الثالث: الذي يحسن فيه نزع الواو، ويلطف ذلك بلاغيًا هو: وقوع الحال الجملة بعد المفرد، وذلك يؤدي بنا إلى الحديث عن مسألة الترتيب بين الأحوال، إذا ما جاء الحال أو تعدد الحال فمن الذي يصدر؟ المفرد أم الجملة أم شبهة الجملة؟ جرت العادة أن يذكروا أن الأولى بالتقديم هو المفرد، ثم شبه الجملة، ثم الجملة على أصل الترتيب بينهم، وذلك قول على الأولى أو على الشائع أو على الافتراض القياسي.

أما بالنظر للنصوص القرآنية والنصوص الأدبية الواردة في ترتيب الأحوال: نجد أنّ هذا الكلام لا أصل له ولا صحة له؛ فقد يتقدم الجملة على المفرد، وقد يتقدم المفرد على الجملة، ويتقدم الظرف على المفرد، ويتقدم المفرد على الظرف، وكل ذلك في كتاب الله ﷻ وقد عرض له الشيخ عزيمة بأمثلة متنوعة من الترتيب بين الأحوال، ويُلاحظ في هذا الترتيب أنه تُقدّم الحال التي هي مقدمة في السياق أو التي يراد إبرازها في سياق الآيات؛ فهو الذي يحتكم إليه في الترتيب، وليس نوع الحال مجرداً هل هو مفرد؟ أم جملة؟ أم شبه جملة؟

ومن النماذج المختلفة لذلك في الترتيب من مجيء الحال الجملة الفعلية بعد المفرد قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ﴾ [النساء: ١٤٢] ﴿كُسَالًا﴾ حال مفردة ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ حال جملة فعلية، وجاءت بعد المفردة.

ومن مجيء الجملة الاسمية بعد المفرد قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ يُدِينُونَ مَرْضُوضًا﴾ [الصف: ٤] فصفاً حال أولى مفردة و﴿كَانَهُمْ يُدِينُونَ مَرْضُوضًا﴾ [٤] حال ثانية جملة، ولم تقترن بالواو كذلك ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] على أساس أن الرؤية من البصر، فتكون صرعى حال أما إذا كانت الرؤية منامية، أو ظنية فتكون صرعى مفعولاً ثانياً لـ"ترى".

الشاهد: أن الترتيب - كما ذكر - يكون على أساس واحد، هذا الأساس هو الأولى في التصدير في السياق، وليس نوع الحال.

ونختتم كلامنا مع الجرجاني من أنه نصّ على أن الاقتران بالواو، عدم الاقتران به لا يكون إلا لغرض إعجازي أو لغرض بلاغي، فقال رحمه الله: "فاعلم أن كل جملة وقعت حالاً ثم امتنعت من الواو؛ فذاك لأجل أنك عمّدت إلى الفعل الواقع في صدرها، فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد، وكل جملة جاءت حالاً ثم اقتضت الواو؛ فذاك لأنك مستأنف بها خبراً، وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات".

وبداً - رحمه الله - يشرح ذلك مبيّناً بالأمثلة عندما تقول: "جاءني زيد يسرع" كان قولك بمنزلة "جاءني زيد مسرعاً" في أنك تثبت مجيئاً فيه إسراع، وتصلُّ أحد المعنيين بالآخر، وتجعل الكلام خبراً واحداً؛ كأنك تريد أن تقول: "جاءني بهذه الهيئة".

أما إذا قلت: "جاءني وغلّامه يسعى بين يديه" أو "رأيتُ زيداً وسيفه على كتفه" كان المعنى على أنك بدأت، فأثبت المجيء والرؤية، ثم استأنفت خبراً وابتدأت إثباتاً ثانياً لسعي الغلام بين يديه، ولكون السيف على كتفه، ولما كان المعنى على

العبار النوي في القرآن الكريم

استئناف الإثبات ، احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى ؛ فجاء بالواو كما جاء بها في قولك : "زيد منطلق وعمرو ذاهب" و"العلم حسن والجهل قبيح". ويقول : "وتسميتنا لها واو الحال لا يخرجها عن أن تكون مجتلية لضم جملة إلى جملة" فبين بذلك - رحمه الله - أن لا يكون الربط بالواو ، وعدم الربط إلا لغرض إعجازي ، وغرض بلاغي ، وهذا ما تستطيع أن تستنتج مما ذكرنا من آيات في مجيء الحال والربط بالواو فيها.

الفروق في استخدام الأفعال بأزمنتها المختلفة

وننتقل الآن إلى ذكر الفروق في استخدام الأفعال بأزمنتها الثلاثة المختلفة ، كما تعلم أن الفعل لا يخرج عن أحد أزمنة ثلاث : إما أن يكون ماضياً أو يكون حالياً أو يكون مستقبلاً ، وهذه القسمة نجدها في كتاب الله ﷻ : ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [مريم: ٦٤] "فما بين أيدينا" هو المستقبل ، و"ما خلفنا" هو الماضي ، وما بين ذلك هو الحاضر ؛ فهذه قسمة معلومة.

وقد اهتم النحاة ببيان الكلام عن أزمنة الثلاثة للفعل ، وبيان تناوبها في الاستخدام ، بمعنى : أن الماضي قد يدل على المستقبل بدلالة السياق أو بالقرائن ، وأن المضارع ينقلب إلى الماضي إذا ما سبقته لم ، وأن الأمر يدل على الاستقبال ، وقد يدل على الاستمرار ؛ كما نقول في سورة الفاتحة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فإننا نطلب الثبات والدوام على الهداية ، ولا ننشئ الهداية ؛ فإنك لو لم تكن مهتدياً ما وقفت بين يدي الله ﷻ تصلي له وتتعبد.

وأيضاً نبهوا على عملية الماضي أنه يأتي على المستقبل بقرينة المعنى ، كقول أخوة يوسف # : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ [يوسف: ٦٣] فقولهم : ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ لو أخذ على ظاهره لكان اتهاماً لهم بالكذب ؛ لأنّ يوسف # وفاهم الكيل وأحسن إليهم وطالبهم بأن يعودوا له بأخ له من أبيه فإنما قالوا : ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ على معنى "سيمنع منا الكيل إن لم تعطنا أخانا" وذلك واضح بدلالة السياق.

هذا كله تمهيد لما نحن بصدده ، أو بالكلام عنه أنّ البلاغي يهتم في هذه المسألة باستخدام الفعل بصيغة غير التي وضع لها في الأساس ، أو بمعنى آخر العدول من صيغة إلى صيغة ؛ بأن يقع الماضي بين مضارعين ، أو أن يراد بالماضي المضارعة ، أو أن يراد بالمضارع الماضي وعكس ذلك.

وهذا ما أشار إليه ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) ووضح المسألة وعد ذلك من الالتفات ، وذكر أنه من شجاعة العربية ، وضرب أمثلة جميلة لك أن تتأملها لترى ما فيها من إبداع وإعجاز في النظم القرآني.

يقول : "ليس الانتقال من صيغة إلى صيغة طلباً للتوسع في أساليب الكلام فقط ؛ بل لأمر وراء ذلك ، وإتّما يُقصد إليه تعظيماً لحال من أجرى عليه الفعل المُستقبل ، وتفخيماً لأمره ، وبالضد في ذلك فيما أجرى عليه فعل الأمر".

فهو هنا يتحدث عن الرجوع عن الفعل المُستقبل إلى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر ؛ فيرى أن ذلك لا يكون إلا لغرض بلاغي فمما جاء منه قوله تعالى : ﴿ يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدْ وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ [هود: ٥٣ ، ٥٤].

فقال هود # : ﴿ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوْا ﴾ ولم يقل: "أشهد الله وأشهدكم" ليكون موازناً وبمعناه؛ لأن إشهداه الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهداهم فما هو إلا تهاون بهم، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم؛ ولذلك عدل به عن اللفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن ييس الشرى بينه وبينه يقول له: "أشهد علي أنك أحبك" تهكمًا به واستهانة بحاله.

فهو هنا يريد أن يقول لك: أن اختلاف الصيغة كان لأمر واضح يتعلق بالمعنى؛ فلم يأت موازناً على المضارعة، وإنما عدل إلى الأمر؛ لبيان قلة المبالاة بأمر هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ﷻ.

يقول: وكذلك يرجع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر، ويفعل ذلك توكيداً لما أجري عليه فعل الأمر؛ لمكان العناية بتحقيقه كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩] كأنّ تقدير الكلام "أمر ربي بالقسط وإقامة وجوهكم عند كل مسجد" فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم؛ فإن الصلاة من أوكذ فرائض الله على عباده، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب؛ إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ((الأعمال بالنيات)).

فابن الأثير هنا يبين لك العدول عن صيغة إلى صيغة أخرى لغرض يتصل بالمعنى، ويقول عبارة جميلة: "واعلم أيها المتوشح بمعرفة علم البيان؛ أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاها في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة،

الذي اطلع على أسرارها، وفتش عن دفاتنها، ولا تجد ذلك في كل كلام؛ فإنه من أشكال ضروب علم البيان، وأدقها فهمًا، وأغمضها طريقًا. وذلك يوضح أن النظر في استخدام الأفعال إنما ذلك يكون عن حسن فهم وتذوق لكلام الله ﷻ.

ينتقل بعد ذلك بالكلام عن الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي؛ يقول: "اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود الفعل، كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأنَّ الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأنَّ السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي، وربما أُدخل في هذا الموضع ما ليس منه جهلاً بمكانه، فعنده ليس كل فعل مستقبل يعطف على ماضٍ بجار هذا المجري".

يعني: يريد أن ينبهك إلى أن استخدام الماضي والمستقبل كل منهما محل الآخر، هذا يكون لغرض يريده المتحدث هذا الغرض أحد غرضين: إما أن يكون غرضًا بلاغيًا أو غرضًا غير بلاغي؛ فمن الأغراض البلاغية التي تُحتاج في هذا الجانب هو إخبار عن ماضٍ بمستقبل لإبراز صورة معينة يريدها المتحدث، من ذلك قوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّورُ ٩﴾ [فاطر: ٢٩].

فإنما قال ﷻ: "فتثير" مستقبلاً وما قبله وما بعده ماضٍ "أرسل" "فسقنا" أفعال ماضية وتثير فعلاً مضارعاً، لذلك المعنى المراد وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة.

العبار النوي في القرآن الكريم

وانظر أيضاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ ﴾ [الحج: ٣١] فقال ﷺ أولاً: ﴿ خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ بلفظ الماضي، ثم عطف عليه بالمستقبل الذي هو: ﴿ فَتَخَطَفَهُ ﴾ و﴿ تَهَوَّى ﴾ وعدل في ذلك إلى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه، وهوي الريح به والفائدة في ذلك هو: استحضار الصورة عند قراءة الآية الكريمة. فلم يقل ﷺ: "خر فخطفته فهوت" وإنما: ﴿ فَتَخَطَفَهُ ﴾ ﴿ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ ﴾ .

كذلك في قوله ﷺ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ "كفروا، وصدوا" لا ﴿ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ ﴾ لماذا؟ لأن كفرهم كان ووجد، ولم يستجدوا بعده كفراً ثانياً أما الصد؛ فهو متجدد على الأيام لم يمض كونه، وإنما هو مستمر يستأنف في كل حين.

ومقابل ذلك الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل؛ فهو عكس ما تقدم وله فائدة: أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأؤكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأنّ الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها.

انظر إلى قوله ﷺ: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٨٧] وإنما قال ﷺ: ﴿ فَفَزِعَ ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله: ﴿ يُنْفَخُ ﴾ وهو بلفظ المستقبل للإشعار بتحقيق الفزع، وأنه كائن لا محالة؛ لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به.

وكذلك قوله ﷺ: ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۗ ﴾ [الكهف: ٤٧] فإنما قال ﷺ: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ ولم يقل: "ونحشرهم" للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز؛ ليشهدوا تلك الأحوال، كأنه قال سبحانه: "وحشرناهم قبل ذلك" لأن الحشر هو المهم؛ لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي.

ولك أن تتأمل الآية المشهورة في أول سورة "النحل": ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١] فعبّر المولى ﷺ بلفظ الماضي؛ لأن ذلك أمر محقق واقع، هذا بعض ما تبدى للبلاغيين في ذكر الفروق في استخدام الأفعال الثلاثة بأزمنتها المختلفة.

استخدام الجملة الاسمية والفعلية

أما استخدام الجملة الاسمية والفعلية؛ فيعدل عن الفعلية إلى الاسمية لغرض معين ذكرناه قبل ذلك في باب التوكيد، كما نص عليه أيضاً ابن الأثير في كتابه إذ يقول: "وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر؛ لضرب من التأكيد والمبالغة". فمما جاء من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمْنَا وَإِذَا حَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

فإنهم خاطبوا المؤمنين بجملة الفعلية "آمنا" وخاطبوا شياطينهم بالجملة الاسمية المؤكدة بـ"إن" لأنهم في مخاطبتهم إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط؛ فكان ذلك متقبلاً منهم ورائجاً عند إخوانهم، أما الذي خاطبوا به المؤمنين؛ فإنهم قالوه تكلفاً وإظهاراً للإيمان خوفاً ومداجاةً، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه

بأوكد لفظ وأسده ؛ لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجاً ظاهراً لا باطناً، ولأنهم ليس لهم في عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة ؛ فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين "آمننا" وفي خطاب إخوانهم "إنا معكم".

وهذه نكت تحفى على من ليس له قدم راسخة في علم الفصاحة والبلاغة.

هذا نموذج من كلام ابن الأثير حول هذه المسألة، وقد اهتم العلماء أيضاً بمسألة الجملة، وذلك عرضناه لك في ثنايا ما تحدثنا عنه في المنهج من مسألة التقديم والتأخير، ومسألة استخدام النكرة والمعرفة، وغير ذلك داخل الجمل.

ونكون بذلك قد انتهينا من منهجنا، ونسأل الله ﷻ أن يرزقنا الفهم الصحيح، وأن يرزقنا العلم الصحيح، وأن يكون ذلك مدعاة للقرب من الله ﷻ وطريقاً إلى رضاه ﷻ والله ولي التوفيق.

قائمة المراجع العامة

١. (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)

مصطفى صادق الرافعي، تحقيق: درويش جويدي، بيروت، المكتبة
العصرية، ٢٠٠٢م

٢. (إعجاز القرآن)

عبد الكريم الخطيب، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٤م

٣. (دراسات في أساليب القرآن الكريم)

محمد عبد الخالق، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٥م

٤. (أسرار التوكيد في نظم القرآن الكريم)

محمود عبد العظيم صفا، دار الكتاب الجامعي، ١٩٩٣م

٥. (الإعجاز البلاغي)

محمد محمد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٧٧م

٦. (دار بلاغة العطف في القرآن)

عفت الشراوي، بيروت، النهضة العربية، ١٩٨١م

٧. (بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار)

عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، ١٩٧٨م

٨. (التصور الفني في القرآن الكريم)

سيد قطب، دار المعارف، ١٩٦٦م

٩. (التصوير القرآني لتقييم الخلقية والتشريعية)

علي علي صبح، المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٠١م

١٠. (التعريف في القرآن الكريم)

إبراهيم محمد الخولي، القاهرة، مطابع الجمعية الفكرية، ١٩٨٥م

١١. (دلائل الإعجاز)

عبد القاهر الجرجاني تعليق محمود محمد شاكر، مكتب الخانجي، الطبع
الخامسة، ٢٠٠٤م.

١٢. (الفصل والوصل في القرآن الكريم)

منير سلطان، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣م

١٣. (القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي)

محمد محمد أبو ليلة، دار النشر للجامعات، ٢٠٠٢م

١٤. (معاني الحروف)

أبو الحسن الرماني، تحقيق: عرفان بن سليم العشا وزميله، المكتبة
العصرية، ٢٠٠٥م

١٥. (من أسرار التعبير في القرآن)

عبد الفتاح لاشين، عكاظ للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م

١٦. (من بلاغة القرآن)

أحمد بدوي، القاهرة، مكتبة نهضة، ١٩٥٠م

١٧. (النبأ العظيم)

محمد عبد الله دراز، الكويت، دار القلم، ١٣٩٤هـ

